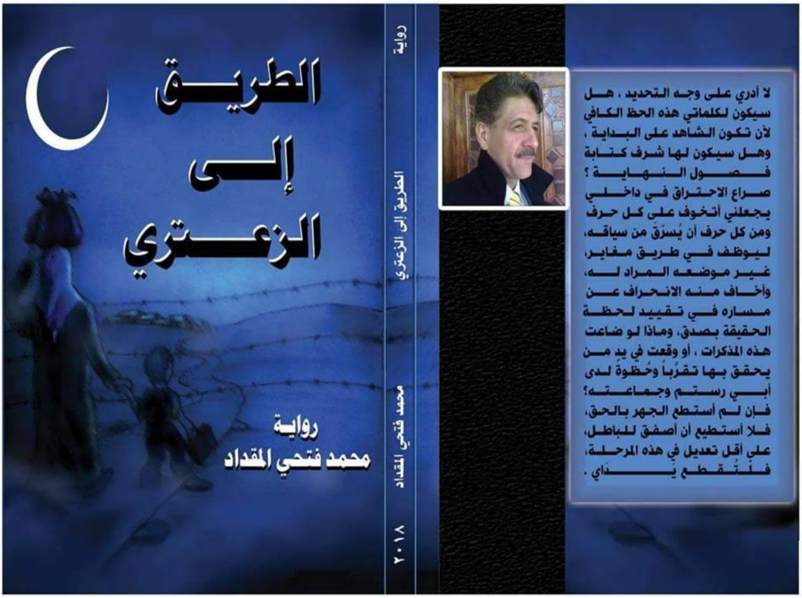
الطريق
إلى
الزعتري
رواية
محمد فتحي المقداد
رواية
الطريق إلى الزعتري
محمد فتحي المقداد
٢٠١٨
لا أدري على وجه التحديد ، هل سيكون لكلماتي هذه الحظ الكافي لأن تكون الشاهد على البداية ، وهل سيكون لها شرف كتابة فصول النهاية ؟
صراع الاحتراق في داخلي يجعلني أتخوف على كل حرف ومن كل حرف أن يُسرَقَ من سياقه، ليوظف في طريق مغاير، غير موضعه المراد له، وأخاف منه الانحراف عن مساره في تقييد لحظة الحقيقة بصدق، وماذا لو ضاعت هذه المذكرات ، أو وقعت في يدِ من يحقق بها تقرُّباً وحُظوة لدى أبي رستم وجماعته؟
فإن لم أستطع الجهر بالحق، فلا أستطيع أن أصفق للباطل، على أقل تعديل في هذه المرحلة، فلتُقطع يَداي .

الطّريق إلى الزعتري

رواية

محمد فتحي المقداد

|| ٢٠١٨ ||

التصنيف

المواصفات: القصص العربية\ العصر الحديث
رواية (الطريق إلى الزعتري)
المؤلف (محمد فتحي بن قاسم المقداد)
***

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
المملكة الأردنية الهاشمية
٢٠١٨\ ٣\ ١٠٤١

ردمك(٩٧٨-٩٩٥٧-٦٩٢-٣٥-٣)ISBN

(الطبعة الأولى)

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

يتحمّل المؤلف كامل المسؤوليّات القانونيّة عن محتوى مصنّفه، ولا يُعبّر هذا المصنّف عن رأي المكتبة الوطنيّة أو أيّة جهة حكوميّة أخرى.

دار عمار للنشر والتوزيع
عمان - ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧ - ص.ب ٩٢١٦٩١ عمان ١١١٩٢ الأردن
E-mail: dar_ammar@hotmail.com

- **لوحة الغلاف – للفنّان عماد الرسّام (عماد عبدالله المقداد).**
- **تصميم الغلاف ومراجعة نهائية – الشـــاعر محمد طكّـو.**

●●باقات شكر●●

- الأستاذ القاص - خليل النابلسي.
- الشاعر والناقد - عبدالرحيم جداية.
- الأستاذ - محمد مدالله العساسفة.
- الشّاعر - طالب الفرّايـــة.
- الدكتور - سلامة السّراحين.
- الروائيّة - ابتسام شاكوش.
- الشاعر - ياسر عمار (الحليم) المقداد.
- الشاعر - أحمد طناش شطناوي.

لجهودهم الرائعة، بمُساعدتي في مراجعة وتدقيق وتقويم وتصويب لمسار النصّ الروائيّ، الأمر الذي انعكس إيجابيًّا على استقامته؛ ليتوافق مع الأصول المرعيّة لقواعد اللغة العربيّة، و البناء الدراميّ للرواية.

دام فضلكم أحبّتي

محمد فتحي المقداد

تنويه.. وبلا مقدمات..!!

أحداث هذه الرّواية خليط خياليّ وواقعيّ، من الممكن تَشابُه أحداثها وأماكنها،وشخوصها بأفعالهم وأقوالهم، القرية (موْج)، من المفترض أنّها جزء من سوريّة، وأنموذج مصغّر بمساحة وطن جريح.

محمد فتحي المقداد

٢٠١٨

مقدّمة

إنّ الزّمن هو أشرف النّقاد؛ لأنّه النّاقد الوحيد الذي يُعلي الحقّ، ويُسقط الباطل، ولا ينحاز لأحد .

طاغور

(١)

-: "البداية أوّل كلّ شيء، و كلّ بداية لا بد لها من نهاية..، ولولا البداية لما كانت النّهاية، والبدايات تُنبئ عن النّهايات، والمكتوب يُقرأ بدايةً من عنوانه، والبداية في حاضرنا ستكون هي الماضي فيما بعد، وسيُعتبر جزءًا من تاريخنا، فما بال حاضرنا ينوءُ بأثقال ماضيه، تَحَجَّر، فَقَعَدَ عن مُتابعة الطّريق إلى الأمام، ومنعنا من التطلّع لمستقبلنا.

"قُلْ للبدايات قد ساءت نِهاياتي = واستأسَـدَ الحُزن في أجراس أبياتـــي

تمدّد الغيمُ حتّى خِلتُه ظُلَمـــــاً = خَلفي ســـوادٌ، أمامي ظلّ أمواتـــــي

أمضي انحدارَ دموعي، أقتفي وجَعي = تقتاتُ من عُشبة الكابوس ناياتـــي

أمدُّ وهمي خلف اليـومِ مُشــتعِلًا = يعودُ، ينحتُ فـي صخـر الحكايـــات"*

هذه افتتاحيّة دفتر مذكّرات المحامي خالد الهنيدي، قرأها بعد سنوات من تاريخ تدوينها، ابتدأت عندما خرجت أوّل مظاهرة في درعا، وهو يُردّد هذه الأبيات لأحد شعراء الثورة.

---

*الأبيات للشاعر (محمد عبد الستّار طكّو).

***

وفي أثناء تواجده في القاهرة، كتب عبارة مؤثرة حينما سمع بخبر وفاة الحجّة جواهر أمّ محمد، دمعت لها عيناه وهو يقرأ، شعر بانقباض في صدره، مع ارتجاف في يده، وتهدّج صوته؛ فتخرُج الحروف من فمه على استحياء، وزوجته تقف بجانب النّافذة ابتعدت ببصرها في الجهة المقابلة للسّاحة، وأطفال يلعبون كرة القدم، تشهق أنفاسها عميقة، خارجة من صميم قلبها، وهي تستمع لكلمات زوجها.
وتتذّكر بيتها هناك في قريتهم (**موْج**) التي هجروها قسرًا، حيث تركت هناك أجمل ذكرياتها، وما تفتأ كلّ يوم تحكي لزوجها عن أشياء تستخرجها من مستودعات النسيان في ذاكرتها، رغم جمال الطبيعة في مهجرهم الفرنسيّ فيما بعد الهجرة الأولى، الذي اختاروه لقضاء ما تبّقى لهم من حياتهم، وطمعًا في تأمين مستقبل افتقدوه في بلدهم، بعد تضييق الخناق عليهم في القاهرة: **"عَتَبي على الماضي الذي أصبح تاريخاً نتذكرّه، حينما صار سيفاً مُسَلّطاً على حاضرنا ومستقبلنا؛ عندها أيقَنْتُ أنّه لم يَعُدْ لدينا مُستقبل، كان من الممكن أن نتطلّع إليه، أو نحاول الوصول إلى رحابه، وما إن وضعنا خُطوتنا الأولى على درجة البداية حتّى انتهينا، من قبل أن نبدأ"**.

***

ما زال المحامي يُتابع تقليب صفحات دفتره الذي صار برسم الذكريات بنزقٍ ظاهر، فتُصدِر صوت (خَرْخَشة) يخترق بضجّته هدوء الغرفة الّصامت، دمعة سقطت حرّى على أيّامه الخوالي في قريته (موْج) جنوب سوريّة.
أمام كلمات كتبها يومًا ما، بناء على حديث صديقه محمد الفهري (أبوفندي) المؤثّر عن أمّه جواهر، وما اختزن في ذهنه مما كانت

تقوله، توزّعت أجزاءًا على صفحة تحلّل حِبْرُها، وتحوّل إلى بُقَع لم يبق للكلمات إلّا أثرًا، بفعل رطوبة لحقت بها منذ زمن بعيد، وهو يقرأ مُستعيدًا ما كتبه ذات يوم:

"صوت نشيج الحجّة جواهر، وهي تُحاول جاهدة كفكفة دموعها؛ أيقنتُ أنّ التَعرِّي سُنّة من سُنَن الكون في دورة الحياة المُتجدّدة، كما شجرة العنب تتعرّى استعداداً لموسم آخر، ربّما تحاول السُخرية من شجرة التّين الهَرِمة، العُريُ شذوذ في حياة البشر، انحدارٌ في حمأة الجسد الآسنة، رغباتٌ هابطة تلتصق بالطّين، تأبى السمّو، وتبتعد الحجة في حديثها لنفسها: "كلّما يأتي خريفٌ، تسقطُ ورقة من عُمُري، يدفعُ بي رويداً رويدا للانسحاب من ساحة الحياة، تعريةُ ستكون عُمُري بانتهاء أوراقه المُصفَرّة؛ فتصبح نهبًا للرّياح تذروها في كلّ اتّجاه، خريفِيٍّ دخلتُه منذ أكثر من ثلاثين سنة".

باستشهاد زوجها ناصر في حرب تشرين، بعدها قامت على فتح بيته، وتربية الولديْن والبنتيْن، فأخَذتُهم بالشدّة والحزم؛ لتضيفهم إلى سجّل والدهم، وإضافته إليهم؛ لإكمال مسيرة زوجها المُتمّمة لدرب أبيها رحمهما الله.

وهي المُدَلّلة عندما كانت النّساء أيّام زمان لا يَعْنِينَ الشيء الكثير في حياة أزواجهنّ، العواطف والرومانسيّة نَزرَة قليلة، إلّا على فترات حميميّة مُتباعدة، هُنّ مُنغَمِساتٌ بالأعمال الكثيرة، المتوالدة على مدار أيّام السّنة، وكلّ موسم له أعماله السنويّة تبرمجَ عليه جميع أهل القرية بشكل روتينيّ، يستغرِقُ كلّ حياة الفلّاحين الصعبة أصلًا؛ فالمرأة تتقاسم المشاقّ والمصاعب مع الطبيعة المحيطة بها، الأمر الذي انعكس على حياتهم الأسريّة والعاطفيّة، والتي لم تجد لها سبيلاً واضحاً في هذا الخضّم المتلاطم مع ظروف المواسم.

جواهر هذا الاسم اختاره لها والدها رحمه الله، تيمّناً أن تُصان طفولتها في بَيْت عزٍّ عند أهلها، بعد أن كبُرَت وتفتّحت مداركها؛ أخبرتها أمّها: بأنّ والدها غمرها بحبّه الشّديد، وحنانه الكبير عندما رُزِقَ بها، وكأنّه حاز جوهرة ثمينة، فكانت أصغر إخوتها الخمسة وأخواتها الإثنتيْن، على أنّ حياته العاطفية تبدّلت كثيرًا تجاه أمّها، و بدأتْ تشعر بدفء حياتهما، فالحنان والأمان، أمران يكادان أن يكونا مفقودين قبل أن تلدها، فكانت بشارة خير لوالديْها، عيونُهما تلاحقُها، ورعايتهما تكلؤها خوفًا من أدنى مكروه ممكن أن يحدث لها، كبُرَت وصارت شابّة، وتزوّجت. وعندما استشهد والدها، بالكاد لم تكُنْ أُكملت عامها الأوّل من عمرها.

وتابع قراءة ما كتب على مسمع زوجته، عن لسان الحجّة جواهر، قالت حدثتني والدتي: (أنهم أتوْا به على ظهر فرسٍ بيضاء، سالتْ نقاطٌ من دمه على بطنها، عندما حمله رفاقه من درعا، بعدما هاجَمُوا الفرنسيّين في ثكنة (المِذْخِر)، التي كانت آخر معقل لهم في حوران، وعلى أسوارها استُشهِدَ مع أربعة من رفاقه الأبطال).

ركزوا رُفاتك في الرمال لواء = يستنهض الوادي صباح مساء

القضيّة واحدة..العدوّ واحد..الدّم واحد..عمر المختار..وأبي أَخَوَان، إيطاليا هناك، فرنسا هنا، مشاعِلُ النّور تأتلق في فزّان، وبَرْقَة، فتُنير دُروب دمشق، وبغداد، وإذا القدس استنجدتْ هبّت الجُمُوع من كلّ أنحاء الدّنيا.

***

- (**عيون** الحسد تتعقّبني في كلّ خطوة وحركة، دفنتُ نفسي ونسيتُها، نذرتُها قُرباناً من أجل أولادي، تحقّق طموحي بِحُسْنِ تربيتهم وتعليمهم، بكفاح وصبر وأناة ومثابرة دون كلل أو ملل.
وما اللّيرات التي كنتُ أتقاضاها راتبًا شهريًّا من مكتب الشّهداء، إلّا عوناً أتّكىء عليها لتجاوز أعباء الحياة وقساوتها، فكانت مع ما تُقدّمه لي والدتي - رحمها الله - وإخوتي بين الحين والآخر من مساعدات، إضافة لحصّتنا من غلال أرضنا المُؤجّرَة للمزارعين التي تأتينا في الموسم، كلّها عوامل استقرار جعلتنا مستورين، لا نحتاج لأن نمدّ أيدينا لأحد بعد الله).

***

الخريف لا يرحم ما زال يأخذ أوراق عمرها، التي فاقت السّبعين، واحدة تِلوَ أخرى، مسحة ضوء تنبعث مَلاحَةً ساحرة تُنبِئ عن روح شفّافة، وَهَبَتْ مُتعة الحياة لأبنائها، تألّقٌ متأصّل بأصالته، لا يمكن أن تُخفيه رغم مكابرتها، حَفِيَتْ أقدام رجال القرية في خَطْبِ وُدّها بعد أن ترمّلت. فأصْمَتَتْ مشاعرها، باختيارها المُعمّق الجذور، غير مُهتّز بفعل حوادث الدّهر ونوائبه، فدفَنَتْها مع آخر حفنة تُراب أصرّت على جَلبِها معها من قريتها (**موْج**)؛ لترشّها عند نصب الجنديّ المجهول أثناء زيارتها لمقبرة الشهداء في (نَجْهَا) بعد انتهاء حرب تشرين ١٩٧٣م بعدّة أشهر. أدّى زوجها واجبه تجاه الوطن على قمّة جبل الشّيخ المكان الشّاهد على بطولات سطّرها ناصر الفهري مع رفاقه هناك أمام غطرسة الإسرائيليّين، رفعت رأسها للسّماء قائلة: "الحمد لله، ربّي تقبّله، واجعله مع الصدّيقين والشّهداء، والصالحين"، راحت تتخيّل نفسها، **فهي ابنة شهيد، وزوجة شهيد**، حسبت كأنّها تعتمر

على رأسها كلّ تيجان العزّ والفَخَار في العالم، استعرضت حياة والدتها بعدما استشهد زوجها ١٩٤٥م، وكيف كانت تقوم على تربيتها مع إخوتها؛ لتكون درسًا حيًّا لها.

***

ذكرى زوجها ناصر الفِهْري عزيزة على قلبها، تقف كلّ يوم طويلًا أمام صورته في صدر المضافة، حسرتُه لم تفارق قلبها، ومخيّلتها أبداً، لأن جثّته لم تصل لِتُدفَن في مقبرة القرية، بل أقاموا له قبراً رمزيًّا (الجنديّ المجهول)، كشهيد حمل وسام حرب تشرين، فكان الرّجل الوحيد في حياتها الذي ملأها بذكريات سعيدة، ذهب، وأغلق عليها كلّ نوافذ قلبها، عشقته حدّ العبادة، كانت ترى فيه كلّ فتوّة، ووسامة رجال الكون أجمع، وقد ملأ عينيها وقلبها، وكأنّ الدنيا قد خَلَتْ من الرّجال، وليس فيها أحد إلاّ هو، وهي الشَّمُوسُ التي رضخت لرجولته الفحلة برضاها، وتسليمها قِيادَ قلبها ومشاعرها له بلا مناقشة ولا جدال، لا تتوانى أن تفتح باب خزانتها الخشبية ذات البابيْن لتتفقّد ملابسه، تتطلّع حولها؛ لتتأكّد من خلوّ الغرفة من أحد غيرها؛ فتبدأ تتشمّم الملابس قطعة قطعة بقداسة، كمن يُقبّل القرآن بخشوع ووقار.
-: **(وأنّى لقلبي أن يكون فيه زاوية، ولو كسُمِّ إبرة لأحد غيره؟، ومَنْ مِنَ الرجال نِدٌّ له، حتّى أفكّر فيه؟)**. مقولتها المُتكرّرة.
فمع قطرات دموعها التّي بلّلت تراب قبره، فقد دفنت مشاعرها، وحزمت أمرها للقادم من غوائل الأيام.
لا تفوتها مناسبة عندما يأتي ذكره إلّا وتترحّم عليه، وتُتَابِعُ، قولها: (إنّه كان حلم كلّ فتيات القرية لسموّ أخلاقه، مما جعل اسمه يتردّد على ألسنة القرية رجالها ونسائها، مستقيمٌ لدرجة القدّيسين، يصعب

معها مقارنته بأحد من الشّباب من أبناء جيله، لا يذكرونه إلا لاستعادة مزاياه، و يجعلون منه قدوة يتمثّلون سيرته وأخلاقه).
كما أنّها تأخذ نفساً عميقاً قبل أن تحكي عنه، وتسترجعه من غياهب الماضي وجهاً لوجه، بجمال طلعته وطوله المعتدل، ووجهه المضيء كالبدر في السَّماء، والحُمرة المُتورّدة على وجنتيْه، وكأنّه في حالة خجل دائم.
كل ذلك يجري ضمن طقس من المهابة، تأتيها عندما تدخل في متاهات دروب سيرته المحبّبة لها، لا تمَلُّ من ترديدها، وإعادتها كلّما سنحت الفرصة لذلك، ولو أنّها جلست الدهر ترويها، لما انتهت، ولما ارْتَوَتْ، أو تعبتْ، وقلبها ينبض بشدّة حتّى يُخيّل إليها أن من يجلس بجوارها سيسمعُ نبضها، وتخجل من ذلك، خوفاً من افتضاح مشاعرها، تستعرض شريط الذكريات من أوّل لقاء بينهما، وحديث العيون بداية الذي أشعل حواسها كلّها باتّجاهه، حتّى بات طيفه يلتصق بها على مدار يومها، ومازال هُوَ.. هُوَ، على مدار أكثر من ثلاثين عامًا.
سيرة الأيّام الجميلة تكتسب أَلَقَها من حياة البشر، وجمال ذكرياتهم، يطيبُ لهم استرجاعها في كلّ حين، فتأتي بردًا وسلامًا على قلوبهم لتأخذهم بعيداً عن واقعهم".
طوى المحامي دفتره، ليعيد سجن كلماته وذكرياته بين طيّاته، دمعات تنفر من عينيْه، غاب في متاهات أخذته إلى هناك مسقط رأسه الذي حُرم منه ربّما إلى الأبد.

***

حديث النّفس يطول ويطول، يفقد المحامي الإحساس بالوقت، عندما راح يستعرض شريط ذكرياته المُتواردة من غابر الأيّام، مُستعيدًا فترة

إقامته في القاهرة، عندما كان يجلس على برندة شقّته المطلّة على النّيل ذات ليلة، لم يُخْرِجه من غيبوبته إلا صوت أمّ كلثوم قادم من قارب عابر يمخُرُ عُبَابَ المياه، السّاهرون يتمايلون على وقع الأنغام.
تثاءبَ وهو يسحبُ آخر نفس من سيجارته، يقومُ من مكانه مُتثاقلًا باتّجاه الصّالة قاصدًا غرفة النّوم، السّاعة تشير للثانية فجرًا، يتذكّرُ أنّ غَدَه حافل باللقاءات، والاجتماعات التشاوريّة.
قال في سرّه: **"سقى الله أيّام زمان"**.

***

توسّع القرية لم يتوقّف على ما كانت عليه، بحدود أبنيتها وبيوتها القديمة قبل سنوات، بل راحت تتطوّر عمرانيًّا؛ فانتشرت في الآونة الأخيرة موضة العمارات العالية ذات الطوابق؛ فكانت ظاهرة فريدة غريبة على بيئة الفلّاحين، فأهل الرّيف غير مُعتادين على السكن في مثل هذه الأبنية الطابقيّة، ينظرون إليها بشيء من الاشمئزاز، يُشبّهونها على أنّها سِجْن يَغُمّ القلب، ويكتم النّفس.
ظاهرة المساكن المشتركة جديدة بهذا الشكل، والعائلات المختلفة الغريبة والقريبة والبعيدة المُتَنافِرة فيما بينها، مضطّرون جميعًا للإقامة في هذا الحيّز صغير المساحة، الظروف أجبرتهم على ذلك.
رغم أنّ بيوت الفلاحين فيما مضى، كانت كبيرة لدرجة تتّسع لكلّ أبناء الجدّ الواحد، كبير الدّار هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة، والرأي الأوّل والأخير رأيه، والقول الفَصْلُ قوله، لا أحد يستطيع الخروج عليه أو مُنَاكَفته.
اختلفت الظروف الحياتيّة، صارت كلّ أسرة من الأبناء تستقلّ في بيت على حدة، مُحاطاً بقطعة أرض مزروعة بالأشجار المُثمرة والزّينة،

مع تقدّم الحياة بوتيرة مُتسارعة، بَرَزت الأفكار التجاريّة لدى من يملكون الأموال من أبناء القرية، عندما رأوا الطلب المتزايد على الشُقَقِ السكنيّة.

فما إن أُنشِئَت أوّل عمارة مُتعدّدة الطوابق، حتّى انتشرت عمارات أخرى في أماكن متفرّقة من القرية، كان الإقبال عليها من المُتزوّجين الجُدُد وغيرهم، ممّا شجّع المُستثمرين لبناء المزيد منها.

تظافرت الظروف الطارئة على القرية **(موْج)**، كي تتقبّل العائلات فكرة السكن في شقّة ضيّقة من هذه العمارات الجديدة، هجر النّاس بيوتهم في المناطق السّاخنة للانتقال، والعيش بالأجرة طلباً للأمان والاطمئنان، بالطبع عمارة (سعادة) نموذج لتلك العمارات.

***

محمد الفِهْرِي من هُواةِ تربية الحمام، منذ نعومة أظفاره أحبّ هذه الطيور الوادعة، وقام باستبدال بيتها، ونقله إلى سطح غرفتين من (البيتون) المُسلّح ابْتَناهُما على سطع بيته الجديد، مُزاوجًا ما بين قديم معلوماته، مطوّرًا لمخزونه الأساسيّ المُتبقّي من سالف الأيّام، الهواية جرّت عليه صداقات جديدة خبيرة في هذا المجال، عرف منهم معلومات بتفاصيل دقيقة، يُطلَق على مُربّي الحمام لقب (**الحَمَمْجِيّة**)، لهم تقاليد، وأعراف في مهنتهم تلك، عالمٌ يروي حكايات، وأشياء عن الحمام، وأطباعه، وطرائق تربيته، ومن الطّريف أن الحمام يعشق بعضه عشقاً، ومن الذكور والإناث من يهرب لِعُشٍّ آخر مع معشوقه، فيقوم صاحبه باسترداده بكلّ أريحيّة، حيث أنّ هذا الأمر شائع، ومعروف عند الحممجيّة، تتفاوت أسعار الحمام من زوج لآخر، حسب

تصنيفه، واسمه ولونه وشكل منقاره، فالبغداديّ من أغلى الأنواع على الإطلاق.
ذات يوم اتّصل محمد بمجموعة من أصدقائه جدّد دعوته لهم على غداء مخصّص، بمناسبة حصوله على زوجيْن من الحمام الزاجل النّادر المشهور جدًّا، وللتعبير عن فرحته العارمة بالحصول على مُرادِه، وقد طالت فترة انتظاره، للوعود الكثيرة التي يُمنّيه بها زملاء المهنة، وفي فترة التفقيس بداية هذا الموسم كان الإنتاج وفيرًا، تجمّع لديه عددٌ من زغاليل الحمام، كان قد نَذَرها لأصدقائه منذ زمن بعيد، وهم يضربون وعودهم له كلّ مرّة، في كلّ لقاء صاروا يتندّرون عليه بتعليقاتهم المازحة، يُمنّونَ أنفسهم بأن يحصلوا على الوعد، ولو بعد حين، مُردِّدين المثل: **(الأكلة إلّلي تتواعد بيها، أحسن من إلّلي بتوكلها)**، حضروا في يوم عطلة رسميّة، تحقّق الحلم المنتظر، استقبلهم ببشاشة، وحرارة ترحيب، بادرَهُ المحامي، بقوله: "إيييييه .. الله يرحم، من قال: **(وَرَاكَ وَرَاكَ، والزمن طويل)**، صدقوني يا جماعة، إنّني أجزم يقيناً، بأنه: **(لا يضيع حقٌ وراءه مُطالِب)**". تعالتْ الضّحكات في ساحة الدار، وهو يدعوهم للدّخول، لغرفة الضّيوف، الشّمس الربيعيّة حارقة هذا اليوم، المناخ مُتقلّب ما بين البارد والحارّ، بشكل مُزعج خلال هذه الفترات من السّنة، وها نحن حصلنا على ما نريد، ولو بعد حين، يتابع خالد حديثه: "رغم الوعود الخُلَبِيّة التي صارت متلازمة لصديقنا، كـ**(مواعيد عُرقوب)**، والله يا جماعةَ الخير، هذا ما كنّا لا نأنَسْهُ من طِباعه، لكن **(من عاشر القوم، أربعين يوم صار منهم)**، حسبي الله ونعم الوكيل، يا معشر الحممجيّة، أصبحتم مُتلازمين مع صفة الكذب والغشّ، وكثرة وُعُودكم، حسبيَ الله عليكم".
استقرّ كلّ منهم في مجلسه، فمن المُتعارف عليه أنّ كبير القوم وسَيّدهم مكانه صدر المجلس، حيث استقرّ خالد.

***

تعتبر أكلة الزغاليل من الأكلات الشعبيّة النادرة، يتنعّم بها مُرَبُّو الحمام بها، ومن يشتري منهم نتاجهم كلّ شهر، إضافة لندرة من يعتني بتربية الحمام في هذه الأيام، بعد أن هجر النّاس حياة الفلّاحين، وأصبحوا في كثير، أو قليل تتشابه حياتهم مع نمط أهل المدن، فهم لم يصيروا أهل مدنٍ بالخالص، ولا ثبتوا على أصالتهم الفلاحيّة، التي نشأ وتربّى عليها آباؤهم وأجدادهم، وهذا ما جعل من الصّعب على البيوت الجديدة استيعاب مثل هذه النّشاطات.
قديمًا كان النّاس يتندّرون على الحَمَمْجِيّة، بأنّ ذمّتهم واسعة لا يُحلّلون ولا يُحرّمون، وبالتّالي تكون شهادتهم مجروحة، ومردودة في كثير من القضايا، يرفضها القاضي.
كما أنّ هواية محمد انتقلت لابن خالته سعدون، وأصبح من أمهر وأشهر هُواة تربية الحمام في المنطقة خلال فترة زمنيّة قياسيّة.
خالد المحامي من أخلص الأصدقاء لدى محمد أبي فندي، وهو ثالث ثلاثة مع أحمد الأستاذ، فمهما عدا الزمان على علاقتهم، واستنفذ الوقت منها، أو أصابهم الضّنَك في العمل وأمور الحياة، فإنهم لا يطيقون الصبر على فراق بعضهم بعضاً لأكثر من أسبوع، كأنّهم إخوة يشير إليهم الكثير من أهل القرية، لتلازمهم الشّديد وتماثلهم في الكثير من الصّفات الخُلقيّة الحميدة، ومواظبتهم على الدّراسة بجدٍّ ونشاط.
تفرّقتْ بهم السُبُل في مَنَاح شتّى، بعدما أنهوا المرحلة الثانويّة، حيث سلكُوا طرُقًا مختلفة تَبَعًا لَعلامات كلّ منهم، خالد درس الحقوق في

جامعة دمشق، أحمد درس اللّغة العربية أيضًا فيها، محمد درس معهداً تجاريًّا في درعا، يذهب كلّ يوم لدوامه الدراسيّ ويعود لقريته، بينما يكون اللقاء المقدّس بالنّسبة لهذه الثُلّة في نهاية كلّ أسبوع.
مضت الأعوام، تخرّج كُلٌّ منهم في تخصّصه الجامعيّ، سلكوا مدارجهم في مسار الحياة الوظيفيّة والعمل الحُرْ، خالد الهنيدي دخل سِلْكَ المُحاماة، أحمد الفهيد مدرّس اللغة العربيّة في الثانويّة، أمّا محمد ناصر الفهريّ، فقد حصل على وظيفة كاتب تحقّق ضريبيّ في بلديّة القرية، بعد مضيّ عشر سنوات على تعيينه استقال من الوظيفة، ولأنّه لم يستطع أن يُوفّق بين عمله الوظيفي، وأرضهم التي تحتاج للتفرّغ، وصار فلّاحًا بامتياز، اكتسب بذلك نمطًا جديدًا من العلاقات مع مختلف فئات النّاس، إضافة لعلاقاته المُتشّعبة في المناحي العديدة، بسبب وظيفته التي فتحت له الآفاق في وقتها، جاذبيّته الشخصيّة هي المفتاح لمحبّة الناس له وثقتهم به، عندما حازها باقتدار وتميّز، يبدو أنّ جينات والده تقمّصته مئة في المئة.
انْقَضَتْ ساعة على جلستهم، وهم يتجاذبون أطراف الحديث، فذكريات الطفولة أجملها على الإطلاق، وأيّام حالمة ضمّتها الحارة القديمة، تفرّقوا بعدها في الأحياء العمرانيّة الجديدة، والبيوت الإسمنتيّة ذات المواصفات الحضاريّة الحديثة، يبدو أن بيوت أهاليهم القديمة هي الأساس الحقيقيّ الذي يستأثر باهتمامهم وأحاديثهم الدائمة عنها.
جاء صوت الحجّة أم محمد مُنبّهاً على أنّ الغداء صار جاهزاً، دخل الصبّي الصغير بقطعة من المُشمّع البلاستيكيّ، وفرشها في وسط أرضيّة الغرفة، روائح زكيّة تنبعث من المطبخ في الجانب الخلفيّ للبيت، الأمر الذي فتح خيالاتهم على طعام شهيٍّ لذيذ، وهم من أعدّوا العُدّة لذلك، وكان خيارهم الإستراتيجيّ لمثل ذلك، عدم تناول طعام

الإفطار، في مثل يوم الجمعة هكذا اعتادوا جميعاً تناول وجبة الفول كطقس أسبوعيّ، احتفاليّة روتينيّة عند معظم سكّان القرية.
بينما كان طعامهم الفول والفلافل في معظم الأيّام، خلال فترة دراستهم في العاصمة، ذكريات الدّخول للمطاعم المُتخصّصة بالفول والحمص المُدمّس، والأكلات الشعبيّة الرخيصة نوعاً ما، بما يتناسب مع جيوب الفقراء الأغلبيّة العامة للشّعب.
ستّة أزواج من الزغاليل، في صينيّة كبيرة خرجت من الفرن بعد شيّها، رائحتها الزكيّة تسبقها فتستشعرها الأنوف، تستقرّ تلك الصينيّة أمامهم، بعدما حملتها أمّ فندي بين يديْها ولحقها الصبيّ، قام أبو فندي لمساعدتهم، بإحضار توابع الوجبة الرئيسيّة من صحون السّلَطة واللّبن والحشائش الربيعيّة من الكُزبرة والرّشاد والبصل الأخضر والفُجُل.
رحّبتْ بهم الحجّة، البسمة طافحة على وجهها، مُعلنة عن ارتياح قلبها:
"أهلاً وسهلًا يا أبنائي، هيّا تفضّلوا على الميسور، **(سقى الله أيام زمان)** ها أنتم كبرتُم وصرتُم رجالاً الحمد لله، دونكم الطعام تقدّموا على بركة الله".
كما أنّ الزّوجة أم فندي رحبّت بهم أشدّ الترحيب؛ لمعرفتها بمدى عمق روابط زوجها بهم، وكأنّهم إخوة له، فالعلاقة متينة بينهم بحيث من الصّعب على مُتطفّل التكّهن بطبيعتها، أو أنّ حاسداً يجدُ منفذاً فيما بينهم، للدّخول محاولًا التّخريب، وانصرفتْ بعد ذلك قافلة إلى المطبخ، لتحضير الشّاي والفواكه، وتجهيزه ليتناولوه بعد الغداء.
أم فندي تَرَبّتْ على يدّي الحجّة حَماتها، تعرف ما يُرضيها فتقترب منه، وما يُزعجها فتبتعد عنه، تُكِنُّ لها الاحترام الشّديد، تعتبرها كوالدتها، تقوم على خدمتها، وتلبية طلباتها دون تأفّف، أو أدنى تذمّر، بالطّبع هذا من الشيء النّادر، لما هو معروف تاريخيًّا من المؤامرات، والمكائد، وخيوط الكراهية الممتدّة فيما بين الحماة و الكنّة.

زحف كُلٌّ من موقعه مُتربّعين على أطراف المائدة، وقد ركّزوا عيونهم على الطعام، غابت أصواتهم في زحمة الطّعام، صوت مواء القطط قريب منهم، جذبتها الروائح لتشاركهم المكان، وهي تموء طالبة بعض الشّيء منه، منها من يتقدّم بجرأة كبيرة، يكاد أن يخطف قطعة اللّحم من يد حاملها، أو من الصينيّة، فيبادرها أحدهم بضربة تجعله يهرب، مما اضطّر محمد لإغلاق باب الغرفة درءاً لدخولها، وإفساد متعة الجلسة حول المائدة.

***

محمد يبني مزيدًا من الأعشاش، للتكاثر المُطّرد في طيوره، وهو يأخذ بحسبانه الاحتياطات اللازمة، ووضع العوائق لمنع تسلّل النّمس العدوّ الأوّل لها، أو القطط والكلاب.
سماء الحارة تزدان بأسراب الحَمَام، هديلها موسيقى رقيقة تحكي صوت الطبيعة، بلا رُتوشات، تأتي خفيفة على الرّوح، تداعب السّمع بحنان مُوحٍ بالتفكّر، ويمتلىء قلب المحبّ منها، وهو يتخيّل نبرات صوت حبيبته، وهمسها الشّبيه بالهديل.
ينطلق الحَمَام من ضيق عشّه إلى فضاء رحب واسع، بحريّة مطلقة غير محدودة في جميع الاتّجاهات، هذه المخلوقات اعتادت أن تكون حرّة، لتعيش بطريقة طبيعيّة، بينما الإنسان يعاني كثيراً من الخوف والتخويف، والإرهاب اليوميّ في كلّ شؤون حياته، ينشأ وتنشأ معه عُقدة الخوف، فلا أمل له في مستقبل، فالمستقبل مخيف جدًّا، وخصوصاً لمن حاد عن الطّريق المرسوم له، فهو على مدار السّاعة مُرَاقَبٌ، والعاقل اعتاد على مراقبة نفسه وتصرّفاته، يَزِنُ كلّ كلمة وحركة، يحسب عواقبها السيّئة، فالمُخْبِرون يعملون مُواصلين اللّيل

بالنّهار، لا يغيب عن أعينهم من وُكِّلُوا بمراقبته لحظة واحدة من عمره، يُسجّلون كلّ شاردة وواردة، ولو أنّ الله كلّفهم القيام بأمر لقصّروا فيه، ومن طريف ذلك ما عبّر عنه الأستاذ أحمد مدرّس اللغة العربية، بموهبته الشعريّة، عندما أخرج ورقة مطويّة من جَيْب قميصه، كتب عليها نصًّا، تلاه على صاحبيْه، بعد انتهاء الغداء، تزامن مع حضور إبريق الشّاي، انفتحت شهيّة الأستاذ على القراءة على مسمع من صاحبيْه؛ لأنّه منذ زمن بعيد لم يكتب شيئاً يستحقّ القراءة، ومما جاء على لسانه، بعد أن اعتدل في جلسته لأخذ الطابع الجدّي، انخرط في قراءة نَصّه:

"تحت المجهر"

قلبي، وأرض الشّام في معترك الهوى يَعْتَلِجان
يعتصران أحلاماً مقهورة ..
واشتباك النّور، والظلام على ساحاته ..
انطفأت شُموع حياتي ..، قتلوا الحبّ في قلبي
صادروا سمعي، و بَصَري ..
عَسَسُهُم امتحن عقلي،
لا عقل له، يا سيّدي ..
دعُوهُ ..، ارمُوهُ في زاوية مُظلِمةٍ هناك ..
انْسُوهُ حتّى يجفّ ماء عمره ..
ويموت هناك كجيفة ..

ويأكله الدّود، و كأنّ شيئاً لم يكن ..، ونحن بطبيعة الحال، والمقال بريئون من دمه ..
طبعاً سيّدي ..
حقّاً قولك .. دُمت سيّدي

...

صادروا أغنيتي، ونشيدي ..
سرقوا صدى صوتي، و لساني ..
كسّروا أصابعي، وأتلفوها،
ضاع قلمي في دنيا الهَمَالة ضلالاً ..
صادروا الماء والهواء ..
جعلوا التّراب طيناً معجوناً بدمائي ..
صنعوا منه صَنَماً معبوداً يتلوا عليهم سيرتي صُبْحاً وعشيّاً
وجعلوني عِبْرةً لكل من اعتبر، من بني قومي، و كلّ البشر ..
صادروا الحجارة في جدران بيتنا ..
و حطّموها ..، ظنّوها عيوناً شهدت المجزرة ..
فَسَمَلُوها جزاءً لها ..
أصدروا الفرمانات بمنع الحياة في ديارنا ..
ومَنْع الرّبيع أن يعود في عامه القادم ..
ومنع الشّمس أن تشرق من جديد ..
صادروا الحبّ في قلبي ..
ساد الظلام فيه ..
ذَوَتْ حُشاشَته ..
ما أقساه عالَمٌ بلا قلوب ..

مليءٌ بالقيود ..، والقبور
شعاره الويل والثبور

**** ... ****

عُيون العَسَسْ مفتوحة على مدار السّاعة، بلا كَلَلٍ ولا مَلَلٍ ..
تراقب ..
ترسل التقارير ..
يحلق ذقنه ..
يرُشّ العطر ..
يُلمّع حذاءه ..
يستنشق الهواء ..
يهتزّ طَرباً عند المساء ..
يتعاطى موسيقا السّنباطي الممنوعة - دون إذن مُسبَق - ..
يُشعل سيجارة تبغ وطنيّة ..
يتأمّل أسراب النّمل على الجدار ..
يُحدّق طويلًا في الأصيل عند المغيب ..
يقف طويلاً، ينتظر الشّروق
يصافح صديقه بحرارة ..
يعانق زوجته بعد مُضاجعتها ..
يستحمّ كلّ يوم، يمشّط شعره
يُلقي التحيّة على جاره الفلاّح ..
إنّه يبتسم دوماً ..!!
يأكل الخبز، و الزّيتون وَجْبَته اليوميّة الرئيسيّة، وأحياناً يرغب في الخضار الطّازجة، والفواكه رمز البرجوازيّة.

لا يشرب الشّاي إلاّ ما ندر، مدمنُ القهوة يحتسيها بلا سُكّر أبداً، تحفّز ذاكرته المُخيفة.
يصرف راتبه خلال الأسبوع الأوّل من كلّ شهر،
يستدين حاجيّاته من بَقّال الحارة.
يشرب الماء مع الطّعام في كلّ وجبة ..
يُحبّ الملح متجاوزاً حُصّته الحكوميّة،
أليس ذلك إضرارًا باقتصادنا القوميّ؟.
يعشق اللّون الأبيض ..
يرسم البحر، والسماء، و الورود.
حَدَجَهُم بنظرة شَزِرَة.. وحدّث نفسه:
ببغاواتٌ يُردّدون ما يسمعون
يراقبون مُواءَ قِطّته،
يُفسرونه على أنّه احتجاج ضدّ الدّولة.
وهديلُ الحَمَام على سطح بيته ..
وزقزقةُ العصافير على شجرة اللّوز ..

** ... **

أخيراً ..
صادروا الشّمس والقمر ..، والليل والنّهار ..، والشِّمال واليمين..، والشّرق و الغرب ..
واخترعوا حياة القمقم الجديدة، ووزعوها على الشّعب أقراص سعادة، الذي يبتهل لله أن يُديم قائده إلى الأبد، وهو يمتطيهم، وهم سعداء.
فتركوا الله وعبدوه ..

***

ما إن وصل لنهاية النصّ، حتّى ضجّت الغرفة بتصفيق المُستمعين، مما حدا بالأستاذ أحمد لأن يرمي بالورقة إلى وسط الغرفة، وراح يُصفّق معهم بشدّة، احْمّرت كفّاه، ووجنتاه، وقال:

- "ما بالكم يا قوم؟، طفح الكيل ونفد الصبر، لم يعد لديّ متسّعٌ منه. بالله عليكم، هل يُلام الشّعب عندما خطا الخطوة الأولى في (١٥آذار٢٠١١)؟، ذلك اليوم المشهود في تاريخ سوريّة، والشّرق قاطبة، عليكم أن تتذكّروا ما سأقوله الآن، ولعلّني لا أكون مجازفاً أو مُجدّفاً إذا اعتقدتُ، أنّ تاريخ العرب الحديث ستكون بدايته المقدّسة في هذا اليوم، ليس كما حفظنا من كتب الدّراسة، سيُكتب بأحرف من نور مليئة عِزَّةً وشموخًا، عندما حاولوا إقناعنا بمقولتهم المحفوظة، بخصوص حرب تشرين، فأعتقد أنّها كانت ضرورة للقُطبيْن الدُوليْن، وأشكّ بأهدافها ونتائجها، وأنّ الجنديّ العربيّ الشّجاع، قد كسر صورة الجنديّ الإسرائيليّ الأسطورة التي لا تُقْهر، وهل كسر إرادة الجنديّ الإسرائيليّ تعتبر نصراً؟، وإنجازاً حتّى يُقنعونا به، ما الذي تحقّق لنا، فهل استرجعنا الجولان، وكرامتنا المهدورة؟، هدير الإعلام المرئيّ، والنّاطق، والمقروء، ليلًا نهارًا لا يتوقف عن ضخ المزيد من الضلالات لإيهامنا بالنّصر الموهوم، فلا نصر، ولا هُم يحزنون.

فلا أدري كيف يكون نصرًا..!!؟، وقرابة أربعين قرية أخذتها إسرائيل زيادة على ما احتلّته في عام ١٩٦٧، قرأتُ وسمعتُ حديثًا ممن هُمْ أكبر منّا سِنّا أنّ (الكليشة) نفسها، كانت يوم أن سلَّمُوا الجولان،

وانتصروا، كيف حدث ذلك..!!؟، هنا المأزق الصعب المُستعصي على الفهم.
ها أنا أكرّر للمرّة المليون، عندما خرج أهالي درعا بمظاهرتهم الأولى المُناهضة للنّظام الشموليّ بقبضته الدكتاتوريّة، والتي لا مثيل لها إلّا في دول الستار الحديديّ، أيّام الإتّحاد السوفييتي ومنظومته الشيوعيّة، والنّظام عندنا من نتاجات تلك الحقبة المقبورة في تاريخ الظلام الكونيّ.
عندما كسروا حاجز الخوف الرّهيب، لم يكن لأحد أن يتخيّل أن يأتي ذلك اليوم، فقد خيّم الذُّهول على الكون قاطبة، عندما اجترأ جلاوزة النّظام على كرامتهم، خسر النّاس الكثير، لم يتبقّ لديهم أيّ شيء، أصرّوا أن لا يفقدوها، فطارت شرارة مظاهرة درعا لتجد صداها في بانياس ودوما واللاذقيّة، مُطالبة بالحريّة، بهتافاتها المنادية بالوحدة الوطنيّة: (**الشّعب السوري واحد**)، كلّها شعارات راقية تنمّ على الذوق، والحسّ الرّاقي الذي يتمتّع به الشّباب، الظامىء لاستنشاق نسائم الحريّة.
ردُّ فعل النّظام جاء حاسماً، وقويًّا ضدّ هذه الأصوات، قرّر إرسال الجيش، وقوّات النّخبة المُدججّة لكلّ نقطة ساخنة".
- قال خالد الهنيدي المحامي: "بحكم ذهابي اليوميّ إلى درعا للدّوام في مكتبي هناك، كنت ألتقي بالزملاء من المحامين الذين أثق بهم، هم من ذوي المصداقيّة، على اعتبار أنّهم من سكّان المدينة، فقد أخبروني، بما يشيبُ له الولدان، يَحارُ العاقل بمثل تصرّفات المسؤولين الغبيّة، والصبيانيّة في المحافظة، مما يدلّ على افتقارهم لأدنى درجات الوعي لديهم، وسوء تقديرهم للمسؤوليّة المُلقاة على عاتقهم، كأنّهم يعيشون على سطح القمر، أو في عالم آخر بعيداً عن الكرة الأرضيّة، أو أنّهم

لم يسمعوا بما حصل في تونس ومصر واليمن، والله حرام أن يكونوا رُعاةً للغنم والماعز.
حدث الكثير من الاعتقالات مباشرة، أرادوا منها إخماد الأصوات المطالبة بالحقوق البسيطة، وخنقها، ووأدها للأبد، وكأنّ البلد بمنأى عن محيطه الهائج".
- قال أبو فندي: "أحبّتي، والله إنّني أعتقدُ جازمًا، أنّ أحدًا ممن خرج في المظاهرة الأولى، وما تلاها، أنّه لم يخرج من تلقاء نفسه، ولا بإرادته، ولكنّها إرادة الله، التي تريد التغيير الشّامل، لتقلب السّحر على السّاحر، وتَقلِب وجه التّاريخ الكالح العفن للخمسين سنة الماضية، ونحن في متاهات الظلام، والخوف والجُبن".
استفاق النّاس في القرية **(موْج)**على ضجّة، وجلبة كبيرة، أشرقت الشّمس بدأ الأحياء يتحرّكون باتّجاه مصالحهم، وأعمالهم، كانت مفاجأتهم بالعساكر المُدجّجين بأسلحتهم، عندما راحوا يُدقّقون بالهويّات الشخصيّة للعابرين من أمامهم، مما اضطّر البعض للعودة لبيوتهم، وحمل هويّته في جيْبِه لتفادي المشاكل التي ستحصل له، ومن النّاس من سلك طرقاً أخرى لتجنّب التفتيش.
- تابع المحامي: "من خلال دراساتي السياسيّة للأنظمة كافّة في العالم، وأقولها بشفافيّة مطلقة وأمانة، إنّ النّظام عندنا غير قادر على الإصلاح، حتّى لو جيء بأعظم المُصلِحين في الكون، لمحاولة إصلاحه، وإعادة تأهيله، لما استطاعوا إلى ذلك سبيلا".
- تساءل الأستاذ أحمد: "وما السرّ في ذلك، حسب رأيك؟".
- المحامي: "السرُّ يكمن في طبيعة تركيبته المخابراتيّة، الماسكة بأعصاب البلد، ومفاصل الحياة كلّها، من أدنى شيء في حياة النّاس، أما التقارير من مُخبريهم فهي العمود الفقريّ التي يعتمدون عليها".

***

انفضّ المجلس قبيل الغروب، بعد احتسائهم قهوة المساء، انطلق كلّ منهم إلى سبيله، على أمل لقاء، لم يكن لِيَتِمّ إلا بعد سنوات من الغربة، والاغتراب، الأستاذ أحمد حصل على عقد عمل في الخليج، المحامي بسبب تضيّيق الأجهزة الأمنيّة عليه، وملاحقته، هرب من البلد إلى الأردنّ، ثم سافر إلى القاهرة.
حضوره اجتماع المحامين الأحرار، وكان أحد الموقّعين على البيان الصّادر عنهم، طالبوا فيه السّلطات بالإفراج عن معتقلي الرأي جميعًا، وكفّ أيدي الأجهزة الأمنيّة عن النّاس، وإلغاء حالة الطوارئ، وقانون الأحكام العرفيّة، وإطلاق الحريّات العامّة، وحريّة تشكيل الصّحف، والأحزاب، والجمعيّات الأهليّة التي تؤسّس لمجتمع مدنيّ، وانتخابات حرّة نزيهة من أدنى المستويات التمثيليّة إلى منصب رئيس الجمهوريّة، وهو الخطّ الأحمر لدى الأجهزة، فمن غير الممكن أن تسمح بأيّ شيء من هذه المطالب، ذات الحجم الهائل، فكأنّ الشّعب سكت دهراً، و نطق كفراً.

***

بائع مُتجوّل يحمل أكياس الملابس الرّخيصه على كتفه، يصيح بصوته الأجشّ، تبدو على وجهه علامات التّعب، يجيء صوته من بعيد، يختلط بهتافات الأولاد، وضجيجهم، وهم يُمثّلون كأنّهم في مظاهرة، و البواريد الخشبية على أكتافهم.
سلّم على أبي فندي، و مَنْ حوله من رجال الحارة، وجلس، صبّ أبو فندي له فنجان قهوة. بعد أن طلب كأس ماء، كَرَعَهُ دفعة واحدة، ثمّ تلاه بآخر.

كان وجوده ثقيلاً على نفوس الرّجال، الذين لم يرحّبوا بقدومه لشكوكهم به كمُخبِر أمنيّ.
رأى الرجل في وجوهم عدم التّرحيب به، قام من فوره حاملًا أكياسه من جديد مُنصرفًا.
بعد نصف ساعة من ذهابه، جاءت دوريّة الأمن العسكريّ بشكل مفاجىء.

***

أبو فندي، صاح: **"لا اعتراض لي ..، إلّا على من باع .."**، كأنّها صارت من مستلزماته حفظها أهل الحارة كبيرهم وصغيرهم. قام من مكانه صارخاً بأعلى صوته: "ابن الحرام، الحَقُوا به..، هيّا بسرعة قبل أن يختفي".
انفضّ تجمُّع الأولاد، كلُّ منهم راح باتّجاه، بحثًا عن ذلك الرّجل الغريب البائع المتجوّل، ولم يعثروا له على أثر.
وما إن خَلَت السّاحة من الأولاد؛ حتّى وصلت دوريّة الأمن العسكريّ، بإمرة المساعد أبي رستم، دخلتْ إلى ساحة الحارة بسرعة لافتة للنّظر، تبثّ الرّعب، ترجَّل منها العناصر، وهم يرتدون ألبستهم العسكريّة المُمَوَّهة، مُشهرين أسلحتهم، بقي هناك عنصران على ظهر السيّارة (البيك آب)، متخصّصان بالرشّاش المثبّت على ظهر إحدى مركبتَيْ الدوريّة.
نزل رئيس الدوريّة، وهو يتلفّت يمنةً ويسرةً، بطريقة استفزازيّة حاملاً البارودة الروسيّة، وجُعْبَتُه على صدره مليئة بمخازنها، كأنّه أخذ وضعيّة الاستعداد لإطلاق النّار في أيّة لحظة، إصبعه على الزّناد،

صارخاً بأعلى صوته، موجّهاً كلامه لأبي فندي، ومن يجلس معه من رجال الحارة:
"أين ذهب هؤلاء العَرْصاتْ؟، سأقبضُ عليهم جميعًا، وسأجعل أمّهاتهم يَنْدَمْن على اليوم الذي أنجبنَ فيه أولادًا من الزُّعْران، يتشبّهون بالإرهابيّين".
- صاح عسكريّ: "سيدي، هل آخذ هؤلاء الكلاب إلى السيّارة؟".
- المساعد: "وَلَكْ، إنْتَ واحِدْ كِرْ (صغيرالحمار)، لا تسوّي شِي إلّا بأمري".
- العسكريّ: "حاضر سيدي".
ذُهِل رجال الحارة من هول الصدّمة، تجمّدت الدّماء في عروقهم، كادت قلوبهم أن تتوقّف، انعقدت ألسنتهم، حتّى أنّ أحدهم أحسّ بالبلل مُتَسرّباً إلى ساقيْه من حالة الخوف الرهيبة المفاجئة. لأنّهم على علم تام بمصير من يُعْتَقَل، خاصّة مما سمعوا الكثير من الحكاياتً والروايات، وهي تحكي فظاعات التّعذيب، وذلك ممن اعْتُقِل، وأطلق سراحه.
تقدّم أبو فندي مُجازفاً، للترحيب بأبي رستم، فقد كوّن معرفته به قبل استقالته من الوظيفة في البلديّة، حمل إبريق القهوة بيد، والفناجين بالأخرى: "أهلا بك، كيفك يا أبا رستم، عسى الأمر خيراً، ما الذي حصل؟.
مدّ يده بفنجان القهوة، مُتصَنِّعًا ابتسامة ارتسمتْ على وجهه، استخرجها بقوّة من أعماقه المُتَشنّجة خوفاً، بقدرة قادر: "تفضّل.. سيدي".
تناول أبو رستم فنحان القهوة، ارتشفه، شرَرُ الغضب يكسو ملامحه القاسية؛ مما زاد منظره رعباً، همس مخاطباً أبا فندي: "هناك ابن شرموطة، اتّصل معنا قبل قليل، أخبرنا بأنّ في حارتكم مظاهرة،

وهتافات مناوئة للدولة، كما تعلم هذا لن نسمح به أبداً، ولو أنني أمسكتُ بأحدِهم، لجعلتُ نُجوم الظهر أقرب إليه من نور عينيه، لكن يبدو أنّها إخباريّة كاذبة".
هزّ أبو فندي رأسه بموافقته على كلام رئيس الدوريّة، ومردّداً: "نعم سيّدي أكيد إخباريّة كاذبة، كما أنّ أهل حارتنا، وأنا على رأسهم لن نسمح أبداً أن يحصل عندنا أيّ شيء يضرّ بأمن الدولة، كُنْ على يقين أنّنا كلّنا رجال للوطن، كلّ إمكانيّاتنا في خدمته، لا سمح الله لو حدث شيء من هذا، بكلّ تأكيد سنُخبركم به، وتكونون على علمٍ بأيّ طارئ".
ناوله الفنجان الثّاني، فاحتساه، وقد سَرَتْ الطمأنينة إلى نفسه عندما تأكّدَ من كذب المُخبِر، انفرجت أساريره قليلًا، وأشار بيده إلى العساكر بأن يركبوا إيذانًا بعودتهم للمفرزة.
وأكّد على أبي فندي أن يكون عينه السّاهرة في الحارة، مُتابعاً: "على كلٍّ سجّلْ رقمي عندكَ، ولا حرج أن تتّصل في أيّ وقت، حتّى لو كان منتصف الليل بلا تردّد".
صعد السّيارة الأولى، جلس في المقعد الأمامي، أشار للسّائق بالتحرّك ملوّحاً بيده مُودّعاً.
وهو يقول: "يا أبا فندي، فقط حُطْ إيدَك في إيدي، وإذا أثبتتِ الأيّام القليلة القادمة إخلاصك، وحُسن نواياك، سأجعل منك مختاراً للقرية".
- أجاب أبو فندي: "كُلّنا جُندٌ مخلصون لهذا الوطن، ولن نُقصّر بواجبنا تجاهه". انطلقت الدوريّة مُغادرة الحارة .

***

عاد أبو فندي أدراجه إلى مجلسه، يهزّ رأسه، يُتمتم بكلام مسموع، غير مفهوم للآخرين، بَدَتْ علامات الغضب على وجهه، وارتسمت على جبينه خارطة من الخطوط تُنبِئُ عن شدّة تأثّره بالموقف، الذي سبّب له الإحراج أمام أصدقائه، وجيرانه، وهو بالنسبة لهم يعتبر موضع ثقة لاستقامته، مُنزّه عن الشبهات، يحظى بمحبّة الآخرين من خلال حسن سلوكه، وسداد رأيه لمن يستشيره بأمر ما، ثمّ ضرب كفّاً بكفٍّ، بعد أن وضع إبريق القهوة على (الطربيزة)، وقال: "أسمعتم ما قال هذا التّافه؟، يريد أن يجعل منّا مُخبرين له في آخر الزمان، والله **(بعد هالكَبْرة جُبّةْ حمرا)**، لكن الحمد لله الذي صرف الله أذاه عن أهل حارتنا، والله سيكون آخر يوم في حياتي، وأن يجعل الله أصابعي مُتخشّبة مُتيبسة كحجر بازلتيّ، إذا حاولتْ الضغط على أزرار الموبايل للاتّصال به لإيذاء النّاس.

للمرّة الأولى أقولُها بكلّ قناعة: "أحمدُ الله وحده، أنّني استطعتُ الخلاص من الوظيفة، و قَرَف الدّوائر الحكوميّة كلّها، وكان تاريخاً لحياةٍ جديدة لي، فقد تخلّصتُ من الأوامر التي أتلقاها من المدير، وممّن هم أعلى منّي في السُلّم الوظيفيّ، شعرتُ بإنسانيّتي لأوّل مرّةٍ في حياتي، بعد انتهائي من صراع داخليّ خلال العشر سنوات تلك، يا جماعة الخير، أصعبُ شيء على المرء أن يفعل ما يخالف قناعاته المؤمن بها، ويعتبرها مُثُلاً، وأن يرى الخطأ يُعمل به عَلَناً، هذا أهون ألف مرّة، عندما يُطلبُ منه المشاركة في تزيّين الخطأ وتحسينه، ليتوافق مع نصوص القانون، خاصّة فيما يتعلّق بالأمور الماليّة، والمصروفات، وتجاوزاتها الكثيرة، وهي تُنفَق بأضعاف مضاعفة من الحقيقة، وتذهب إلى الجُيوب، فتنتفخُ بها؛ لتجعل من حياة صاحبها المختلس، صاحب بيت فخم وسيّارة، النّاس بشكل عامّ يَهابُون أهل القوّة والعظمة، ويحبّون أن يروْا أمامهم آلهة تُعبَد، ما ينطبق على

الموظّف في أيّة دائرة حكوميّة، ينطبق كذلك على المسؤولين جميعاً، حتّى أكبر رأس في البلد كلّها، هذا النّفاق اعتدنا عليه، كأنّه جزء متلازم من حياتنا المنبهرة بمظاهر الغِنَى، والجاه الفارغة، ولو كان صاحبها مُرْتشيًا، ولصًّا سارقًا لأموال الشّعب، أو قاطع طريق، أو مجرماً قاتلاً، أو مروّج مخدّرات، أو حتّى قوّاداً داعراً".
مما زاد دراميّة الموقف، تلك الدموع المترقرقةُ في عينيْه، مُنْساحة على غير إرادة منه، تنساب على سجيّتها عبر خطوط الوجه المُتَغَضّنِ بعوامل الزّمن المتعمّقة بعمق تجربة أبي فندي الحياتيّة.
ساد الصمت لحظاتٍ كأنها دهر، جعلت الوُجُوم يرتسمُ على وجوه الجالسين (أبي سالم، وأبي فرحان، وأبي بشير).
- خمس دقائق لم ينبس أيّ منهم بكلمة واحدة، وهم يتفكّرون بما سمعوا، وشاهدوا- .
- تابع أبو فندي: "الآن رأيتُ وجه ربّي، شعرتُ بحريّتي الشخصيّة، لا يُنازعني فيها أحد، هي تُؤخَذ ولا تُعطى، ها هو الشرّ الذي كان مُسْتَقرًّا في نفوسنا، بدأت ملامح انمحائه؛ لتنظيفَنا وتطهيرنا من الداخل، وسيزهرُ الياسمين في ديارنا على وقع شروق جديد، ليكون عناقيد أمل لرسم المستقبل؛ لغدٍ أجمل".
- رفع أبو سالم رأسه مُحدّقًا في وجه أبي فندي، مُتَلفِّتًا حوله بحركة سريعة، وقال: "لا عليك من هذه التّفاهات، فقد رأينا، وعانَيْنا الكثير من هؤلاء الأوغاد، الذين يعملون على تسخير كلّ شيء في الدنيا؛ لخدمة مصالحهم وكذبهم، فَهُمْ لا يُعطون شيئاً لأحد، إلاّ بقدر ما يأخذون منه، وما يُقدِّم لهم من الخدمات الكبيرة، ألا يكفيهم أن جنّدوا مُخْبرين لهم في كلّ مكان، الله يفرجها يا جماعة الخير، واللهِ ..!!، أصبحنا في دائرة تضيق حلقاتها حولنا، تكاد تُطْبِق على رقابنا، وحياتنا في نهاية المطاف.

يعني لم يتركونا وشأننا، وكأنّنا أغنام يسوقونا إلى مُبْتغاهم الخسيس، أو إلى المسلخ. و ماذا بعد ذلك؟.
أخافُ أن يأتي يوم يفرضوا فيه علينا تقديم نسائنا، وبناتنا لهم، خسِئوا، وإن كان كلّ شيء جائزًا مع هؤلاء الهَمَجْ، فاقدي الإنسانيّة، فلا رحمة في قلوبهم ولا شفقة، لا يحسب أحدهم حساباً لله، ولا للتاريخ، وكأنّ الوظيفة، والمنصب ستدومان لهم".
ما إن توقّف أبو سالم؛ ليلتقط أنفاسه، حتّى أخرج من جيبه علبة الدّخان؛ أشعل سيجارة؛ لينفث دخانها بعميق أنفاسه المقهورة، تعلو رأسه السُّحُبُ مُشكِّلةً غَبَشًا حوله، يخفي جُلَّ ملامح وجهه، المُكفهرّ المليء غيظاً وقهراً مكبوتًا مكبّلًا بأغلال صمت موجع، يؤدّي بصاحبه إلى ظلمات القبر، دون أن يرى من حياته شيئًا ذا بال، وأن يُصاب بعمى الألوان، يصدّق ما يُتلى عليه صُبحاً وعشيّا، مُرَدِّداً خلفهم ما يُلَقّنُونَه كالببغاء ما يريدون - اللبن أسود -، أو أن يُصاب بالانفجار القاتل عند صحوة ضميره في لحظة يأس كبرى؛ تؤدي به إلى غياهب السّجون، وفظاعة الاعتقال.
- التقط أبو فرحان طرف الحديث بصوته الخفيض، الذي لا يكاد يسمعه إلا من هو قريب منه لدرجة الالتصاق: "الله يحفظك يا أبا فندي، والله بالي مشغول عليك، أخاف أن يفعل شيئاً معك هذا المُجرم، لعدم استجابتك لطلبه، ألا تذكرون ذلك الشّاب ابن قريبنا على ما أظنّ أنّ اسمه شاكر، عندما تقدّم بطلب لوظيفة مُسْتَخْدَم في المدارس، طلبوه إلى المفرزة؛ لِيكتُبوا له الدراسة الأمنيّة، من أجل الموافقة على طلب توظيفه، جرتْ هناك المُساومة على أن يتعامل معهم، ويكون عينًا لهم، يتجسّس على النّاس من أهل حارته، وزملائه في مكان عمله فيها، وكان أن قضى ليلته تلك معتَقَلاً عندهم، خلالها تعرّض للضرب والإهانة؛ لإجباره بالقوّة على الارتباط معهم، بعد أن رغّبوه بالموافقة

على طلب الوظيفة، رأيتُه عندما أخرجوه من عندهم، أثناء زيارتي لبيتهم، وهو يتهادى بين إخوته للوصول إلى الحمّام، بسبب التورُّم الذي حصل له في رجليْه، وآثار الكدمات على وجهه، وقد كشف لي عن جسده، وكأنّه مصبوغ بالدم المُزْرَقّ تحت الجلد، بِفَعْل الكَبْلِ الرُباعيّ الذي استخدموه معه، وأكثر ما كان يتألّم منه، آثار الصدمات الكهربائيّة في الأجزاء الحساسة من جسمه، الله ينتقم منهم، مجرمون لا يخافون من الله".
أبو فندي ما زال واجمًا مُنصتًا لأصدقائه، مطأطئ الرأس، وبصره متركّز على الأرض، لم ينبِس بكلمة واحدة ليُعلّق بها على أقوالهم.

***

أمسك بهاتفه النّقال ليتكلّم مع زوجته أمّ فندي، طالباً منها عمل إبريق شاي، وإرساله مع إبراهيم ابنهم الأصغر، الذي يدرس في الصفّ العاشر، شعر بشيء غريب يداخله أثناء اتّصاله معها، فأخذته عوالم من النّشوة، واللّذة إلى خيالات ترتفع بعيداً عمّا هو فيه، بَدَتْ الحيْرة على وجهه، ترافقت مع لعثَمات لسانه، أغلق المكالمة، وأسَرّ في نفسه أنّ عليه أمرًا جليلًا، وعظيمًا من أجل ليلة طال انتظاره لها، العُذر الشرعيّ لم يَدَع له مجالًا، شرَد بنظراته بعيدًا، هيّجت رغبته نبرة الصوت الجميل لأمّ فندي، سَبَح بخياله بعيدًا في أيّامه الخوالي، يوم أن كانت رخاء ومتعة، بلا كدَر وحزن وخوف، مُتمثّل في كلّ لحظة ودقيقة.
(**أقبل اللّيل يا حبيبي..**)، شرارة أشعلت نشوة قَدَحَت زِنْدَ عقله، وعصفت بروحه، ونسي نفسه، راح بعيدًا يُحلّق مع أمّ كلثوم، يُدَندِن

بها في سرّه.. (أقبل اللّيل يا حبيبي)، وكأنّ صدى الأغنية يناديه ويُذكّره، برغبة محمومة تحرق جسده. تمنّى انتهاء الجلسة، وأن يشرب جلساؤه الشاي سريعًا، وينفضّ كلٌّ منهم إلى شأنه، أحسّ بأنّ يده تمتدّ للمتراس لإغلاق الباب وراءه، لاعنًا أبا رستم، وساعة حضوره المشؤومة.

- أبو بشير يتلفّتُ ذات اليمين والشِّمال، عندما أراد أن يشاركهم برأيه، يتكلّم بصوت خفيض قريبًا من الهمس، يدنو برأسه إلى وسط الجلسة، خشية أن يسمعه أحد من غير جلسائه، إضافة لنبرة صوته الناعمة، بقوله:

"والله يا جماعة ربّنا يكون بالعون، بصراحة..، أنا مثل بالع المُوس على الحدّين، لستُ بقادر على استيضاح الطريق السليمة، والرأي الصحيح، خَوْفي إن استجبتَ لهم يا أبا فندي أن يعملوا على ابتزازك، فيجعَلوا منك دُمية، وأُلعوبة بأيديهم، وتكون قد صرت أُضحوكة لأهل الحارة والمدينة، ومكروهاً منهم، أنتَ ومن هم مثلك يُشار لهم بالبنان، وتَحوز على احترام الجميع.

رغم أنّه إن لم تستجب لهم، من المؤكّد أن يحصل لك الكثير من الإيذاء والخسف و الذلّ والهوان. كلّكم يعرف أنّه ابن حرام، لا رحمة في قلبه..!!".

***

رفع أبو فندي رأسه، بدا عليه أنّه توصّل لاتّخاذ قراره الذي سيعلنه على أصدقائه، فيما هو على ذلك أشعل سيجارة، سحب دخانها بعمق، نَفَثَهُ مصحوباً بتأوّهٍ مكبوتٍ؛ خرج من أعماقه، وقال: كما تعلمون .. **"أنّه لا اعتراض لي، إلّا على من باع"**..، وسكت فجأة.

مما أتاح للمستمعين الانتظار بفارغ صبرهم، وهم يتأوّلون هذه الجُملة، ومعناها، ومقصدها غائب عن أذهانهم، سحب ثانية نَفَسًا عميقًا، أتبعه

باآآآهٍ..، ثم قال: "لا اعتراض لي، إلّا على من باع نفسه للشيطان، وباع ضميره، وباع دينه، وأخلاقه، أمّا من باع الوطن للعدوّ، وسلَمه بلا قيد ولا شرط، فماذا سنقول عنه؟".

ردّدُوا جميعاً بصوت واحد:

"خائن ابن خائن مين ما كان يكون، خان الله ورسوله، والأمانة التي في عنقه، عندما امتطى رقاب الشّعب ببركة بسطاره العسكري، وداس كرامته".

- تابع أبو فندي: "أُقسِمُ لكم، فلو أنّهم قَطَعوا كلّ السُّبُل أمامي وحاصروني، أو هدّدوني بفصل رأسي عن جسدي فلن أتراجع، هذا عهدٌ عليّ، و أنتم تشهدون عليه اليوم، ويوم الله.

(وأعلى ما بِخَيْلِهِمْ فليركبوه)، فهل إذا صِرتُ مختارًا، سيزيدني هذا تشريفاً؟، وأكون قد خرجتُ على إجماع أهلي، وقريتي، وضربتُ بعرض الحائط كلّ التضحيات التي قدّمها شبابنا، ودماء الشهداء أصبحت قربانًا على مذبح الحريّة التي طالبنا بها، من أجل كرامتنا المهدورة، على أيدي هؤلاء الأنذال، الذين يدّعون أنّهم حُمَاةُ الوطن، وأحرَصُ منّا على أوطاننا. الوطنُ وطنُنا، ولو لم يبق منّا إلاّ طفل واحد لن نتراجع، ومشوار الألف ميل قد ابتدأ بخطوة، ولا عودة للوراء أبداً".

***

بينما هم على هذه الحالة الجادة من النّقاش لتحديد خياراتهم، و مساراتهم في مستقبل الأيّام القادمة، إذ توقّفت درّاجة أبي عادل الناريّة، وهو بلباس العمل المُلطّخ ببقايا الجِبْصين، والدّهان، أطفأ مُحرّك الآليّة، وترجّلَ.

ألقى تحيّة المساء عليهم، مشى لمصافحتهم، استعدّوا جميعًا للوقوف للمصافحة والسلام، بينما جاء إبراهيم حاملًا صينيّة الشّاي بِيَدٍ، وإبريق الشاي بالأخرى.
رفع صوته: "السّلام عليكم"، وخصّ أبا عادل بالسُّؤال عن صحّته، مُعرباً عن اشتياقه له، فمنذ أكثر من شهرين لم يشاهده في الحارة.
ردّ أبو عادل التحيّة، والابتسامة تعلو وجهه ببشاشة حقيقيّة، لِحُبّه الشديد لإبراهيم، الشابُّ المتميّز بين أولاد الحارة كلّهم، يكاد يكون في مقدّمتهم بحضوره، وشخصيّته الجادّة في التعامل مع الآخرين، أمّا تفوّقه في الدراسة، فله قصّة أخرى، تُضاف إلى نجاحاته الاجتماعيّة: "ربّي يوفّقه لكم يا أبا فندي، فهو فخرٌ لنا جميعًا".

***

كثيراً ما تتعرّى الأشياء من حولنا، تُفصِحُ عن بيان حالها بجلاء لا لَبْسَ فيه، يبدو أنّنا في عَمىً؛ لانشغال عقولنا في شؤون الحياة.
حتى نستطيع فَهْمَ كيفيّة تعرية كلّ عنصر على حِدَه، لا بُدّ من لسان يحكي ذلك للآخرين، و يُفصّل الحالة، وهو ما يمكن تسميته بالفضيحة.
ففي مثل هذه الأيّام، لا يمكن إلّا تسمية الأشياء بمسميّاتها الحقيقيّة، دون لَبْسٍ أوغموض؛ بلا مُواربة حتّى تتجلّى الصورة واضحة للعيان، فلا يبقى عذر لإنسان، يأتي قائلًا بمبرّراته غير المُقنِعَة، مُحاولًا.
قد تكون هذه الخطوة صادمة، لكنّها الطريقة الوحيدة لتوضيح الطريق، وتمهيدها للأجيال القادمة، التي لن تعذرنا، وترجُمَنا كما ترجم إبليس، لا ما من سبيل غير هذا، **(فيقال للأعور أعور بعينه)**.
هذه الكلمات كتبها المحامي في دفتره، يبدو أنّها مقدّمة لما ستكون عليه الأمور في قادم الأيّام، من الشفافيّة للمحافظة على طهارة الثورة.

***

رجل مثل (يعقوب المنسي) أبوعادل، نشيط مستقيم (دُغْري)، لا يحبُّ العَوَجْ أبداً، يُسَمِّي الأشياء بمسميّاتها الحقيقيّة، بلا مقدمات يدخل للموضوع مباشرة، فكما يُقال: **(انْطَحْ، وَصَلِّ على النبيّ)**، يقول الحقّ، ولو كان على نفسه، هذه الصفات كثيراً ما تجلبُ له العداء والكراهيّة، ممن هم في الجانب الآخر المناقض لسلوكه في الاتّجاه المعاكس تماماً.
- قال أبو عادل: "مَنْ منكم حضر في ساحة القرية صلاة الغائب على الشهداء البارحة؟. والله كاد قلبي يتوقّف، وتفكيري يُشَلّ من مَهابة الموقف، وقد أخذ بلباب عقلي، واقْشعرّ بدني عندما بدأ الإمام بالتكبيرة الأولى، لهول المَشهَد الذي استغرقني، ووجدت نفسي أغوص في لُجتّه، كنتُ أودّ لو أنّ تلك الجُموع كانت تُصَلي على جُثماني، وأكونُ أنا الشهيد الأوّل يقودُ القافلة، لكن شاء الله وقدّر، أن أكون بينكم الآن، أحدّثكم عمّا جال في خاطري في تلك اللّحظات، أقفُ أمامكم وجهاً لوجه، وأمام الله بقلبي، وروحي.
زاغت عيناي، وأنا أنظرُ إلى نصب الشّهداء المُتربّع في وسط السّاحة برمزيّته لمرحلة عزيزة على قلب كلّ سوريّ غيور، عندما جَلَتْ فرنسا عن بلادنا، وأتذكّر شهداء حوران الخمسة أيّام الاستقلال، عندما قضُوا على يد الإفرنسيين الغاصبين المُستعمرين لبلادنا، بينما شبابنا يَلقون حتفهم على أيدي حُمَاةِ الديار، قوّاتُ الوطن الذي ننتمي إليه، أرأيتم تلك المصيبة العظيمة..!!، والمفارقة المُستعصِيَة، لم أجد لها الحلّ؟.
هذا ما كنّا نخشاه، أن نُخربَ بلادنا بأيدينا، بَنَيْنَاها بعرقنا وتعبنا، اقتطعنا اللّقمة عن أفواهنا؛ لنبني بها هذا الجيش، من أجل قضيّتنا

الكُبرى فلسطين، واسترجاع الجولان والإسكندرون، أليست هذه الأرض من سوريّة، حتّى ينساها جيشنا الباسل، وقيادته التي لم يُقدّر لها أن تكون حكيمة وشجاعة؟، فما بالُ فوهة بندقيّته استدارتْ خلفاً في عكس اتّجاهها إلى صدورنا، و صدور أبنائنا؟، ذكرى والدَك وجدّك وأمثالهم - أخي فأنت محمد ناصر الفهري -، أضاءت قلوب وعقول الأحرار، لأنّه ورفاقه؛ رسمُوا لنا الدرب من جديد، عندما قاموا من أجل دفع الظلم عن أهلهم، وديارهم، وما رَكَنُوا ولا استكانُوا، فكانوا مشاعل نور، وهداية للأجيال من بعدهم.
جيشنا كان هو أملنا بعد الله، خابت آمالنا، وهي تتصدّع على صخرة الطائفيّة المَقِيتة، وحرفت رؤية هذا الأمل عن مهمّته الأساسيّة، في الدّفاع عن الوطن، والذود عن حياضه، والله لولا مخافة الله، لكنتُ قد دعوتُه باستعجال أجليَ المحتوم، وأدركني الموت المحموم، وأَوَارَى إلى قبري هناك، قبل هذا اليوم المشؤوم، عندما رأينا ذلك الجنديّ المأمور، وهو يضغط بإصبعه على الزّناد، وانطلاق رصاصته الغادرة؛ لتستقِرّ في صدر شاب من أبناء سورية".
- قاطعه أبو سالم علي السّماحي: "أظنّ أنّ النّظام يريدُ تحرير البلاد من أهلها، يا ليته أطلق طلقة واحدة خلال أكثر من أربعين عامًا باتّجاه العدوّ الإسرائيليّ، واتّضح للقاصي والدّاني، أنّ خوف النّظام الحقيقي من الشعب".
- تابع أبو عادل بعد أن جلس على كرسيّ أتى به إبراهيم، وأخذ وضعيّته: "ومنذ تلك الساعة إلى الآن، مازلتُ أحاولُ أن أجد المبرّر، وراء قصد الشباب الثلاثة الذين خلعوا ملابسهم عن صُدورهم، وارتمُوا مُتمدّدين أمام الإمام أثناء صلاة الغائب على الشّهداء في ساحة القرية، مُموّهين أنفسهم بأنّهم شهداء حقيقة، وقام مع يحملون الكاميرات والموبايلات؛ بتصويرهم مقاطع فيديو، يبدو أنّهم تعمّدوا أن

يقوموا من مكانهم قبل تسليمة الإمام، وانتهاء الصّلاة - بذلك حصل الحرج للجميع-، بعد أن أرسل أحد المُندّسين المقطع إلى قناة الدُّنيا الفضائيّة، وقامت ببثِّ المقطع على أساس أنّه من الكذب الإعلاميّ، الذي تُمارسه القنوات الإعلاميّة المعادية، من كذب، وتهويل، وتهويش ضدّ النظام.
بِدَوْري أسألكم، هل وَجَدَ أحدٌ منكم الجواب على تصرّف هؤلاء الشُبّان، وهم من أبنائنا وأقاربنا، ومن المحسوبين علينا؟".
- محمد الفهري أبو فندي، أجاب: "عبثيّتهم حقيقة مُوجِعَة، يبدو أنّهم مدفوعون من الأجهزة الأمنيّة؛ لتشويه الصورة السلميّة للمظاهرات المطالبة بالحريّة، والخلاص من الظلم الذي لحق بنا جميعًا دون تمييّز، واللّعب على الحَبْلَيْن معلومٌ لدى الجميع، هذا إذا فسّرنا ما فعلوه بحسن النيّة، وأنّه غُرِّرَ بهم، واللّعب على الحبال خطير، و(فَهْلَوَةُ) اللّاعب مهما كان حاذقًا ماهرًا، لا تُنجيه في نهاية المطاف، وخطورته أنّ الحبال لا ترتبط مع الأرض إلا من خلال الأوتاد، تبقى مُتأرجِحَة به بين طرفين، تهفو بها هبّةُ هواء؛ تأخذه بأيّ اتّجاه ربّما تحرفه إلى وجهة أخرى لا يريدها، مصير البهلوان يتوقّف على إمساكه بالعصا من مُنتَصفِها، وليس من خلال ذاته غير الثابتة أو المستقرّة".
- هزّ الجميع رؤوسهم بالموافقة الإيجابيّة على كلام أبي فندي، مطّ علي السّماحي أبو سالم شفتيْه، تنحنح بعد أن مجّ نفسًا عميقًا من سيجارته، راح ينفثه، كأنّه ينفث همومه المكبوتة، وقال: "مُذَكِّراً بمقولة صديقه أبي فندي **"بأنّه لا اعتراض لي، إلاّ على من باع"**، وأردف معلّقًا، هؤلاء باعوا أنفسهم للشيطان، وأمثالهم كُثُرٌ في قريتنا الموبوءة بهذه العيّنة الخسيسة، رجالًا وشبابًا ونساءً، هم يبتغون الإضرار بنا جميعًا دون تمييّز، بحيث أنّهم يُحصون علينا أنفاسنا، ربّنا يُخلّصنا من هذا البلاء".

- قال أبو عادل: "والله كلّ البلاء من هؤلاء الأنذال، وهل أبو رستم الغريب عنّا، الذي صار يعرف كلّ أهل القرية، وخفايا حياتها؟، إلّا عن طريقهم، والله لازم تنكشف أوراقهم للنّاس، والتحذير منهم على كلّ المستويات، ومحاولة عزلهم لإبعاد شرورهم".
- ردّ محمد الفهري، والأسى يعلو قسماته: "أشدّ ما يصيبني قهرًا، وكَمَدًا أنّ كثيرًا ممن أعرفهم من دون ذكر الأسماء، قد ماتوا، وأورثوا صنعتهم الرديئة لأولادهم. عاشوا مُخْبِرين، وماتُوا وهُمْ على ذلك، وقد رَسَمُوا طريق المستقبل لأبنائهم من بعدهم؛ لمواصلة مسيرتهم المظفّرة بالخساسة، والتفنّن في الإيذاء".
- استغرب أبو عادل هذه النبرة ..!! من أبي فندي، وكأنّه يسمع هذه المعلومة للمرّة الأولى في حياته، أردف بقوله: "هل من المعقول أن يحدث مثل ذلك ..!!؟".
- ردّ علي السّماحي أبو سالم: "أووووه .. هذا الشيء منه كثير، أعان الله قلبي على مثل تلك السوالف والحكايا".
أخذ أبو فندي يصبّ الشاي من الإبريق القاشاني الأزرق الجميل، ويضع أوراق النعناع في كلّ كأس بناء على طلبهم جميعًا، وراحوا يرتشفون بصوت مسموع، وهم يتأفّفون.

***

تقاطرت أسراب الذكريات على بالِها، ضجّتْ وِسَادَتُها متأثّرة بحرارة فات موعدها منذ زمان؛ فهيّجت الحنين شوقًا إلى أيّامها الخوالي، عندما كانت شابّة تنعُم بالقوّة، والتفاؤل الممزوج أملًا؛ فجاء سيل الدموع بردًا وسلامًا؛ لتبريد نوبة ساخنة متأجّجة ندمًا على ما فات، وبكاء على حال الحاضر من الهرم والضعف.

طار النُّعاس من عينيها، مُترافقًا مع عصافير الصباح تغادر أعشاشها، طال أرَقُها، عقاربُ السّاعة تعلنُ عِنادَها؛ فلا تُسرع في سيْرها، كأنّ طول الزّمان أرهقها، ولها رغبة المُحاولة في أن تستريح، ولو أنّها تقاعدت من عملها الروتينيّ، من المؤكّد أنّها ترغب في ذلك، ولعلّها تُردّد: عادتي المشي بانتظام، فَلِمَ العجلة؟، فلن آبَهَ بما حولي من ضجر وتأفّف، رغم أن الحياة على وشك أن تتوقّف.
شعرت الحاجّة جواهر أنّها في أطول ليلة في حياتها، استعادت فيها أيّام طفولتها اليتيمة، بِعد فَقْدِ والدها في الحرب مع الإفرنسيّين، مُستغرقة في حالة من الذُهول، عند محاولتها رسم صورة والدها في مخيّلتها، حسبما سمعت من والدتها، وأعمامها وعمّاتها عنه، تسبحُ في ملكوت الغيب البعيد، مُبتعدَة عن الواقع، وتنسى نفسها، تتسابق الأمنيات في طريقها، لو أنّها وَعَتْ شيئاً من تقاسيم وجهه على الواقع، بعيدًا عن ملامحة الجامدة في صورته العتيقة المعلّقة في صدر المضافة، تعتقد أنّ الصّورة مُتكلّسة باهتة بسوادها، مَمْحِيّة في بعض جوانبها بفعل عوامل الزّمن؛ فأذهبت جمال ملامحه السّاحرة التي كانت على حقيقتها في أيّام على الشّباب.وصل الشّريط إلى أيّام شبابها الأغلى على قلبها، وخطوبتها إلى أن وصلت لليلة العُمر؛ ليرتفع صوتها: "يا غَبْصَه **(كلمة مُتداولة، تُقال للتأسّف على شيء مضى)** أنتِ، يا جواهر..!!. إلى أين ذهب تفكيرك؟".
تتطلّع في جوانب غرفتها، لعلّ شدّة حرصها، قد أشعرتها بمن يجلس هناك في زاوية الغرفة، استعاذتْ من الشيطان، تململتْ في فراشها، أزاحت الغطاء، قامت متثاقلة لإشعال النّور، وفي نيّتها أن تُكمل ليلتها في قيام اللّيل؛ لاقتراب موعد أذان الفجر.
ما إن وضعت إصبعها على كبسة الكهرباء، حتّى تذّكرت خاتم أبيها الفضيّ، الذي احتفظت به على مدار الأيّام بحرص شديد، كي لا

يضيع منها، منذ لحظة تَمَلُّكِها له، وهي تتمنّى أن تراه على إصبع ابنها محمد، تنقل رجلها اليُمنى ثم تتبعها بالأخرى ببطء السُلحفاة إلى أن وصلت الصندوق المُقفَل، امتدّت يدها؛ لتستخرج الخاتم، تتأمّله، والدموع تنساب على خدّيها، تترحّم على والديْها، ثم تبتسم، وتعود البشاشة إلى وجهها، وهي تتخيّل يد ابنها تمتّد أمامها، وتقوم بإلباسه الخاتم العزيز على قلبها.
قامت ما تيسّر لها من ليلتها تلك، بصلاةٍ وتهّجد، وأدعية و أذكار، من ثم أدّت فريضة الفجر، وأتبعتها بالتّسابيح، والابتهال إلى الله، رجعت إلى فراشها؛ كان التّعب قد أخذ منها كلَّ مأخذ؛ غَفَتْ قليلاً؛ طرقتْ مَسْمَعَها ضربات على باب غرفتها؛ صَحَتْ، و جلست في الفراش.

***

دخل أبو فندي، ألقى تحيّة الصباح، قَبّل جبينها، وحيّاها: "صباح الخير، عساكِ بخير يا أمّي، إن شاء الله ارتحتِ في نومتك".
- الحجّة: "أحمدُ الله يا بُنيّ على نعمة الصحة والعافية، ولكنّ القلق زارني بعد أن جفاني النوم".
- أبو فندي: "و أنا كذلك يا أمّي".
انتبهت لجوابه، تسمّرت عيناها، وهي تَتَفرّس وجهه الشّاحب المُرهَق، أصابها القلق عليه، تساءلت بأسىً عميقٍ فَطَرَ قلبها: "ما بِكَ يا حبيب قلبي؟".
- أبو فندي: "لا عليكِ، فأنا على ما يُرام، رأيتُ فيما يرى النّائم خيرًا، حُلُمًا أصابني برعب وهلع، تلبّستني حالة من الخوف، سبّبت ارتجافًا في جسدي وقشعريرة، حدث ذلك بعد أن أَوَيْتُ إلى فراشي بقليل، عندما احتكّت أفعى حمراء رقطاء، بِيَدي الممدودة بجانبي، فَحيحُها

قَرَع سمعي بشكل فُجائيّ، في يوم كانت شمسُه لاسعة، كأنّ الصيف داهمنا بسرعة، بعدما أجهدني التّعب من أعمال الحفر، والتّعشيب في المزرعة، تمدّدتُ تحت شجرة زيتون، انقطعت أنفاسي، تجمّدت الدّماء في عروقي، كادَ قلبي أن يتوقّف، رُبِط لساني عن الكلام والحركة، هنا استفقتُ مرعوباً، مُصاباً بالهذيان، شربتُ كأساً من الماء؛ بَلَّلَت جوفي المُلتهِب، تناولتُه من يد زوجتي.
عندما أحسّت بِحَشْرَجِة أنفاسي، راحتْ تَهُزّني بقوّة حتّى صَحوْتُ، قرأتْ عليّ المعوذات، بثّت الطُمأنينة في نفسي، بعد أن حدّثتها عما رأيتُ في منامي المُزعج".
- اعتدلَت الحجّة في جِلْسَتِها، مدّت يدها اليُمنى مُشيرةً إليه أن يقترب منها؛ حتّى تقرأ عليه المُعَوّذات أيضاً، مهدّئةً من روْعه، لطرد عوامل الخوف من قلبه، وقالت: "عساهُ خيراً، هذا بلاءٌ صَرَفه الله عنك، لكن عليك الانتباه لنفسك، لا يهمّك، ليكنْ أَمَلَكَ بالله كبير، أنتَ إنسانٌ مؤمن، فإذا أصابك خير؛ فاحمد الله، وإن كان غير ذلك؛ فاصبر".
أرشدته إلى طاسة الرّوْعة النُحاسيّة الصَفراء، ذات الشناشيل النّاعمة الصغيرة، عندما تُصدِرُ أصوات خَرخَشةٍ عجيبة، إذا ما اهتزّت في يد حاملها، مُتَماهِيَة مع آية الكُرسيّ، والمعوّذات المحفورة على جوانبها، وأرضيّتها، بشكل فنّي مُثير لمكامن النّفس، فتبعثُ على الرّاحة فيها، ويتسرّب شعور عميق بشيء مُريح توّلد في قلبه، أمَرَتْه أن يستخرجها من (فاترينة) الزّجاج من بين الصّحون والكاسات، ويسكب فيها الماء ليشربه.

***

ثم أشارتْ إليه أن يُناولها كيسًا صغيرًا كانت قد وضعته على الطاولة، أدخلتْ يدَها فيه، استخرجت منه خاتمًا فضيًّا، رفعتْهُ للأعلى

ليستوي مع ضوء لمبة الكهرباء، فظهر جليًّا حجر العقيق العَسَليّ اللّون في أعلاه.
-: "أتدري يا بُنَي لمن هذا الخاتم".
هزّ رأسه، مشيراً بوجهه للأعلى، أن: "لا".
- تابعت: "هذا خاتم أبي، ما زلتُ أحتفظُ به منذ أن حصلت عليه من أميّ رحمها الله، قبل وفاتها بفترة قليلة.
يُروى أنّ جدّي جاء به أثناء زيارته إلى القدس، بعد عودته من تأدية فريضة الحجّ، كان سَفَره وقتها على ظهور الإبل، استغرقت رحلته ثلاثة أشهر ذهابًا وإيّابًا.
بعد وفاة جدّي، ومن بعده وَرِثَ أبي الخاتم، وها أنتَ تَرِثُه من بَعدِهِما رحمهما الله، من هنا اكتسب مكانته العظيمة، وأهميّته في قلبي، حقيقة يا محمد يعجزُ لساني عن ترجمة مشاعري وأحاسيسي، رغم أن أخوالك كُلّهم سألوا كثيراً عنه، إلى أن أخبرَتْهُم جدّتُكَ، أنّ الخاتم صار من نصيب جواهر.
وجاء اليوم الذي انتظرتُه طويلاً، حتّى تمدّ يَدِك أمامي، وأُلْبِسَكَ إيّاه بنفسي؛ لأنّك تستحقّه بجدارة، وكنتُ في كلّ فترة، أستخرجه لأستعيد ذكرى جدّكَ".
رفعتْ يدها للأعلى ثانية. بدا حجرُ العقيق العسليّ اللّون واضحًا جَلِيًّا، اصطدم نور اللّمبة من سقف الغرفة بالخاتم؛ فتلألأ شعاعُ الخرزة، أبرقَ في وجه محمّد، فأحال سُمرته إلى اللُّجيْن، مثل انعكاس أشعّة الشمس على سطح مائيّ؛ فيُحيل الانعكاس إلى لون مُبْهِر في عيون ناظريه.
طَفرت دمعة عنيدة من عيْنِها، كأنّما اسْتَدَرّتْها ذكرياتٌ عتيقة، نزلت على سفح الخدّ بِخُيَلاء، غير آبِهَةٍ بحالة الحجّة؛ غُصَّةٌ في حلقِها تُراوِدُ حُزنًا مُقيمًا في صدرها، أحسّت بإطباق سقف الغرفة عليها، تنحنحتْ،

تمتمتْ بكلام غير مفهوم، صوت داخليّ يحكي على لسان ابنها، يقول لها:
"أمّاه ..!!، سآخذه بحقّه، ولن أهون في سبيل تحقيق الأهداف..، أمّاه..!!، لا تبكي عليّ، إن لاقيْتُ حتفي، أولاقاني ..".

***

رَانَ صمتٌ ثقيل على جو الغرفة، انهمرت دموع الحجّة من جديد ناضحة أوجاع العمر، أقبلَ على أمَه مُقَبِّلًا رأسها ويَدَيْها، ضمّتهُ بِشدّة إلى صدرها، نشيجٌ مكبوتٌ في صدرها يغلي كمِرْجَل، سمعهُ بأذنه الملتصقة قريبًا من قلبها، مرّغ وجهه بثوبها؛ لمسح ما تساقط على وجهه.
قام من حِجْرِها ناهضًا، اهتزّ جسده مرتجفًا؛ فَقَدَ سيطرتَهُ على احتمال الموقف الذي يفلق الحجر الأصَمّ، وربّما للمرّة الأولى في حياته، ودّ لو أنّه يهرب من حضن أمّه الدافئ الحنون، ومن يهرب من هذا المكان الآَمَنْ في الكون على الإطلاق؟، صفَقَ الباب خلفه لم يدْرِ ما تسبّب به، إلّا عندما ارتدّ إليه صدى الصوت، وخرق حُرمة السّكون، وجلالة الصباح الطّارد لفلول العتمة.
دخل غرفة الضيوف، ارتمى على الكَنَبَة، أغمض عينيْه، أخذته غفوة عميقة، ممّا أصابه من قلق، وسهاد اللّيلة الماضية، تكرّر الحُلُم ثانية بنفس النُّسخة الأولى.

***

أشرقت شمس يوم هادئ، حُبَيْبات النّدى تُداعب الأشجار في ساحة الدّار، استغراق في بُحور قلقٍ أضنَت قلبه ونفسه، وأعضاء جسمه.

فتح النّوافذ والباب، داعب النّدى وَجنتيْه، فاستعاد شيئًا من حيويّته، راقت نفسه قليلًا، قام فغسل وجهه، صنع فنجان قهوته بنفسه، تاهت مراكبه في محيطات التأويلات والتخمينات، في خضمّ عاصفة هوجاء مفاجئة اقتحمت رتابة أيّامه، ودُخان سجائره يتوالى من لفافة إلى أخرى، مُستحوذًا على أجوائه المغلقة، وعيناه طيلة الوقت مُركّزتان على صورة تتربّع في صدر الغُرفة، مُتأمّلًا وجه والده بصمتٍ مليء المهابة.

ترك المضافة وعاد إلى غرفة نومه، وهكذا أمضى يومه، مأخوذًا بحالة صُدودٍ شبه تامّ عن الطّعام، إلّا من القهوة، والدُّخان هما صاحباه طوال ساعات قضاها مُنزويًا إلى جانب جهاز الحاسوب، مُتَنَقِّلاً من موقع لآخر، باحثًا عن صديق حميم خبير بتأويل الأحلام، بعدما شعر بفقدان الأمل، وإذ به يجده أخيرًا، في المساء ضَبَطَهُ مباشرة مجرّد تسجيل دخوله على (الفيس بوك)، أَخَذَ نَفَسًا عميقًا..، عاد النّشاط مجدّدًا إلى جسمه، وعقله مُودّعًا الخُمول والقرف.

بعد السّلام والتحيّة بالكتابة بداية، على الفور طلب منه تفسير رؤيته، التي احتّلت كلّ ساحات تفكيره، وأغلقت عليه نوافذ يومه كاملًا.

ومن ثمّ انتقلا إلى (الماسنجر) للتواصل بالصوت والصورة، من أجل شرح الموقف بدقّة واستفاضة بما رأى في منامه.

الردّ من الطرف الآخر يأتي بأناة وَرَوِيّة بشيء من التفصيل، أبو فندي يستمع بشغف مُشنّفًا سمعه، مُرَكّزًا بصره على عدسة الكاميرا، مُراقبًا حركات صديقه أحمد التونسيّ، سجّل حديث الدردشة حتّى لا تضيع منه فكرة؛ ليعود إليها مرّة أخرى بالسّماع، و كان التفسير كالآتي: "إنّ الأفعى بهذه الرؤية، وكما وصفتَ، يبدو لي والله أعلم، أنّها فتنة كبيرة ستتعرّضُ لها، وستصيبك مشاكل من جرّائها؛ أتمنّى أن لا تؤذيك يا صديقي، وأنّ الله سيصرفها عنك، كونها لم تلدغك، عليك بالثّبات

والصبر على البلوى، كما أنّ الزّمن كفيلٌ بحلّ أعظم المشاكل في الحياة".

تأخّر به الوقت، السّاعة تشير إلى الرّابعة مساء، أخذ منه التعب، والإرهاق مأخذاً عظيماً؛ أعضاء جسمه شبه مُنهارَة.

أغلق نافذته الافتراضيّة على العالم، توجّه إلى الحمّام، ثم خطرت له فكرة الصعود إلى سطح البيت، علّه يجد مُتَنَفَّسًا لضائقته النفسيّة، أرسل نظراته تجوب السماء مُتفحّصة، الشّمس تستعدّ للأفُول، أصيلُها يفرد وشاحه على امتداد الأفق.

تنفّس الصّعداء، شعر بخواء بطنه من عضّة الجوع، اعتصر عضلاته بين يديه بشدّة لإعادة دورة نشاطها، قفز للأعلى بحركات رياضيّة عدّة مرّات، مترافقًا مع حركات يديْه بالمدّ والثَنِي، يعبّ الهواء بشهيق يملأ رئتيْه، ثم يزفرّ ببطء لإخراجه، دبّ النشاط في أوصاله، تجدّدت حيويّته كَمَنْ نُفِثَ فيه إكسير الحياة.

نزل إلى البيت طالبًا من زوجته تحضير وجبة خفيفة سريعًا، وتأتيه بها في غرفته، رغبة الانزواء كثيرًا ما تفتح نافذة الرّاحة الداخليّة، ولا يملك القابليّة لرؤية أحد حتّى الأولاد، الخروج من البيت غير وارد في قاموسه على الأقلّ في مثل هكذا ظرف نفسيّ سيّء، ومزاج مُتقلّب في بحور يأس وإحباط وما بين نقمة وسخط، مشاعر متناقضة مجهولة السّبب في عشيّة وضحاها سيطرت على كلّ شيء فيه؛ فلا رغبة لديْه برؤية أحد، ولا أن يراه أحدٌ وهو على هذه الحالة، ارتخى جسمه ثانية، اتّكأ على جنبه الأيمن، أغمض عينيْه، بعد أن انتهى من تناول وجبته.

هي تجلس قبالته صامتة تتأمّله، رُبّ صمتٍ أبلغُ من كلام، تودُّ الكلام معه، قلبها يتقّطع ألمًا عليه، تتمنّى لواستطاعت فتح نافذة معرفة، ولو

صغيرة على عالمه الرّحب المألوف لديها منذ بداية حياتهما الزوجيّة، السكوت بلاغة، والصمت مخرج، سكتت الشّفاه، والعيون نواطق.
حرصها شديد على تهيئة أجواء راحته؛ وألّا تكون عوْنًا عليه مع حالته، عيونُها مُتسمّرة لا تفارق وجهه، تحكي ما في قلبها.
تبتسم له..، فيبستم..، خالجتها فرحة داخليّة عظيمة. "يا ألله ما أجمل ابتسامته .. !!". الدّنيا لم تتّسع فرحتها الغامرة.
بقيت مشاعرها تتناوب جيئة، وذهاباً حتّى المساء، إلى أن نهض مُجدّداً من نومه، فكان أن أخذ قسطاً من الرّاحة. تأكّدت بحسّها الأنثويّ أن ذلك يكفيه؛ دخلت لإيقاظه كانت السّاعة تشير إلى السّادسة مساء.
تململ قبل قيامه ذات اليمين وذات الشّمال، بينما هي خرجت، وعادت بإبريق الشّاي، شَرِبَا معًا. فترة المساء لها ذكريات غائرة البُعد من أيام خطوبتهما، تجاذباَ أطراف الحديث، عيونُهُما تلتمعان بشيء لا يمكن تفسيره، داهمَتهما عتمةُ اللّيل وهما على ذلك، نسيا نفسيْهما في غفلة من تجاعيد اللّحظة الطّارئة في حياتهما الهادئة، المليئة حُبّاً ورومانسيّة.
انقضى الوقت كَطَرفَة عين، استأذنته؛ للقيام بشؤون البيت والأولاد، طلب مُجدّدًا فُنجان قهوة، عاد لفتح الحاسوب، والتجوال في مواقع الأنترنت المُختلفة.
للمرّة الأولى يجلس مُدّة طويلة كالمُدمنين، غير مُبالٍ بأيّ شيء، سوى تمضية الوقت؛ لنسيان قلقه وهواجسه وإبعادها عن ساحته.
طالت جلسته لساعةٍ متأخّرَةٍ من اللّيل، الظلام مُتآخٍ مع صمت رهيب، مهابته بالغة تأخذ بلباب العقول بعيدًا في التفكير النّافع والضارّ، وتستيقظ فيه الأرواح لِتَسْتَروِح في قرب خالقها، وتتشابك المكائد في نسج المؤامرات، عيون النّاس نائمة وعين الله وحدها هي المُراقبة، ترى الغافلين عنها، وفي اللّيل كلٌّ يُغنّي على ليلاه، العتمة تَحجُب

العيوبَ، وللنَهار مآلاتٌ أخرى، يُسَربِلُهم بلبوسٍ؛ يُخفي قُبْح ليلهم المُلوّث بالخطايا.
هدوء مُطبِقٌ على البيت والقرية، صوت حفيف الأشجار وحده هو المُتكَلّم، مازال يتفكّر بتأويل والدته، وصديقه أحمد التونسيّ؛ لحظة صادمة فارقة بقوّة أنارت دروب عقله مُنعشة قلبه.
بلسان كلّه رجاء ممزوجاً بمخاوفه: "يا ربّ عليك توكّلت؛ فاجعل لي من كلّ ضيق مخرجًا".
تيبّست رجلاه من أثر الجلوس الطويل، شَعَرَ بثقل جسمه المهدود، رغب في الخروج إلى باب الدار، مشى جيئة وذهاباً في الحارة السّاكنة، الغارقة بحُلَل الظلام، انتشتْ رئتاه بالنّسيم العليل، انسابتْ نفسه ارتياحاً، فَطِنَ لِلَسْعَة بَرْدٍ اخترقت جسمه، قَفَلَ عائداً إلى فراشه، أسلمه الإرهاق للنّوم من جديد بلا إرادة منه.

***

السّاعة تشير إلى العاشرة صباحًا، وما زال مُستغرقًا في نومه، امتدّت إليه يدٌ حانيةٌ تهزّه بلطف، القُبُلات تنهال على وجهه، ونغمةُ همسٍ كزقزقة العصافير، شفيفةُ النّدى في صباح ربيعيّ، عَبِقةٌ بعبير الأزهار، ناعمةٌ كزهر اللّوز، قائلة: "قُم يا حبيبي، الفطور جاهز".
إحساسُها به كبير، رغم طمأنتها له، فهي تعمل كلّ ما بوسعها لإخراجه من حالته، تتجاهل تعبها النفسيّ مُتفانية في سبيل إسعاده، رغم الإرهاق الجسديّ من أعمال البيت، وتربية وتعليم الأولاد، هذه الأشياء تتفرّد بها وحدها دون تدخّل أو مساعدة منه.
جاءته بفنجان القهوة السّادَة كما يُحبّها، ارتشف منه، وهو جالس في السّرير، وهي تجلس قُبالته على طرف السّرير، مُستغرقة سابحة في

قسمات وجهه المُقْمِرِ في دُجى ليلها، وكأنّها المرّة الأولى التي في حياتها تُطالعه.
الألم المكبوتُ في صدرها المتأوِّه حُزنًا، تُخفيه خلف وجه مليء ناضح ببهجة الحياة، مملوء بمعانٍ بعيدة الغور، كالبحر لا يُرى له عكْر، مهما هبّت عليه الرياح والعواصف، وعَلَتْهُ الأمواج، وهي ترثي حالته الطارئة التي لم تعهدها به؛ فتتصنّع الابتسامة لإضفاء الفرحة ونشر السرور على الجوّ؛ وإدخال الطمأنينة إلى نفسه بتخفيف الأعباء الحياتيّة عنه.

***

جاء رنين الموبايل؛ كضجيج قرع سمعه بفظاظة كريهة غير مُتوقّعة، قَطّبَ جبينه، علامات الضّيق عادت لترسم ذُهولاً على قسماته، تناول الجهاز، رأى اسم أبي رُستم على الشّاشة، فتعوّذَ من الشّيطان، قال لزوجته: "رجاء، رُدّي عليه، أخبريه أنّني في المزرعة، و نسيتُ جهاز الهاتف هنا ".
- الزوجة، تردّ على المكالمة: "أهلًا، وعليكم السّلام،- تهزّ رأسها إيجاباً - إن شاء الله عندما يأتي سأخبره، حاضر ..لا.. لن أنسى".
- أبو فندي: "ما الذي يريده منّي هذا الرجل؟، والله إنّي لا أحبّ أن أسمع اسمه يتردّد على مسمعي، سأتّصل به لاحقاً، حتّى أستجمع قِواي، وأستَحْضِر شجاعتي".
غامَتْ نظراتُه السّاهمة من خلال خيوط الشّمس المنبعثة عبر النّافذة، مُتَخَلِّلة أغصان الأشجار المحيطة بالبيت، نهض من فوره للحمّام، غسل وجهه، حَلَق ذقنه.
عاد يحمل المنشفة على كتفيْه، انبعثت الحيويّة في روحه؛ فانعكست نشاطاً مُتجدّداً على ملامحه، انفرجت أساريره، أقبل على الطّعام بِنَهَمٍ،

وانخرط في غيبوبة مُسكرةٍ مع نفسه، استذكر نبرات صوت صديقه التونسيّ، لا تفتأ قرع سمعه على مدار السّاعة حتّى أثناء نومه، تذكّر ذلك بعد مجيء المكالمة: "إنّ الأفعى ربّما يكونُ تأويلها، على أنّها أبو رستم، بل أنا متأكّد، على أنّه أشدّ خطراً من الأفعى، فلا أمان له، في الحقيقة أنّ اتّصاله زاد الهواجس في صدري، هل يريد اعتقالي، أو التحقيق في أمر ما، أو أن مُؤذيًا من كلابِهِ وَرّدَ إليه تقريرًا عنّي؟.
الأمر مفتوح على كافّة الاحتمالات، والفرضيّات، أنا مستعدّ لأسوأ شيء أتوقّع حدوثه في مثل هذه الظروف المشحونة بالقلق".
هذه آخر كلمة قالها لزوجته.

***

قام، وخرج قاصدًا المزرعة، في الطّريق اتّصل بصديقه المحامي خالد الهنيدي، طلب منه أن يأتيه إلى المزرعة لأمر هامّ، وضروريّ لا يحتمل التأجيل: "رجاء أن لا تتأخّر".
- المحامي: "إن شاء الله، في السّاعة الثّانية عشرة سأكون عندك".
وصل أبو فندي إلى المزرعة، حاملًا أثقالًا من الهموم ينوءُ بها عقله وقلبه، لا يدري ما الذي سيفعله، خاصّة مع أبي رستم؟، ذهبت به أفكاره بعيداً مُستغرقًا في دوّامتها، دُخان سجائره يُشكّل حول رأسه سحابة، يُشعل السّيجارة من أختها، كلّ حين ينظر إلى السّاعة العنيدة ببطء ثوانيها ودقائقها، بانتظار قدوم صديقه ليستريح قلبه، كي يخرج برأي معقول ومناسب، للتعامل مع الموقف الطارئ، من هذا الاتّصال اللّعينً المفاجئ غير المتوقّع، والذي لم يكن ليتمنّاه أبدًا أبدًا.
- حديث النّفس يتوالى بلا توقّف: "يا ألله ..الفرج الفرج، ها أنا أشعر أنّ عظام صدري تُطبقُ على قلبي، تكتُم أنفاسي حدّ الاختناق، ها هي الدّنيا تضيق بعينيّ كأنها سُمُّ إبرة، أنا في حيْرَةٍ من أمري، فماذا لو

اعتُقِلْتُ؟. مرضُ والدتي، مُعاناتُها المزمنة من المشاكل الصحيّة، فماذا سيحصل لها، وكذلك زوجتي، وأولادي؟، كيف سيتدبّرُون أمورهم الحياتِيّة؟.
جنونُ الأفكار يسيطر على عقلي، تتوارد من كلّ حدب وصوْب، مَحّصْتُها بكلّ دقّة؟، ولم أتوصّل لنتيجة، شُلّت قِوايَ العقليّة حدَّ التوقّف، فأنْسَتْني نفسي، فَقَدْتُ الإحساس بما حولي من جمال، وجاذبيّة المكان الأثير إلى نفسي لقضاء أوقاتي فيه".
لا يتوانى عن التأفّف مع كل نَفَس يعلو ويهبط صدره، يتمشّى جيئة وذهاباً بخطوات متوترة، يضرب رجليْه أحيانًا ببعضهما، أو يثيرُ الغبار إثْرَ ضربه الأرض بأحدهما، ينفثُ دخان سيجارته، ينظر إلى ساعة يده أو يفتح شاشة الموبايل لمعاينة الوقت، يتطلّع إلى الطريق الترابيّ الفرعيّ بنظرات تستجدي رؤية خيال المحامي.
عندما يسمع صدى هدير مُحرّكات السيّارات العابرة للطريق الرئيسيّ، تتنّبه حوّاسه المتوتّرة أصلًا، بفارغ الصّبر ينتظر.
فما إن تطابق عقربا السّاعة على بعضهما وتوحَّدا. حتّى انتشت كوّة الأمل في قلبه، انفرجت أساريره، تنفّس بعمق، عادت الحياة إلى جسمه المكدود المنهوك.
رأى من بعيد، أن سيّارة صديقه انعطفت باتّجاهه، تسارعت خُطواته؛ ليفتح باب المزرعة.
ترجّل المحامي، وألقى التحية: "السّلام عليكم يا أبا فندي، خيراً إن شاء الله".
تصافحا وتعانقا، لم تسمح لهما ظروفهما هذا الأسبوع بلقائهما المعهود.

سارا باتّجاه الغرفة، قبل أن يتحدّثا بشيء، وضع أبو فندي إبريق الشّاي على (بابور الغاز)، وقام بغسل الكاسات، مسح الكراسيّ من الغُبار المُتراكم.
- أبو فندي: "إن شاء الله خير.. يا سيّدي ..!!، لكن، من أين لنا أن نرى بعضنا، وأبو رستم الزّفت وراءنا؟، لقد بلغني أنّه يعرفنا أكثر من أنفسنا، كما إنّه صار وجهاً من وجهاء القرية، الذين لا يحلو لهم جلسة، أو سهرة إلا وأن يكونَ على رأسها، ولا يتذوّقون طعاماً يروقُ لهم أو يشتهونه، ولا وليمة لضيف، أو لقريب من أبناء العمومة، إلّا وهو معهم وعلى رأسهم، وكأنّه أصبح من أولاد العيلة، يا رجل لا أبالغ إن اعتقدتُ أنّه أصبح مُصلحاً اجتماعيًّا؛ فالمشاكل المُستعصية على الحَلّ، رغم تدخّل أهل المشورة، والرأي من وجهاء البلد، فإنّ وجهات نظرهم، ومشورتهم لا يُؤبَه لها، ويُضرَب بها عرض الحائط باستهتار، لكنّ هذا العملاق العجيب، ذو الكرش المُنداح أمامه، ورأسه الضخم كرأس التّيس، ولسانه البذيء، فإنّه بمجرد أن يتكلّم أو يومىء؛ فالجميع ينتظرون إشارته للموضوع المُخْتَلَف عليه، قبل أن ينتهي كلامه.
ينبري الذي ركب رأسه زماناً طويلاً، رافضاً لوساطات أبناء البلد، ويبادر للقول: "تِكْرَم يا أبا رستم، كرامتك عزيزة علينا، كلامك على رؤوسنا، لا يمكن أن ندَعَهُ ينزلُ الأرض، اعْتَبِرْ أنّك لم تسمع شيئاً من هذا من قبل، ولن تحتاج لأن تتكلّم ثانية بهذا الأمر، أو أنّ أحداً سيراجعك، وكلامُك لا يعلوه كلامٌ غيره".
ينظر إليه الجميع في المجلس بإعجاب، ممزوج بالجبن والخوف من سُلطته، وهو يُمسّد شاربه المُتَدلي على جانبيْ فمه، وأحياناً يفتله، ويجعل نهايته معقوفة، للأعلى لتتوازى مع عينيْه"، قيل أنه يضع لهما دهونًا خاصًّا، وبعضهم يتندّر خُفية أنّه دخل أحد الصيدليات في القرية

وأخذ علبة (جِلْ) لهذا الأمر، وزادوا أن الصيدليّ لم يأخذ ثمنها، لأنّ ابنه المُتفوّق انتهى من امتحانات الثانويّة العامّة، وعلى وشك الدخول إلى الجامعة، فهو بحاجة إلى دراسة أمنيّة إذا ما أراد دخول معهد البحوث، أو تحصيل بعثة دراسيّة إلى خارج القطر، إذا صدقت الواسطة، رغم أنّها ثقيلة كما تردّد أكثر من مرّة على لسانه لبعض خوّاصه المَوْثُوقين.

- المحامي: "أتيتُ إلى هنا، كي تُلقي على مسمعي محاضرة عن فضائل أبي رستم، وكأنك تُريد إقناعي بأنّ الله أرسله نعمة لبلدتنا؟، لِيَكُنْ من المعلوم لديك - يا عزيزي - أن: (**قوّة الأقوياء من ضعف الضُّعفاء**)، فإذا كان كلّ النّاس على سويّةٍ واحدة من القدرات والقوّة، فلا يمكن أن يكون هناك أقوياء، فالضعفاء هم التُّربة الصالحة للخضوع لمن هو أقوى منهم، فيأتي هذا القويّ ليمتطي ظهورهم، ويمارس فحولته عليهم بكلّ أشكالها، هم يتجنّبونه مخافة شرّه، سيبقى القويّ قويًّا؛ ما دام الضُعفاء مُقتنعين بضعفهم، وهم فُرادى متفرّقين، فإذا ما استطاعت إرادتهم أن تخرج من قوقعتها بقدرة قادر؛ ليضعوا يداً بِيَد يُشْهِرُونَها في وجه القويّ المتسلّط، وتخرج أصواتهم عالية، فبذلك تكون نهاية أسطورته المرسومة في عقولهم عنه، عندما يصلوا لهذه النّتيجة، من الصّعب عليهم الرجوع للوراء، والعودة لحالة الوهن، والبؤس التي كانوا عليها".

- أبو فندي: "يا رجل، (**زمان أوّل حوّل**)، فلا أبو رستم ولا أسياده، من اليوم فصاعداً سيكونون من آلهة الشرّ التي كنّا نخشاها، رجاء لا تفهم كلامي بهذه الطريقة، لأنّني ما زلتُ في المقدّمة، فأنا في غاية الإرهاق والإحباط، أريدُ منك أن تبْسُط إليّ سمعك وصبرك، وتأخذني بحلمك، ففي ليلة البارحة انخرطتُ في حلم خطير، بعد أن أفزعتني

الأفعى المُحتكّة بيدي الممتدّة إلى جانبي، وأنا أنظرُ إليها، كنت في حالة يُرثى لها، أحسّت زوجتي بي، وبشخيري، وحشرجة أنفاسي.
هزّتني بشدّة، جاءتني بكأس من الماء، هدّأت من رَوْعي، حتّى إنّ أمّي جفاها النّوْم ليلتَئِذْ، عندما دخلتُ غرفتها، وقصصتُ عليها، طمأنتني خيراً، بأنّ مصيبة اقتربت منّي، وأنّ الله صرفها، ولم يهدأ لي عَصَبٌ من أعصابي، حتّى المساء إلى أن التقيتُ صديقي أحمد التونسيّ الذي حدّثتُكَ عنه سابقاً، و خِبْرَته الكبيرة في تفسير الأحلام، وتأويل الرُّؤيا، فقال: (إنّها فتنة تصيبك، وستخرج منها سالماً، بجوابه سكنت هواجسي، هدأت روحي، جاءني رنين الموبايل، فصُعِقْتُ، وخانتني شجاعتي، فلم أستطع الضغط على الزرّ الأخضر؛ للردّ على المكالمة، فناولت التلفون لأمّ فندي للردّ، أوصاها أن أكلّمه عند عودتي من المزرعة، وهي بدورها، أخبرته بنسياني للموبايل في البيت".
أطلق المحامي ضحكة مجلجلة، غيرُ مُبالٍ لما سمعه من قصّة أبي فندي وخوفه وهلعه، الأمر الذي أغاض أبا فندي.
فضرب كفّا بكف، و قال: "(**العصفور يَتَفَلّى، والصيّاد يتقلّى**)، يا أخي أنا أحترقُ، وأنتَ تضحك بهذه الطريقة".
- المحامي: "لا عليك الأمر بسيط، لا أرى مُبرّراً مُقنعاً لهذا القلق غير الطبيعيّ، بكلّ بساطة بعد رجوعك للبيت، اتّصل به، لتعرف ما الذي يريده منك، فهذا الرّجل مقدور عليه، فلا تقلق، إنّني على علاقة جيّدة بالرائد معاون رئيس القسم، فإذا - لا سمح الله - أقدم على اعتقالك، من فوري أتواصل معه، وعلى رأي المثل (**أطْعِمْ الفم، تستحي العين**)، يعني شُوفْ خاطر أبو رستم، حتّى يغضّ الطّرْف عنك قليلاً؛ لأنّه هو البداية لكلّ ما يحصل لأيّ شخص يقع ضمن حدود سلطته".

- أبو فندي: "وهل يُعْقَلُ ذلك؟، لم أتخيّل أنّ رجل أمن من الممكن أن يقبل الرّشوة، خوفي كبير من أن يفتح لي قضيّة محاولة رشوة، وأروح فيها بين سين وجيم، وأتهيّبُ من تقديم أيّ شيء له".
- المحامي: "لا عليك، اتركْ هذا الأمر لي، أنا سأتدبّر أمره إذا أقدم على إيذائك، وأنت بدورك تدبّر هديّة له مثلًا، تنكة زيت، أو بطانيّة الدُّب، واللهُ يحبُّ المحسنين، ألا ترى أنّه يحمل كرشه لكلّ وليمة ومناسبة فيها طعام، وضيافة، و**(كلّ عُرُسْ له فيه قُرُص)**، كلّهم كذلك من أكبرهم إلى أصغرهم، يبيعون الوطن بسيجارة، ولأزيدنّكَ بيتًا من الشّعر، أنّ كلّ وليمةٍ يحضرها أبو رستم، يُرسلون له طنجرة مليئة بالأرزّ واللّحم والمُكسّرات إلى بيته، ومنهم من أرسل مِنْسَفًا، أو صينيّة مُغلّفة بالقصدير.
حيث أصبح هذا الأمر معروفًا، وشائعًا في القرية لا يخفى على أحد، فلا حرج في ذلك، هذا من أنواع التزلّف، والتقرّب من جنابه، انظر يا رعاك الله..!!".
- أبو فندي، انفرجت أساريره، قال، والبشاشة كَسَتْ معالم وجهه: "نوّر الله قلبك، وفرّج عنك كلّ ضيق، فصدري انشرح لكلامك، أَمِنْ فراغٍ صِرْتَ محاميًا، فلا شيء يصعبُ أمامك حتّى أعقد المشاكل"، وكما تذكر مقولتي التي سجّلتَها في مفكرتِكَ **"أنّه لا عتب لي، إلاّ على من باع"**، وكتبتَ تحتها اسمي (أبو فندي)، فكلّما أتذكّرُ ذلك، وكأنّني أصبحتُ من حكماء العالم الذين نقرأ لهم مثل تلك المقولات بكلماتها القليلة، ومعانيها الكبيرة".
- المحامي: "حتّى تعلم أنّني خير من يفهمك يا رجل، وأنا خير من عرفك".
فما إن انتهيا من شرب الشاي، حتّى بدأ المحامي يتطلّع إلى ساعته، علامات القلق بادية على تقاطيع وجهه، وكأنّه على عجلة من أمره،

فأعماله كثيرة، ومواعيده أكثر، والنّاس ينتظرونه، وهم يعتقدون أنّ همومهم أخذوها عن أكتافهم، ورَمُوها على عاتقه.
تشعّبت بهما دروب الأحاديث لساعة من الوقت افتقدوها منذ زمنٍ، الأحداث المُلِمّة بالبلد بشكل عام تتسارع وتيرتها ولا تدع مجالًا للانتظار.
- استرسل أبو فندي بالكلام، لحظة وداع صديقه: "هذه البلد (سورية) صمتت وسكتت طويلًا، فَصَمْتُها كان بليغًا، حدّ اللامبالاة تارة، والبلاهة تارة أخرى. وعلى رأي ممن وصفوها بالجُبن والخوف من الممكن أن يكون على حقٍّ حسب رؤيته.
في هذا الرّبيع انقلبت حالها، وكأنّها بلد آخر، بل ربّما هي في موقع بعيد على خارطة الكون في مكان ما. كم كانت الدهشة عظيمة في أعين وقلوب أهلها؟، وهم يشاهدون على الفضائيّات بطولات الانتفاضة الفلسطينيّة، شعبٌ مُصِرٌّ على عدم خشية الموت، اعتقادًا منهم أن الموت لا يوقف عجلة الحياة، يتعاملون معه بسرعة وحسم، يدفنون شهداءهم، يقفلون عائدين لطبيعة حياتهم دون تأخير، ولما سُدّتْ كلّ النوافذ بوجوههم، خرجوا، وهم يعلمون أنّهم خسروا الكثير، ولم يَعُد لديهم شيئًا ليخسروه، وقفوا مُندّدين بالاحتلال ومقارعة ظلمه بكلّ الوسائل المُتاحة بين أيديهم، وأثبتوا للعالم أجمع أن الشعوب لاتموت، هي نار تحت الرّماد.
نسوا وتجاوزوا همومهم وأحزانهم بجرأة غير معهودة. أَمَا سمعتَ من قال: **(لا تدعس على رِجْل الذليل، فتعلمّه المراجل)**، ما زالت جُذوة النّار ساكنة مُتّقدة في قلوبهم لمقاومة كل أشكال الظلم".
وقف المحامي خالد، وهو ينظر إلى ساعته، مُتأفِّفًا بِضَجَرٍ من تحليلات أبي فندي الفلسفيّة، عندما نقل له ما تحدّث به بعضُ الأصدقاء مما سمعوه، ومما يقال على ألسنة النّاس في القرية. ودّعه، وأفهمه أنّه

على عجلة من أمره، وأنّ هناك من ينتظره، وقال: "عزيزي، لكنّها لم تصمت، أو تسكت كما تتخيّل، ألا تذكر أنّ أولى ضربات النّظام كانت ١٩٧١، وهو ما أطلق عليه حوادث الدّسْتُور الذي اختفى من حياة سوريّة منذ ١٩٦٣، هدأت الأمور إلى ١٩٧٩عندما دخلت في دوّامة العنف، والعنف المضادّ إلى عام ١٩٨٢.
وتُوّج هذا العام بمأساة حماة، فكسروا العمود الفقريّ لسورية، بعدها لم نستطع رفع رؤوسنا إلا بعد ثلاثين عاماً، سيطول بنا الحديث، ولن ينتهي بساعة أوساعتين، أرجوك كرامة لله أطلقني، بعد أن تتّصل بأبي زِفِتْ أخبرني، لنرى ما الذي نستطيع فعله؟".
ونظر إلى الخاتم الفضيّ الجديد على إصبع أبي فندي: "من أين لك هذا؟، ليس من طبعك أن تعتني بالخواتم. والله مفاجأة، كلّ يوم تخرج علينا بشيء جديد على غير عادتك، وكأنّ التغيير صار طبعاً لك؟".
- أبو فندي: "والله .. هذا خاتم جدّي، أمّي ما زالت تحتفظُ به، فطِنَتْ له البارحة، فاستخرَجَتْهُ لكي تُحقّقَ حُلُمها بأن تُلبِسَني إيّاه، على كلّ حالٍ أشكرك. سامحني فقد أثقلتُ عليك، لكن كما تعلم كثرة التشعّبات في آراء، وكلام النّاس الذي أخبرتُك به، من الممكن أن تستفيد منه في توثيقك للأحداث، بأمان الله مع السلامة".
- المحامي ثانية: "إلى اللّقاء، أنا في عجلةٍ من أمري، عن إذنك يا صديقي".
انطلقت السيّارة بسرعة أثارت الغُبار خلفها، فحجبت أنظار أبي فندي عن مُتابعتها، وهو يتفكّر باستغراق عميق بكلام صديقه.
ثم وقف يُلوّح بيده مودّعاً، ولم يستطع الرُّجوع إلى مكانه، إلّا بعد أن غابت السيّارة عن عينيْه، واستلمت الطريق الرئيسيّ مُتّجهة للقرية، جَمَعَ الكأسين، وإبريق الشّاي، أغلق باب الغرفة، أدار محرّك درّاجته الهوندا، مُنطلقاً إلى القرية.

***

"**هذه** التجاذبات القديمة الجديدة يفهمها الجميع، لكنّهم سكتوا عنها، لِمَا علموا من حالات تربّص المُخبرين، وأعوان النّظام، وما أكثرهم في هذه الأيّام، وقد شنّفوا آذانهم لكلّ كلمة تُقال، في السّوق، والمدرسة، والجامع، والمضافات، وفي دكاكين التّجار، وقد كَسَدَتْ تجارتهم، وبارتْ بضائعهم، لقلّة الروّاد من المشترين الذين ضاقت بهم سبل العيش لقلّة الوارد، فالرواتب قليلة، لا تكاد تكفي أسبوعًا من أوّل كلّ شهر، والأجور قليلة، من يعمل لا يقبض أجره كاملًا، الضّيق والضّنك تجلّت مظاهره في كلّ مناحي قريتنا **(مَوْج)**، للمرّة الأولى منذ فجر التاريخ، أن يقوم أهلها بالهُتاف ضدّ حكّامهم، وقف النّاس على جانبيّ الطريق، منقسمين إلى فريقيْن، يفرُكُون أعينهم من الدهشة، ولا يصدّقون ما يروْنه، ففريق استهجَن تلك المظاهرات، وهو على يقين أنّها لا يمكن أن تغيّر شيئاً، فماذا يمكن لهؤلاء الأولاد أن يفعلوا، وآخرون وَصَفُوا الشّباب المتظاهرين بالزُّعْران، والمغرّر بهم".

أضاف المحامي هذه الفقرة، لمفكّرته عند عودته للبيت مباشرة، مُجرّد أن خطرت له الفكرة، وهو في الطريق، بعد أن ودّع صديقه أبا فندي.

- المحامي خالد على يقين، وإيمان بالنّصر على الظلم والبغي والطّغيان، ويُحدّث صديقه وشريكه في المكتب، المحامي ماجد: "أنا مؤمنٌ بحتميّة النّصر، حالمٌ إلى درجة الهذيان، أزرعُ شموع الأمل من أجل غد أجمل، أوثّق من خلال عملي حالات الانتهاك لحقوق الإنسان، مع مجموعة قانونيّة من زملائنا الأحرار، في لقاءات نحيطها بكثير من السريّة، والحذر في التّعامل، والتواصل مع الحالات التي تصادفنا، وتصلنا أخبارها الموثوقة، ومن تأخّر المظاهرات في القرى، حيث

اقتصرت بدايتها على درعا، ومما لفت نظري أنّ الكثير من النّاس يأتون من القرى المختلفة، إلى درعا للمشاركة في التظاهرات في كلّ جمعة، إلى أن كانت أوّل مظاهرة في قريتنا **(مَوْج)**، بعد أن حوصرت مدينة درعا، لإخماد الثّورة، ووأدها في مهدها، لم أجد سببًا وجيهًا لأفسّر به غياب الرّئيس، واختفائه لمدّة أسبوعين، ونحن ننتظره".

- المحامي خالد، تابع مُعقبًا: "في الحقيقة أنّه شيء محيّر، ذلك الغياب غير المبرر للرئيس، بهذه الصورة، القتل، والدّم، والإصرار من النّاس على موقفهم، لا أستطيع أن أتصوّر ما حدث ويحدث، أكادُ أُصاب بانفصام شخصيّة، ولولا أنّي أرى بأمّ عينيّ الواقع على حقيقته، لقلتُ لكلّ من يتكلّم عمّا يحصل أنّك كاذب، ولَوَصَفْتُه بالجُنون".

- المحامي ماجد يتفكّر بكلام صديقه وزميله المحامي خالد، وهو يتحدّث معه في هذا الاتّجاه للمرّة الأولى منذ اجتماعهما الأول قبل سنوات، عندما تشاركا فيما في هذا المكتب، عن موقفه الحقيقيّ تجاه الوضع المناهض للنّظام، وبهذه الدرجة من الوضوح التي لا لبْس فيها، فالعلاقة بينهما كانت قضيّة عمل، وأوراق، ومداولات، واستشارات.

أخيراً يطلب من زميله الانضمام إلى القافلة، وأن لا يبقى خارج السّرب..، أعرب المحامي ماجد عن عميق دهشته، للمفاجأة بحيث أنّه لم يتخيّل أنّ زميله خالد بهذه المواصفات التي ظهرت في وقت الأزمة، وأعلن أيضاً بوضوح، أنّه لن يتخلّف عن خدمة قضيّة الوطن، والعمل من أجل الخلاص من الدكتاتوريّة، وأنّه مع الثورة قلباً وقالباً وبحماس شديد.

***

(٢)

المحامي بحذق وحنكة يرصد كلّ ما يدور في المجتمع، وما يتداوله الناس من كلام وآراء، فيما يصبّ في خانة حدث الساعة، وكيفيّة التفاعل معه، لا يترك شاردة ولا واردة من هذه الأشياء، إلّا ويقوم بتوثيقها في مفكّرته، بأسلوبه المُميّز والشيّق، في آخر أيّ موضوع يوثّقه، لا بدّ أن يضع رأيه الخاصّ فيه، وآراء النّاس مؤشّر

حقيقيّ شفّاف على ما يحصل، وجديّ من خلال التفاعل مع ما يحدث على أرض الواقع، ومن ذلك سجّل في يوميّاته مُعظم من التقى بهم في مواقع مختلفة، على اختلاف انتماءاتهم ومنابتهم.
فجاءت على شكل فقرات جمَعَتْها صفحات مُذكّراته على اختلاف زمانها ومكانها وموضوعاتها، وربّما في كثير منها غير مترابطة.
هكذا كانت..، إلى أن تجد الوقت المناسب وترى النّوُر، ويُماطُ اللثام عن احتجابها.
- علي السماحيّ التاجر، في معرض حديثه لصديقه الجالس بجانبه، بعد أن وضع أغراضه التي اشتراها، ودفع ثمنها، وفرغ دُكّانه من الزبائن، قال: "كانت قلوبنا مُتعَلّقة بخبر يأتينا عن تحديد موعد خطاب الرئيس، فها نحن افتقدناهُ، ولم يظهر على شاشة التلفزيون".
- الأستاذ أحمد الفهيد، همس لصديقه عبدالرحمن مُدَرّس الرياضيّات، في غرفة المُدَرّسين أثناء الفرصة الأولى: "نحن نريد كلمة إنصاف منه واعتذار لنا، وكفّ أيدي الأجهزة الأمنيّة عنّا، غيابه بهذه الطريقة اللامسؤولة غير مُبرّر، صراحة داخَلَني الشكّ عن طبيعة الوضع، قادتني ظنوني، أنّ الرئيس دخل سردابًا في القصر الجمهوريّ، فصار كالإمام الغائب، المنتظر خروجه من مخبئه، وهل علينا انتظاره حتّى يظهر؟، ومن يحفظ دماء الشبّاب من السفك؟.".
- في يوم الجمعة وقف الخطيب على المنبر، وبطريقة مُوارِبة تكلّم عن الظلم، وأنّ دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب، وفَهِمَ من أراد أن يفهم مرامي كلام الخطيب.
في الجامع الآخر، حدث هناك ما لم يكن بالحسبان، مجموعة من الشباب الغاضبين، قاموا بإنزال الخطيب من على المنبر بعدما صعد عليه، حيث أربكته المفاجأة، ولم يكن يتوقّع يوماً ما، أو يَدُر في خلده وحسبانه ما يحدث، انطلقت صيحات التكبير هزّت أركان الجامع.

نزل الخطيب بهدوء، صعد مكانه خطيب آخر من المعارضين الثائرين، ألقى كلامه بوضوح جلّي بوضوحه؛ فسمّى الأشياء بمُسَمّياتِها الحقيقيّة، خلال عشر دقائق أتَمّ خُطبته، وهو لم يكن قد حضّر أو تهيّأ لها.
فجاءت سريعة باختصار الوقت، مُفتَقِرة للترابط الموضوعيّ بتسلسلها، لكنّها كانت علامة فارقة، برسم المستقبل.
بعد الصّلاة دوّتْ صيحات التكبير ارتّجت لها أركان الجامع، ومن ثمّ خرجوا إلى السّاحة الخارجيّة، تجمّعت الأعداد الغفيرة من المُصلّين، انطلقت المظاهرة باتّجاه ساحة القرية، لتلتقي هناك بالمتظاهرين القادمين من الجوامع الأخرى.

***

سعدون جلس للاستراحة قليلًا، لاسيّما أنّه من التاسعة صباحًا فتح أبواب الورشة مُبتَدِئًا، باستقبال صديقه محمود، أشعل سيجارته، تناول كأس الشاي، شغّل (الموبايل) على أغنية **(يا حيف\ لسميح شقير)**، المُتحمّسون للثورة ومناصروها هاموا بها غرامًا، رَأوْا فيها قصّة ما صار؛ فحفظوها ورَدّدَتْها ألسنتهم، استمع للأغنية مع صديقه محمود الذي ينتظر إصلاح درّاجته الناريّة، وقال:
"منصورين بعون الله، وكأنّي أرى سقوط النظام كما أراك".
وفي حالة من التَنَدُّر، أبو عادل يقفُ على (السِّقالة)، بيده قطعة من الجبصين يريدُ إلصاقها على الجدار، خاطب أبا سليمان صاحب البيت الذي يعمل فيه، ومعه ابنه الصغير يقف إلى جانبه، قال:

"لا ندري أين اختفى الرئيس- يا بن الحلال- كأنّه **(فصّ ملح وذَابَ)**، أظنّ أن أخاه قد أغلق عليه باب البيت مانعاً إيّاه من الظهور".
- أبو سليمان: "هناك تخوّف من أن يكونوا قد قتلوه وقضُوا عليه، والله هكذا الناس تتكّهَن، كلامٌ كثير، لاأدري من أين أتت به مُخيّلاتهم..!!..؟، يبدو أنّ الإشاعات كثيرة، وتفعل فعلها في الواقع، كالنّار في الهشيم، والحَبَّةُ تُصبح كالقُبّة".
- أبو عادل: "كلّها تكهُّنات ..!!، نريد أن يظهر بأيّ ثمن؛ لأنّنا ننتظره بفارغ الصبر، فهو الضمان لنا جميعاً، وصمّام الأمان، وكلمته على ما أعتقد هي الفَيْصَل في إحقاق الحقّ، نحن نريد الإنصاف و العدل لا غير".
- ردّ أبو سليمان: "كلام فاضي، يبدو أنّهم يُدبّرون أمرًا مفاجِئًا لنا، علينا أن ننتظر الأيّام القليلة القادمة، حتّى يتبيّن لهم كيف سيديرون الأزمة، سمعتُ أحدهم يتحدّث عن ذلك: (أنّ التقارير الأمنيّة المرفوعة لمكتب الرئيس، إمّا أنّها تُضَلّله ولا توصل الحقيقة له كما هي، وتهوّن مما جرى، أو إنهم اتّفقوا جميعًا على موعد إنهاء ما حَدَث، وخلال أيّام سينتهي كلّ شيء، ويتمّ القبض على المُتسبّبين بالخروج على طاعتهم، وفرض الطّاعة بقوّة الحديد والنّار من جديد ".
- هزّ أبو عادل رأسه علامة الإيجاب، وقال: "كلامك يا أبا سليمان فيه وجهة نظر".

***

كتب المحامي في مذكّراته: أنّ الحيرة، والقلق سيطرت على الحياة في سوريّة بشكل عام، الدماء في درعا على عرض الشارع تسيل، قوّات الأمن تندفعّ بقوّة وعُنف كبير لمحاولة السّيطرة على التظاهرات

ومنعها، الدائرة تتّسع يومًا بعد يوم ولم يفلحوا، استقدموا قوّات حفظ النّظام من محافظات دمشق والسويداء المجاورة لدرعا.

تزداد القوات عنفًا، وتتزايد وتيرة خروج النّاس، وبعد أيّام دخلت قوّات النخبة في الجيش السوريّ (الحرس الجمهوريّ) بتشكيلها الأبرز هي الفرقة الرابعة بقيادة الأخ الأصغر للرّئيس، التقديرات المبدئيّة - في هذه الفترة - للقوّات التي دخلت المدينة تُشير إلى حوالي ثمانية عشر ألف عسكريّ، يوماً بعد يوم يزداد الحرج للنّظام، هكذا قامت أكبر مظاهرة في المدينة، كان الهُياج الجماهيريّ يتحدّى إطلاق النيران من قوات الأمن بعناد كبير، ما إن وصلت المظاهرة لساحة السَرَاي الحكوميّ القديم، وهو المُستخدم حاليًّا كقصر للعدل، تتركّز فيه المحاكم والنيابة العامّة، حتّى قامت مجموعة مجهولة من الشباب بالاعتداء على المبنى بالتكسير والتخريب، وإضرام النار في أقسام المبني، وحرق السراي، وهذه بداية غير مُطمئِنة، التعليقات تأتي من الفضائيّات السوريّة بأنّ هناك عناصر غريبة دخلت المظاهرة، وعاثت الفساد بالمبنى، وبالتكسير والحرق، مُدّعين أنّ هذه العناصر من سُكّان مخيّم درعا للفلسطينيّين، أو أنّها دخلت من دولة مجاورة، بينما يعتقد كثيرون أنّ هذه العناصر المُخرّبة هم من أبناء البلد، مدفوعة من أجهزة الأمن؛ لتبرير استخدامها للعنف، وإثبات نظريّة الإرهاب، والإرهابيّين القادمين من الخارج.

ازداد اللّغط والهرج والمرج، وضبابيّة الرؤية، وعدم اتّضاحها لدى عامّة النّاس، فأصبحوا كالقطيع الهائم على وجهه في دروب الضياع فلا مصداقيّة في الأخبار، المجيّرة لحرف الأنظار عن الحقيقة، والسير بها باتّجاه نظريّة المُؤامرة التي تبنّاها النّظام، منذ ظهور أوّل خبر في وسائل إعلام النظام.

تشكّلت خليّة أمنيّة في درعا، بقيادة مدير مكتب الأمن القوميّ، وعضويّة قيادات الأفرُع الأمنيّة، مع قيادة ضبّاط الحرس الجمهوريّ، إضافة للمحافظ وأمين فرع الحزب، أصبحت هذه الخليّة كمطبخ أمنيّ، في توجيهاته المُباشرة في استخدام القوّة المُفرطة لاستعادة السيطرة على المدينة الثّائرة، ولكي لا تنتقل العدوى لبقية المدن، مضى الزّمن ساعة تِلْوَ ساعة، ويوماً بعد اليوم، مضى الأسبوع الأوّل، ووصلنا للأسبوع الثاني، ولا بارقة أمل لدى القيادة الأمنيّة، والأمور بدأت تَخرُج عن السيطرة، وقيادة الدولة في حَيْرة من أمرها، إلى أن صرنا في اليوم الرابع عشر، فأخبرتنا وسائل الإعلام، بتحديد ذلك اليوم، موعداً لخطاب الرئيس.
بفارغ الصبر، انتظرنا الخطاب، وكأنّه الغيث يأتي للأرض العطشى، ولقلوبنا المُشتعلة بنارها بأنّه سيكون برداً وسلاماً، وتمضي الساعات بطيئة كانت الساعة الحادية عشرة صباحًا، توقّفت الحياة في معظم القطاعات، تسمّرنا أمام شاشات التلفزيون، وأمام أجهزة الرّاديو إلى أن بدأ العرض، في قاعة مجلس الشعب المُجتمع بكامل أعضائه، فما هي إلا دقائق عشر، حتّى دخل الرئيس بطوله الفارع، وبذلته الأنيقة، وضحكته اللامُبالية العريضة، كأنّها اتّسعت للمجلس وأعضائه الواقفين، وهم يُصفّقون بحدّة مُبَالغ فيها بطريقة مُقزّزة؛ جعلت الحسرة تلتهم قلوبنا على هذا الحال، فإذا كانت هذه حالهم، وهم من أُنيطَتْ بهم أعظم المَهمَات في حياة الشعوب، وانطبق عليهم القول:
(مُطبّلين بالدنيا، مُزمّرين بالآخرة).
أو:
(إذا كان ربُّ البيت بالطبل قارعاً = فشيمةُ أهل البيت كلّهم الرّقص).
ساعتها تقدّم الرّئيس بثقة نحو المنصّة، وهو الذي كان يُحاذِر من غضبة أو تذمّر بين أعضاء المجلس، مما يحصل من تجاوزات قوّات

الأمن، لكنّ البداية شجّعته؛ لأن ينفرد بضحكته المُجَلجِلة، وراح يُحَيّي الأعضاء، قابل التّصفيق بالتّصفيق معهم، استمرّت الحال دقائق، تعبوا؛ فسكتوا، وجلسوا، فصاروا كالخُشُبِ المُسنّدة.
بدأ الخطاب العتيد، الفاصل والحاسم، وهو البداية والنهاية، لكلّ ما حدث وما سيحدث في سوريّة، وقد تركّز على محاور ثلاثة، كما جاء على لسان الرئيس: **"بأنّه لا علم له بما حصل، وجرى في درعا، وهناك الجماعات الإرهابيّة التي تُثير الشّغب وتُدمّر الممتلكات العامّة، وإذا فُرِضَت الحرب علينا، فسنقاتل حتّى النّهاية"**.
قوطع الخطابُ عدّة مرّات بالتصفيق الحادّ المدوّي، والهتافات وأعظمها على الإطلاق، من ذلك العضو الغرير: **(يا سيادة الرئيس، إنّ إمكانيّاتك القياديّة أكبرُ من حجم سوريّة بكثير، لذا يجب أن تقود، وتحكم العالم بأسره)**.
خابت آمالنا، أصابنا الفشل، دارت رؤوسنا، ضاقت الدنيا علينا، يبدو أنّنا مُقبِلون على أيّام سوداء، ونار تحرق الأخضر واليابس، كان الخطابُ إذنًا مفتوحاً لقوّات النظام، باستعمال كلّ الطُرق الوحشيّة للسيطرة، فتغيّرت استراتيجيّتها إلى سياسة الأرض المحروقة.
- هزّ أبو فندي رأسه، وهو يقرأ تلك المذّكرات في لقاء آخر لهما، وقال: "سلمت يداك أستاذنا، هذه الكتابة ستعيش لترى النور؛ لأنّها تحكي كلام الناس، ورأي الشّارع المُتَداوَل، وهذا ما لم تأتِ به الفضائيّات الإخباريّة، هي تهتمّ بالخبر وصياغته، حسب طريقة تفكير وتوجّهات من يقودها، كلامُ المواطن العاديّ لا أحد يأتي على ذكره، رغم أنّه يطفح بالمشاعر والأحاسيس".
ويتابع القراءة...أيضاً، وفي يوم آخر، كانت الخطوة بداية، وهي أساس الطريق، فلولا الخطوة لما كان الطريق، لكنّ الطريق ما انفكّ يسائلني عن وجهتي..؟، فأهيمُ على وجهي، ولا أجيب..، يكرّر

سؤاله..؟، السؤال يصير صدًى يعبر أذُني اليُمنى، ويخرج من اليُسرى، كأنّ فؤادي هواء..، وأودية الخوف تبتلع عيوني، ليلٌ مليءٌ بالصخور..، يَسُدُّ كلّ الطرق..، ستتوقفُ وتنتهي عند آخر خُطوة في نهاية الطريق..، فالتراجع أَمَرُّ من الهزيمة، يجب أن نُتابع رغم الضبابيّة وعدم وضوح الرؤية".

- أبو فندي موجّهاً كلامه للمحامي: "ها أنا أغوص في مرامي هذه الكلمات وأبعادها، وأحاول استجلاء ما بين السّطور، لله درّك يا صديقي، ما تكتبه ستقرأه الأجيال القادمة، أشدّ على يديْك وآمَلُ أن تتابع، ولا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وتُسجّلها".

- المحامي: "أشكرك على ثقتك الكبيرة بي، ولأوّل مرّة أستشعر قيمة ما أكتب، وما ذلك إلا بعد سماعي لرأيك".

***

أبو إصبع، استدان ألف ليرة من صديقه أبو طاقيّة، منذ عشرة أيّام توقّف عن العمل في نجارة (الطوبار)، يشكو من قِلّة العمل، وعزوف ممن يملكون المال عن إنشاء الأبنية الجديدة، ومن يُريد أن يتوسّع في بيته ببناء غرفة أو ملحق؛ لإفساح المجال أمام أولاده، أن يجدوا جوًّا ملائمًا من الهدوء مناسبًا للدراسة، يواجه الصعوبات الكبيرة، من فقدان موّاد البناء الأساسيّة كالإسمنت والحديد والرّمل، وإن وُجِدَت لا تُنالُ إلا بأسعار خياليّة، كما أنّ أجور اليد العاملة صارت تُعادل تقريبًا ضِعْفَيْ ما كانت عليه سابقاً، اتّفق الصديقان، أن يذهبا إلى الشّمال باتّجاه السُويْداء، ليبحثا عن عمل لدى مُتَعهّدي المشاريع السكنيّة هُناك، عقدا العزم على أن يلتقيا بعد صلاة الفجر، لانتظار سيّارة عابرة، عند

المقبرة الشرقيّة، بداية طريق السُويْداء المُؤدّي إلى أوّل قُراها، ومن هُناك ركبا الباص، وصولاً إلى وجهتهما، بعد طول سؤال وبحث، من ورشة إلى أخرى، عَثَرا على ضالّتهما، اتّفقا مع أبي فراس المُقاول، على الأجرة اليوميّة ألف ليرة سوريّة، وساعات العمل تبدأ من السّابعة صباحًا إلى الرّابعة مساء، يتخلّلها ساعة استراحة للغداء، عقدا الاتّفاق، ورجعا قاصِدَيْن الكراج، للعودة إلى قريتهم، ها هو قد انتصف النهار، تعامدت الشّمس في كبد السّماء، ما زالا بلا فُطور، في طريقهما مرّا بمطعم فلافل طَلَبَا أربع سندويتشات، اثنتيْن لكلّ واحد منهما، التهماها خلال لحظات مع زجاجتيْ (كازوز)، وَصَلا للكراج، استقلاّ الباص المُتَجّه إلى بلدة مجاورة لقريتهما، بعد نصف ساعة نزلا في وسط البلدة، ثم جاءت سيارة بيك أب عابرة إلى نفس مقصدهما، صعدا قاطرتها، جلسا خلف غرفة السّائق اتّقاء الهواء الشديد المتولّد من السّرعة.

أبو طاقية وأبو إصبع، من طلائع نجّاري (طوبار) الخشب الذين بحثوا باتّجاهات أخرى، عندما توقّفت أعمالهم في قريتهم (**مَوْج**)، مع مُرور الأيّام صارا مُقاوِلَيْ يوميّة، يأخذون من أبي فراس حجماً من العمل لتنفيذه، يتحّتَمُ عليهم إنجازه في وقت قصير ومحدد، هكذا توسّعت أعمالهم، ممّا جعلهم يطلبون عددًا من النجّارين والحدّادين للعمل معهم، مُستفيدين من فارق الأجور المُقتَطَعة من أجور العمّال، إضافة لحصّتِهم التي اتّفقوا أن يقتسموها مُناصفة فيما بينهما، بعد دفع الأجور والمصاريف، هكذا صارت قافلة الدّراجات الناريّة اليوميّة، تنطلقُ بهدير محرّكاتها، قاصدة السويداء في الصباح الباكر، وتعود في المساء، إلى أن نُصِبَتْ الحواجز على الطريق، بدأت المُضايقات، وفي مرّات اعتُقِل العديدُ من العمّال أثناء عُبورهم الحواجز، فمنهم من

أطلق سراحه فوراً بعد التحقيق معه، ومنهم من ذهب ولم يرجع إلا بعد أشهر عديدة، أو لم يَعُد أبدًا إلا وهو ملفوف بقطعة قماش بيضاء.
صارا يسلكان بعض الطرق الترابيّة، تجنّبًا للحواجز المُسبّبة للقلق والخوف، وذهابهم لعملهم يوميّاً يُعتبَر مُجازَفة، ومشكلة حقيقيّة مُرعبة للكثيرين.
قساوة الحياة، ومُتطلّباتها جعلتهم يُخاطرون، مُتحمّلين أعباء السفر اليوميّ على درّاجاتهم الناريّة، فالمسافة طويلة، تعادل المسافة ما بين جيوبهم الفارغة، ورغيف خبز يُشبع خُواء البطون الجائعة، أطفالهم يَحلُمون باللّباس الجميل والألعاب، والحلويّات، والسكاكر، يتساوى الجميع في دوحة الفقر، أحلامهم انخفض مُستواها لتتوقّف على أعتاب لقمة الخبز، تلك هي قصّة بلاد يحكمها جَهَلَه وظَلَمَه، يعيشون أُسارى أسوار قصورهم الفارهة، غارقين في ملذّاتهم، لم يسمعوا بشيء اسمه الشّعب، إلاّ عندما يحتاجونه للتصفيق والتطبيل في مسيرات التأيّيد.

***

شعرت فئات كثيرة من الشعب بالإحباط بعد سماعها الخطاب، حيث كانوا يُعوّلون عليه الكثير، خيبة الأمل جاءت كبيرة؛ الأمر الذي أخرج أبا سمرة عن صمته، رغم أنّه كان محسوباً على المؤيّدين، ويعتبر من البعثيّين القدماء، المُلتزمين بفكر وتوجّهات الحزب، كثيرًا ما كان المُنافِح والمُدافِع عن سياساته.
في ذات اللّيلة ليوم الخطاب، نقلوا عنه تأفّفه وعدم رضاه الكامل عمّا ورد في الخطاب، لأنّه جاء دون المستوى المأمول والمطلوب، كما كان الجميع يتوقّع مُعاقبة مدير الأمن السياسيّ، والمحافظ على الأقلّ،

لأنّهما تسبّبا في تفاقم المُشكلة، التي ستجرّ الوَيْلات على القُطر بشكل عامّ.
قلبُ الأستاذ أبو فهمي تراقَصَ طربًا لِتغيُّر موقف أبي سمرة، عندما رأى مكمن الخطأ، وعدم معالجته بطريقة جديّة، ربّما ستجنّب البلد كوارث عظيمة، قلبه لا يخلو من الشماتة بالحزبيّين الذين خُدِعُوا طيلة هذه الفترة، لكنّه أنصَفَ أبا سمرة، حينما وصفه، بالنّظيف ومن ذوي الضمائر الحيّة، يؤمن بإنسانيّة الإنسان وكرامته، ينطلق أبو فهمي في معاملته وعلاقاته مع الآخرين، بأن **(الخلاف لا يُذهِبُ للودّ قضيّة)**، نادرًا ما يكون هذا المنطلق قناعة عند الكثير من النّاس، فيخلطون الحَابِل بالنَابِل، إذا ما حصل خلاف على شيء بسيط لا أهميّة له.
الأستاذ أبو فهمي نمط آخر من المُثقّفين المُتعمّقين في مجال التّاريخ، وهو تخصصه الجامعيّ، مُتقاعد منذ عشر سنين أو يزيد، قضى ثلاثين عاماً في التعليم، تخرّجت أجيال عديدة على يديْه، يحظى باحترام كبير لدى معظم أهل القرية.
سمع الخطاب بعد طول انتظار، وانتقده بشّدة، وهو المحسوب على المعارضة المُختَفِيَة تحت الأرض، فَسّرَ كلَ كلمة من الخطاب على محمل بعكس الاتَجاه بمئة وثمانين درجة، على نقيض ما فهمه الكثير من المواطنين، وقال: "مع أنّني لم أحبّه، ولا أحبَبْتُ أبَاهُ من قبله، وما نحن فيه الآن، من بطشهما، والظلم الممارس على فئات الشعب، عندما ارتسمت معالمه السوداء منذ الثامن من آذار ١٩٦٣، ها نحن نأكلُ ثماره العجراء، ونتَجَرّع مرارة شظف العيّش والبطش الشديد، دكتاتور كبير استحوذ على البلد بأكمله وغيّبَ الجميع، وكأنّ الشعب لا يعني له إلّا أرقامًا، وتكملة عدد للتصفيق والتطبيل والتزمير فقط، والمسيرات في المناسبات الرسميّة المُبتَكرة، فأصبحت جزءاً من

ذاكرتنا المتآكلة المتهرّئة - تدمع عيناه - ضاعت أعمارنا على بساطيرهم، قرأتُ منطق التاريخ ومساراته.
أيقنتُ أنّ هناك يومٌ مميّزٌ، ليس كسائر الأيام، ربّما لا تجود به السماء على الأرض وأهلها إلا نادرًا، والغُصّة تكادُ تأكلُ قلبي، فكانت أقصى أمنياتي أن لا يأتيني يوم مَنِيّتي، وتبقى الغُصّة في قلبي لترافقني إلى قبري، إلى أن رأيت الجماهير ترفض الظلم، وتهتف بأعلى صوتها... حرية.. حرية.
وهاهي الأزهار تتفتح من جديد، تنثر سُحُبَ النّور في آذار هذا، لتمسح ظلام آذار ذاك..، هيّا إلى النور من جديد، نقلبُ السّحر على السّاحر، وننسف أنفاقَ الظلام المُمتدّة فيما بين ١٩٦٣- ٢٠١١م، تلك هي مسيرة..، وسيرة البُسطار الذي داس كلّ المُقدّسات، وكسر شوكة الأَنَفَة فينا كسوريّين، فها هو آذار صار بوابة للنّور بعد أن كان نَفَقاً للظلام.
وها نحن نقفُ على أعتابه نُغازل أحلامنا الذّاوية على مشارف النّهاية القاتلة".
السهرة لم تكن مختصرة على أبي سمرة، وأبي فهمي، بل كان ثالثهما أبي بطّة، المُناضل الحزبيّ العتيد، منذ أن اختير ليكون عضوًا في الحرس القوميّ في الستّينيّات، أيّام شبابه الذي أفناه في تأدية خَدَمَاته بإخلاص وتفانٍ، وهو من الرعيل الأوّل الذي أرسى قواعد الحزب في المنطقة، نِضالُه لم يشفع له عندما فُصِلَ من تنظيم الحزب، قال: "لا يحقّ لكما أن تنتقدا خطاب السيّد الرّئيس، فأنت يا أبا سمرة، بعثيّ قديم، فما الذي دهاك للخوض مع الخائضين مُنقلباً على نهج القيادة التاريخيّة؟.
كنتَ فيما مضى من أشدّ المُدافعين عنها، وأنت يا أستاذ أبا فهمي، مهما تكلمتَ وقلتَ؛ فالجميع يعلمُ أنّك تنطلق من أفكارك المُبغضة

للنّظام منذ شبابك ولا ألومك، وهم من أبعدوك عن الوظائف الإداريّة، عندما قيّموك، بأنّك رجعيّ من أعدائهم. دخلتَ مُعلّمًا مُعلّمًا وخرجت كما دخلت، ولم تُتَحْ لك الفرصة لترتقي أكثر من ذلك".

- أبو سمرة يرد على صديقه أبي بطّة: "يا صديقي، الظروف تغيّرت، والحياة تطوّرت، فهل تظنّ أنّنا لا زلنا في الستينيّات؟، فما تعني لنا الآن تلك الشعارات (الوحدة، والحريّة، والاشتراكيّة) عندما نادى بها الحزب، ألا ترى أنّه لم يُطَبّق شيء منها في دنيا الواقع؟.

وبقيتْ حبراً على ورق، و(كليشة) يتشدّقون بها، وأنّ الحزب سُرِقَ من العسكريّين عندما وصلوا لسدّة الحكم من خلاله، وجيّروا كلّ شيء من أجل الدكتاتوريّة العسكريّة، منذ بداية منتصف السبعينيّات، اكتشفتُ الكثير، وعملتُ مراجعة ذاتيّة، وقررتُ التوقّفَ عند ذلك، مُبتَعِداً عنهم قاصداً تعديل مساري، ومنذ ذلك طالبوني بتنفيذ مهمّات كثيرة، اعتذرتُ منهم بسبب وضعي الصحيّ، أخيرًا (قرفوا منّي)، واعتبرُوني عِبئاً ثقيلاً عليهم، وفصلوني، فاستراحوا وأراحوا، كان عليّ أن أشكرهم".

التقط أبو سمرة أنفاسه، بعد نوبة سعال مُزمِن؛ فكانت فرصة الأستاذ أبي فهمي، لِيُدْلي برأيه الذي لم يَرُقْ لصديقه أبي بطة: "بالنسبة لي أنا، وقبل كل شيء، أنا سوريٌّ، أعتقد أن سوريّة تجمعنا، وأكبر خطأ قاموا به، تصنيف الناس من منطلق إذا لم تكن معنا فأنت عدوّ لنا، وقسّموا الناس إلى تقدميّ ورجعيّ، فهل لك أن تتقبّلَ رأيي الصريح بفجاجته الفاضحة؟.

وماذا فعل التقدميّ، سوى أن قدّم الجولان على طبق من ذهب لليهود؟.

وهل من أراد أن يُحافظ على الأصالة مع قبول التغييرات والمؤثّرات والتطوّرات، بما لا يُغيّر ثوابتنا، يُصنّف بالرجعيّة؟. وهي التي أصبحت سُبّة وعلامة للتخلّف والجُمود، وبالتالي قرّبوا الكذّابين

والأفّاقين والدجّالين، وحرَمُوا الوطن من الكفاءات والطاقات الجبّارة؛ فالولاء لهم أوّلًا، وإن كان الشّخص غبيًّا وجاهلًا وانتهازيًّا".
تدمع عيناه، يغيب صوته مُختَنِقاً في حالة نشيج عميق، كَتَمَتْهُ الغُصّة.
يتلجلج الردّ على لسان أبي بطّة، ووجهه مُكفَهّر كرغيف خبز محروق، بَدَتْ عليه أمارات الضّيق، وغابت ملامحه بدخان سيجارته، وهو يرتشف فنجان قهوته مرّة واحدة، أخذتهُ العزّة بالإثم، فلم يطاوعه ضميره المُتَكَلّس لأنْ يتعاطف مع صديقيْه، ويتراجع عن خطأ أفكاره تكفيراً عن ماضيه، رغم تأيّيده لكلامهما في سِرِّهْ.
لا تنقضي الجلسات، واللقاءات فيما بين عامّة الناس في القرية، ما بين مُؤيّد ومعارض ومُنَظّر، ومن لا موقف له، وهو كمن قيل فيه:
(معاهُم معاهم ..، عليهم عليهم).
المحامي خالد يدوّن ما يتنامى إلى سمعه، عندما سأله أبو فندي: "أستاذ، ما دمتَ تُسجِّل هذا الكَمّ الهائل من الأشياء الصغيرة والكبيرة، فيبدو لي أنّها مشروع كتاب توثيقيٍّ، فيما لو أردتَ طباعته مستقبلاً، فما الاسم الذي تختاره له؟".
- المحامي: "تراتيل الثورة ..".
- أبو فندي هزّ رأسه، حرّك حاجبيْه للأعلى، علامة التعجّب والاستحسان. وأردف: "أوه ..!!، اسمٌ عظيم، هذا الجهد يعتبر سِفْرًا رائعًا وصادقًا، تستحقّ هذه التراتيل أن تُقرأ على مدار الأيّام، ممن يأتي من بعدنا، ويريدُ معرفة ما حصل عن هذه الفترة التي نعيش فيها بصدق وأمانة، كما سيصبح قاعدة بيانات للدّارسين والمؤرّخين مُستقبَلاً ..".

***

مجموعة من عجائز الحارة، بعد العصر جِئْنَ للتسلية عند الحجّة جواهر، والاطمئنان عن صحتها، بعد شُيُوع نبأ دخولها المستشفى، وعودتها بعد يومين قضتهُما هناك؛ لتخفيض معدل السُكّر المفاجئ بصعوده، عندما ارتفع بشدّة إلى معدل ٤٠٠ درجة تركها في غيبوبة، مترافقًا مع ارتفاع ضغط الدمّ، أعطاها الأطبّاء الأدوية اللّازمة؛ فاستقرّت حالتها، وانخفضت المُعدّلات إلى حَدّها الطبيعيّ، وأصبحت بحالة جيّدة، عندها سمحوا بعودتها إلى بيتها.

أمّ سلامة تتّكِئ على عُكازتها، تنقل رجلها اليمنى لتحُطّ اليُسرى بجانبها بِتُؤَدَة، كسُلحفاةٍ تدبّ على الأرض لبلوغ مأربها، ملامح وجهها الموشوم على أطرف ذقنها، وأخاديد الزمان حفرت مساربها على جبينها، تضحكُ ملء فِيهَا الأدْرَدْ، كحجر طاحون أملس ممسوح الأطراف الناتئة، بعدما ألقَتِ التَحيّة اتّخذت مكانها، بجانب الحجّة جواهر.

قالت: "من يومين أو ثلاثة، اتّصلت مُعَلّمة الصفّ الثّالث، تشتكي لابنتي، ابنَها واسمه بشّار.

فعندما سألته المُعلّمة عن اسمه، رفض الإجابة على سؤالها، وقد ألحّت عليه بالإجابة، ولم يُفلِح تهديدها ووعيدها، بإثنائه عن عناده". سادت فترة صمت في الصفّ.

أخيراً بعد تردّده فاجأ المعلمة، وأجابها على سؤالها: "اسمي بشّار، وأنا لا أحبّ اسمي، سأطلب من أبي تغيّيره، لأنّه نفس اسم الرّئيس، وأنا لا أحبُّه لأنّه عذّب وقتل أطفال درعا".

تجمّدت الكلمات على لسان المُعلّمة، أحرجها الموقف الجريء لدى هذا الطفل، وإحساسه العميق بما يحصل في البلد بشكل عامّ، ومعرفته

السّابِقة عمره بمسافات، لفلفتِ المُعلّمة الموضوع خوفاً من المساءلة المُحْرِجة لها، إذا ما وصل الموضوع للإدارة.
ساعتها لن تتسَتّر على مثل ذلك أبداً. لخطورة التكتّم، وربّما لن يتوقّف الموضوع عند هذا الحدّ، خاصّة إذا طُلِبَت للتحقيق عند أحد الأفرُع الأمنيّة..، وفهمكنّ كفاية".
- استلمت أمّ قدّورة طرف الحديث قائلة، بعد أن ضحكت على قصّة أمّ سلامة، واعتبرتها نُكتَةً: "ها نحن مُرتاحُون، وأحسن من هَيْك عيشة ما في أبداً، يعني هِيّ الحريّة زائدة، صار فينا مثل **(الدجاجة التي حفرت، وعلى رأسها عَفِرَتْ)**، وما الذي سنكسبه زيادة على ما نحن فيه؟.
تضرب كفّا بكفّ، وتَختم بمقولتها الشهيرة - يا ويلي - الله يجيرنا من الأعظم".
- "والله قالوا إنّ الرّئيس لا يرضى عمّا يحصل عندنا، مثلما تعرفْنَ أنّه جيّد، وشاب مُتفتّح، وطبيب دارس عند الإنكليز هَيْك قالوا، لكن **(الرَزَالة ممّنْ هُمْ حَواليْه)**، سمعتُ منذ أيّام أنّه اتّخذ قرارات بالإصلاح، وزيادة الرواتب، ماذا نريد أكثر من ذلك؟، الله ينصره ويقويه".
بهذا عبّرت (أمّ كرمو)، عما تعتقد أنّه الصحيح، هي قد تجاوزت السبعين من عمرها، وما زالت صحتّها مُتميّزة بنشاطها العام، لطالما حسدنها نساء الحارة على ذلك.
- تَمتَعِضُ الحجّة جواهر من آراء صديقاتها، هداك الله يا أمّ كرمو، أَتَدْعِين للرّئيس بالنصر، فعلى من ينصره ويُقوّيه؟. أتقصدينَ أن ينصرَهُ اللهُ علينا؟، حرامٌ عليك يا شيخة".
- تردّ أم قدّورة - لتنقذ الموقف -: "لا.. يا حجّة، قصدها على أعدائه".

لكي تبتعد بأمّ محمد من انتقادها لأمّ كرمو، وترطيب الأجواء؛ فجاء تدخّلها ليزيد الطين بلّة، فكانت كما قيل: **(جاءت لتُكَحِّلَها .. فَعَمَتْها)**، حاولت جاهدة الخروج من حراجة الموقف.

- الحجّة جواهر: "ومن هُمْ أعداؤه؟، وهل له عدوّ غيرنا؟، بالنسبة لنا بعدما بانت الأمور على حقيقتها، ما حصل عندنا في درعا، أنا أضفتُه إلى قائمة أعدائنا، وهذا الحكي صار مفهومًا لدى الصغير والكبير فينا، وتبيّن لي أن الصّغار يفهمون أكثر منّا نحن الكبار، مثلما حصل مع حفيد أمّ سلامة الله يحميه لأهله".

أمّ حسنين، لا زالت تستمع بإنصات واهتمام لكلّ ما قيل، والغيظ يملأ قلبها قيْحاً مما سمعته من كلام صديقاتها المُحَبّبات إلى نفسها، نادراً ما يفترقن كأنّهن مُتلازمة وضرورة.

رغم محاولاتها كَتْمَ مشاعرها الغاضبة، وهذه من شِيَمِها المعروفة، فلا تحبّ أن تُسبّب ألمًا أو حزنًا لأيّ إنسان. فقالت: "أوّلًا نحن جئنا لتهنئة الحجّة أمّ محمد بسلامتها، ولا أحبّ أن نُسبّب لها الضجر والكدر من زيارتنا، ألا ترَوْنَ أنّ الحُمّى أصابتنا جميعًا، كلّ مجالسنا لا تخلو من السياسة التي فرّقتنا إلى مُؤيّدين ومُعارضين، فلا المؤيّد من أمثالنا يعرفُ لِمَ هو مُؤيّد، ولا المعارض يعلمُ لِمَ هو معارض، ها نحن قاطعنا بعضنا بعضاً.

حتىّ أنّ إلقاء التحيّة والسلام فيما بين الجيران قد افتقدناه، ومما يزيد الطين بِلّةً أنّ بعض العائلات انقسمت إلى نقيضيْن مُتناقضيْن في توجُّهاتهم، لله المُشْتَكي من قبلُ ومن بَعْدُ".

***

دخلت أمّ فندي، وبيدها إبريق الشاي والكاسات، ورحّبت ترحابًا حارّاً بالجارات الغاليات على قلب حَمَاتِها، هي تحترمُ إرادة حَمَاتها بكلّ ما تحبّه وتريده، وهو بالتالي مُحترَمٌ لديْها كاحترامها لوالديْها، وتنال رضا الحجّة بشكل كامل، ولا تتوانى الحجّة عن مدحها أمام صديقاتها العجائز اللائي يستغربن هذا المديح غير المسبوق من الحموات للكنّات.
بالطبع هذا صفاء نادر، أبا فندي مطمئنٌّ لمتانة الجبهة الداخليّة؛ مما أتاح له الفرصة للانطلاق للآخرين بلا عوائق، عائلته كصندوق مغلق أمام المُتطفّلين من الجيران والأقارب.
تبدّل مسار الحديث فيما بينهنّ، إلى شؤون البيوت والطبخ، والإشارة لانقطاع الكهرباء والهواتف الأرضيّة الذي استمرّ لأيّام عديدة بلا سابق إنذار، كما أنّ شبكة الهاتف النقّال (الموبايلات) تغيب تغطيتها لفترات طويلة بفعل فاعل، والغلاء اجتاح الأسواق فارتفعت أسعار الموادّ الغذائيّة خاصّة، مع تناقُص كميّاتها بسرعة ملحوظة، حيثُ أنّ النّاس وقعوا في حمّى الشراء، والمحلّات لم يعُد يأتيها الموزّعون.

***

للمرّة الأولى في حياته، شعر أبو فندي أنّ طريق عودته من المزرعة إلى البيت، كأنّه تطاول بمسافته ويأبى أن ينتهي، بدا كشريط ذكريات على امتداد ساحة العمر، كأحلام تفرش أجنحتها، تُغطّي بظلالها ما بين خافِقَيْ الكون، رغم أنّ المسافة لا تتعدّى العشرة كيلو مترات، إلّا أنّه أيقن بأنّ هذه المسافة تُعادل مسيرته الحياتيّة، أفكاره تتجاذبه شرقاً وغرباً، يتكهّن بطلبات أبي رستم، لكنّ قلبه مطمئنّ؛ لأنّ صديقه خالد الهنيدي المحامي، على علم مُسبَق بقصّة الاتّصال سبب حيرته وخوفه، الظروف اختلفت كثيراً عمّا سبق، فالصالح يذهب

بِحُجّة الطّالح، الإنسان لا يُساوي أكثر من ثمن الرّصاصة فقط، فلا يحتاج إلّا لوشاية مُنْدَّسٍ جَبَان.
تدمع عيناه من الهواء المندفِع بفعل سرعة الدرّاجة؛ فيسحبُ الدموع باتّجاه أذُنيْه، مشاعر الألم تعتَصِر خلايا جسمه كافّة.
ألهذا الحدّ دَمُنَا رخيص؟.
فالدم لا يجرّ إلاّ الدمّ.
والقطرةُ تجرّ الأوْشال.
وهل الأمجاد تحتاج دِمَاء كثيرة؟.
وهل الأوطان عطشى لدماء أبنائها؟.
يدخل البيت، وهو لا يشعر بنفسه، لاقَتْهُ زوجته بوجهها دائِم البِشْر، وابتسامتها المعهودة المُريحة للنفس، تُزيح الأعباء عن القلب، ومفتاح لأفق مُشرق جديد.
استبشر خيرًا بعد أن اتّكأ على الأريكة في المضافة، فما إن امتدّت يده إلى عُلبة السجائر، حتى اقتحمت رائحة القهوة الموقف بشدّة، لا يستطيعُ مقاومتها، الفنجان بين يديْه، يتوق لاحتسائها صباحًا ومساءً منذ زمن طويل، و لايرفضها في أيّ وقت حان.
استخرج رقم أبي رستم من قائمة (الموبايل)، سحب نفسًا عميقًا على سيجارته، أتبعها بجُرعَة من فنجانه، استعدَّ نفسيًّا مُسْتجمعًا قُواهُ، ضغط بسبّابته على زرّ الاتّصال، بعد ثلاث رنّات.
- أتاه صوت أبي رستم الأجشّ: "أهلا أبا فندي، كيفْكِنْ (إوْلُوْ)، وينْكِنْ مِخْتَفين. طمنّي عن الأولاد".
- أبو فندي: "أهلا بك سيادة المُساعد، فور عودتي للبيت الآن، أخبرتني زوجتي أنّك اتّصلت بي، آسف، من سوء حظّي أنّني كنت في المزرعة، ونسيتُ (الموبايل) في البيت، أرجو عدم المؤاخذة".

- أبو رستم: "لا تهتمّ، الأمر عاديّ جدًّا، يا أبا فندي كنّا دايخين على زيت زيتون طيّب، وانقطعنا في البيت، ولا زلنا في أوّل الشهر، والراتب كما تعلم طار من أوّل أسبوع.
قلتُ لنفسي لا يُنقذني إلا الغالي أبو فندي، و(**الصديق وقت الضيق**)، مو هَيْك؟".
- أبو فندي: "أهلا وسهلاً، اعتبرْ أنّها صارت في البيت، من فترة قريبة كنتُ أحدّث نفسي أن أُهديك تنكة من مُونَةِ العَيْلة، ولكن خِفْتُ أن تَكْسِفَني، أو أن تُفَسّر على منحًى آخر".
- أبو رستم: "أشكُرُك من قلبي حبيبي، أنا أنتظرك بالبيت، هاتْها معاك على (الماتور)، ولا تتأخّر لديّ من الوقت حوالي ساعة فقط في البيت، عاوْزَك في موضوع هامّ، رجاء أن لا تتأخّر".
- أبو فندي: "أخَذَ نَفَساً عميقاً، انزاح الحِمْلُ الثقيل عن كاهله، وهو يستمع للهجة أبي رستم غير المُتوقّعة، استذكر ذلك اليوم عندما رآه كالشيطان، قبيح المنظر كريه الحضور مثل وحش كاسر، قام من فوره إلى المستودع، وأحضر تنكة الزّيت، ربطها على منصب الماتور؛ انطلق فوراً؛ ليخرج من دوّامة استغراقه على مدار الساعة، ولسان حاله يردّد: "لا اعتراض لي، إلاّ على من باع...".
ودّعتْهُ زوجته، وهي تدعو الله أن يحفظه، ويبعد عنه أولاد الحرام.

***

رغم الاستنفار العالي الدرجة في دوام أبي رستم، فإنّه في معظم وقته قابع في مكتبه، يتلقّى التعليمات من الفرع، ويستمع باهتمام لمكالمات المُخبرين، ويُدوّن رؤوس الأقلام، ويُعيد صِياغتها في تقارير، ربّما تكونُ عاجلة؛ فيرسلها مباشرة على (الفاكس)، لأهميّتها فلا مجال لتأجيلها للبريد العادي، وينتظر تلقّي أوامر سريعة بشأنها،

كذلك مُراقبته عمل الدوريّات ليلاً ونهاراً، وقراءة تقارير المُخبرين التي تأتيه، وتلخيصها ورفعها للفرع لاتّخاذ الإجراء المناسب بخصوصها، في أحيان كثيرة يخرج مع دوريّات مُدَاهَمَة البُيوت للقبض على المطلوبين، أو نصب حواجز طيّارة على الطرقات بشكل مفاجئ للعابرين، والتفتيش الدقيق على الأسماء والأغراض.

كلّ ذلك يجعله لا يذهب لبيته إلا في النّهار لمدّة ساعتين فقط؛ لتبديل ملابسه والاستحمام ورؤية عائلته.

لكنّه استقبل أبا فندي بسرور مُنقطع النظير، ورحّب به، ومن فوره استلم تنكة الزيت، وطلب القهوة مباشرة اختصارًا للوقت الضيّق بدقائقه، وهي تنقضي بسرعة.

وقال: "أنت كبير بعيني يا أبا فندي، رغم عدم تعاوُنَكَ معنا، لكنّني أحترَمُك بكلّ صراحة؛ لأنّني أحبّ الرجل، وكما تعلم الرجال قلائل في هذه الأيّام، فالكبير كبير، والخسيس خسيس من يوم يومه.

والله للمرّة الأولى أقولها، ومن قلبي بلا مواربة أنّني لا أحب (اللقلوق) الرّخيص بل أحتقِرَهُ، أشدّ أنواع الاحتقار، لكنّها ضرورة عملي تفرض عليّ التعامل معهم، كما تعلم لا أستطيع التقصير فيه، فالمطلوب منّا كثير وأكبر من طاقتنا، والعينُ علينا".

تفاجأ أبو فندي بكلام أبي رستم، توقّف عقله عن التفكير لهذه الصراحة، انعقد لسانه عن الكلام، بقي يهزّ رأسه علامة المُنصِت بانتباه شديد، والمُصَدِّق لما يُقال.

- تابع أبو رستم: "(خيّوه)، بلا مُقدّمات، عندي اطّلاع كامل على سيرتك من يوم مولدك إلى هذه اللّحظة، وأنت تجلس أمامي، أعرف من أنت حقيقة، وأعرف وزنَك في المجتمع، واحترام الجميع لك، لاستقامتك وصدقك، أريدُ منك المساعدة، فقد وصلتني إخباريّات

مُؤكّدة أنّ الدوائر الرسمية في قريتنا **(مَوْج)** ممكن أن تتعرّض للتخريب أو الحرق.
نحن نريد أن نتعاون على حماية الممتلكات العامّة، خاصّة الدوائر الرسميّة، عليك أن تجمع ممّن تقدر من أصحابك وأصدقائك ومعارفك؛ لتشكيل دروع بشريّة، لصدّ اقتحام المتظاهرين لها إذا ما حصل، ويًحتمل أن يحصل تخريب وتكسير، وعبث بمحتوياتها، خاصّة مع انطلاق المظاهرة بعد صلاة الجمعة، والأعداد في ازدياد مستمرّ، وجرأة لم أكن أتخيّلها.
يا إلهي، أين ذهب الخوف فجأة؟.
أرجو أن لا تعتبر ذلك أمرًا، ولا تفهمه بهذه الطريقة، بل طلب من أخ مخلص لك، كما أنت مُخلِص لأهلك وبلدك، هذا ما عندي، ولا طلب لي عندك غير ذلك".
تطلّعَ إلى السّاعة، ونظر إلى فنجان القهوة الفارغ أمام أبي فندي، استأذنك لضيق وقتي، عليّ تجهيز نفسي لليلة طويلة، يمتدّ فيها دوامي حتّى ظهر يوم غد، مُؤكّد أنّ الأمر سيبقى سريًّا بيننا، ربّما يلحقني الضرر، ثقتي بأمانتك لا حدود لها".

***

قام أبو فندي مستأذنًا بالانصراف، متشكّرًا على الضيافة، وحُسن الاستقبال، والثقة الكبيرة التي أولاها له أبو رستم، والاحترام.
- أبو فندي، قبل انصرافه، صافح أبا رستم مُوَدّعاً إيّاه. وقال: "البلد بلدنا، من واجبنا جميعاً المحافظة عليها، من الممكن أن تكون قد عرفتَ، ما قمتُ به مع مجموعة من الشباب المُخلصين من أبناء قرية (مَوْج) في الجُمُعَة الماضية أمام الناحية، حينما حاول بعض الغوغاء

اقتحامها، عندما شكّلنا دِرْعًا صدّ تقدّمهم، وأرجعناهم، ومشينا بهم إلى ساحة القرية، وصارت صلاة الغائب على الشهداء، وكان ذلك امتصاصاً ناجحاً لغضبهم".

- هزّ أبو رستم رأسه إيجاباً علامة الرضا، قدّم شكره على الهدية: "لن أنسى معروفك يا أبا فندي، وقد أصبح بيننا عيش وملح، ولا يخونهما إلا ابن الحرام، ربّي يقدّرني على مكافأتك ما حَيِيتُ".

***

انطلق أبو فندي، وهو يتفكّر بكلام أبي رستم، مُحَلّلًا ومُرَكِّبًا، اختلط عليه الأمر، راح يغوصُ منقِّباً في احتمالات وفرضيّات كثيرة.

هل وقعتُ في فخّ أبي رستم من حيث لا أدري، واستدرجني بطريقة ذكيّة، إلى ما يريد؟.

وهل هو صادق أم دجال مُتَخَفٍّ تحت ستار الصدق؟.

وهل هو مُجبَرٌ على الإفصاح عن مشاعره بهذا الوضوح أمامي؟. قلّب في ذهنه جميع الاحتمالات، لسيرة مثل هؤلاء الناس، وما يعرفه عن أنانيّتهم، وتقديم مصلحتهم الشخصيّة على كلّ شيء في حياتهم الوظيفيّة.

فلا مكان فيها للاستقامة والأخلاق إلا ما نَدَر، ولكلّ قاعدة شواذّ، ولعلّ أبا رستم هو من شواذّ هذه القاعدة، ربّي لا تُخيّب ظنّي به، وتجعلني من المخدوعين به".

سَرَحَ به ذهنه إلى قبل ليلتَيْن، والأفعى التي أخافته. قال لنفسه: "ثبتَتِ الرُؤيَا بالدليل القاطع، وصدق تفسير والدتي، وصديقي أحمد التونسيّ.

لا أستبعدُ أن يكون أبو رستم صادقًا، أو أنّه بالفعل لم يجد في هذه القرية شخصاً، رغم معرفته بجميع رجال القرية كي يثق به ليفتح له

قلبه، ويرتاح له بالفضفضة كما ادّعى إلّا لي، وكما أرى أنّها حالة تحتاج لصحوة ضمير".
وما زال يُقلّب أفكاره، محاولاً الاستقرار على رأي مُعيّن، إلى أن وصل إلى دار المحامي، الذي خرج قبل نصف ساعة لقضاء بعض مشاغله الكثيرة، حسب ما أخبره ابن المحامي الصغير.
تابع مسيره لبيته بشُرودٍ مُدهِش، لم يَعِ شيئًا مما رأى وشاهد في طريقه، أثناء ذهابه وإيّابه، ولم يذكر من صادف وألقى السّلام عليهم، سباحةٌ في خِضَمّ هادر تلجلجت فيه عواطفه، ما بين مُصدّق ومُكذّب، ما بين صحوٍ وحُلُم.
لم تَرْسُ هواجسه على ساحل يرتاح فيه مما صدَمه، واستحوذ على مشاعره المشتّتة، ولم يستطع السيطرة عليها، أو استعادة سكونها وهدوئها.
طيف أبي رستم رافقه إلى بيته، حاول الخروج من حالته، نظراته مُتسارعة لمحيطه، لم تتوقّف لحظة واحدة للتأكّد عن ماهيّة أيّ شيء.
ساعتها تأوّه من أعماقه، وهو يتلمّس الخاتم على إصبعه، وتذكّر الشيء الوحيد من مشواره فقط. هي نظرات أبي رستم المركزّة على الخاتم.
"فماذا لو أنّه طلبه منّي؟. بكلّ تأكيد سأكون مُحرَجاً أمامه، لأنّ اعتذاري سيكون خياري الوحيد والذي لا بُدّ منه، أخذتُ عهدًا على نفسي منذ ذلك اليوم؛ بعدم التفريط به مهما كان الأمر".
ساورته الهواجس مُجدّدًا، وهو مستلقٍ على ظهره؛ لتنقطع سلسلتها بدخول زوجته أمّ فندي، حاملة إبريق القَهوة المُرّة النحاسيّ الأصفر.
اعتدل جالساً، وتناول من يدها فنجان القهوة، راح يرتشفه، سرحت بها تداعيات الأفكار، بتركيز شديد، وهي تتأمّل ملامح وجهه، وهو يحدّثها عن لقائه الذي أقلقه وتوقّعاته التي كانت، استبشرت خيراً، ارتسمت

بسمةٌ على مُحيّاها، تنهّدت بعمق كأنما انزاح عن كاهلها حملٌ ثقيل. وقالت: "أنت مَرْضِيّ الوَالدَيْن، يا محمد".
كانت فرصة ذهبيّة؛ ليجلسا معاً على انفراد، كأنّهما على شاطىء بحر العمر الهادئ، أمواجٌ متلاطمة أنتجتها تيّارات هوائيّة عاتية، باعدت قليلاً بين مشاعرهما، والأحداث المُتسارعة شغلت بال الجميع.
تابعت كلامها: "أثناء ترتيب غرفة نومِنا، فتحتُ الخِزانةَ وتفقّدتُ مُحتوياتها، غمرتني الفرحة، ورجعتُ لأيّام زواجنا الأولى، وأنا أحملُ بَدْلتَكَ التي لَبِسْتَهَا يوم زفافنا، وفستاني الأبيض.
أوووه ..!!، يا الله ما أعظم هذه المشاعر والأحاسيس، يومها كنّا صغاراً، لا نتطلّع إلّا ليومنا الذي نحن فيه، وكم تغيّرت الحياة، وددتُ لو استطعنا، أن نستذكر معًا ذاك اليوم الجميل، لا بل الأجمل في حياتنا كلّها، تباعد الزمان به عنّا، وما زالت ذكراهُ تؤجّج الحبّ في قلبيْنا، وتجدّد رغبتنا في مواصلة الحياة، آملًا توأمته مع أيّام قادمة، إذا انتهى الحبّ توقّفت الحياة، والأرجح أن تنسدّ آفاقها وتكون بحكم القبر بظلامها وقسوتها.
سؤال دائم يُراوني عن ذلك اليوم: ماذا يعني لنا بدلالته؟".
- ضحك غصبًا عنه، ولو خُيّر في ذلك، لما انحاز له أبدًا، ولم يستطع تجاهل سؤالها: " يعني لنا الكثير، يا حبيبتي".

***

فَهِمَ القصد من كلامها، تذكّر بأنّه يوم ذكرى زواجهما الخامس والعشرين، مُستعرضاً شريطاً مليئاً بالحب، والأيّام البهيجة طيبة الذكر فهي لا تُنسى، اندفع باتّجاهها بحركة لا إراديّة، وجذبها إليه، ضامّاً صدرها إلى صدره، تبادَلا القُبَلْ المسروقة من قساوة الواقع المؤلم، وكأنّ خُيوط العنكبوت المتشابكة تُطَوِّق أيّامهما، غفلا عن نفسَيْهما

ساعة من الزمن مستسلميْن للظرف الطارىء الهادىء، بلا ضجيج من الأولاد، وهم يُتابعون كتابة واجباتهم الدراسيّة، منهم من يتابع برامج الأطفال، متسمّرين أمام التلفاز منسجمين بكُلّيتهم بمشاهدتها، فيصمتون بهدوء، تخلّله هدير مولّدة الكهرباء التي يشترك فيها أبو فندي مع جيرانه. وغابا هما في لُجّة الحُبِّ لبعض الوقت.

- عاد أبو فندي من غيبوته، وراح يقول: "تجاعيد الأيّام تستثمر وساختها في تلويث حياتنا، سُيوفُ الظلام تقطع دروباً أحْبَبناها من أيَام زمان، لتمنع تلاقينا، صقيعٌ قُطبيّ يجتاح عواطفنا؛ ليقطف ربيع سعادتنا؛ ويُحيلها مُتصحّرة جافّة بلا رحمة، حرارة الصيف لن تزيل تراكمات أثقلت قلوبنا، ذاكرتنا أصابها النّعاس، سامحيني.. حبيبتي، فالمصائب تَغزوني من كلّ حدَبٍ وصَوْب، غارة تِلْوَ غارة، فلا تَدَع مجالًا لالتقاط أنفاسي المقهورة، جرعات الحزن كبيرة، أتْخَمَتْ شهيَّةَ الحياة في قلبي، فَكُونِي لي خديجة بصدرها الحنون، وامسحي بلمسةِ يدك الرّوْعَ عن صفحات نفسي، ولتكن كلماتك زوّادتي أمْلَأ منها جَعْبَتي، وهمساتكِ أوكسجين عَقْلي ونَفسي؛ كي لا تضيع معالم طريقي...".

هزّت رأسها بإعجاب مدهش بروعة اللّحظة المُقتنَصَة قَسراً من السِّياق بلا تخطيط مُسبَق، تاهت بخُيلاء من صدق كلامه المُسكِر لمشاعرها البلوريّة، الشفيفة كَنَدى الصباح، ابتسمتْ.

انتصب قوامها الممشوق كحوريّة؛ قاصدة المطبخ لتحضير الغداء، بينما أفاقت على نفسها، وهي تقف أمام حَماتها أمّ محمد في غرفتها، انتبهتْ..، الارتباكُ بدا على وجهها احمراراً كشفق الأصيل.

- بادرتها الحجّة أم محمد: "ادخلي .. يا حبيبتي".

- أم فندي: "شيءٌ ما بداخلي، قادَني إليكِ، وكأنّني أحسستُ أنّك تريدين أن أحضر لك طلباً ما، أنا قلبي دليلي".

- حماتها: "في الحقيقة، كنتُ أريدُ زجاجة ماء بارد، فلا أستسيغ الساخنة، كَبِدِي لا يُطيقها".
- أم فندي: "حاضر يا حَمَاتي..، سأرسلها لك حالاً، رجعت قافِلَةً إلى المطبخ".

***

عاد أبو فندي لاستلقائه، مُسترجعاً كلمات الخطاب التاريخيّ للرّئيس إلى ساحة ذهنه، غاب في مَتَاهة التحليلات للمحاور التي ارتكز عليها، من ساعتها أيقنَ في قرارة نفسه، أنّ الثّورة ستُسْرَق من أصحابها، وتنحرفُ بطريقها، ورؤيتها إلى وجهة غير وجهتها الحقيقيّة، وسَتَصبُّ الويلات على الجميع.
غَفَتْ عيناه، أخذته سِنَةٌ من النوم، فرأى فيما يرى النّائم أنّ جُموعًا غفيرة غاضبة هائجة، تهتف بمقولته التي طالما ردّدها: **"لا عتب لي إلاّ على من باع .."**.
الشمس مالت باتّجاه مأواها، تستأذن الكون بالذهاب، غطّ في نومه العميق، تركته زوجته ليستريح من الإرهاق والتعب، فالمهموم لا يجد للرّاحة سبيلًا، إلاّ إذا أحسّ أنّ من حوله من أهل بيته وأصدقائه وأهل القرية جميعا مثله أو معه، فإذا **(كثُرتْ همومك، نَمْ لها)**، وهذا ما شعر به أبو فندي خلال هذه الفترة، والنوم راحة واستراحة.
- رنينُ (الموبايل) بجانب رأسه، كسر الغفوة، وقطع عليه مُتابعة رؤية المظاهرات والهتافات، ليأتيه صوت صديقه المحامي، وهو على انتظار اللّقاء بينهما على أحرّ من الجمر: "أهلا بك، أين أنت يا رجل؟".
- أبو فندي: "مررتُ عليك مباشرة بعد عودتي، لكنّ ابنك أخبرني بخروجك من البيت، جميل جدّاً أنّك اتّصلتَ. لا .. لا أبداً، لم تزعجني،

أنا بانتظارك. حاضر ولايهمّك أبدًا..، القهوة ستكون جاهزة عند وصولك، لا لنْ تتأخّر عندي، بأمان الله".
أغلق الموبايل، أخبر أمّ فندي بتحضير فنجان قهوة خاصّ للمحامي، وما إن بدأ غليان دلّة القهوة، حتّى بدأ طرق على باب البيت، مشى أبو فندي لفتح باب المَضافة، مُرَحِّبا بصديقه، البشاشة تعلو وجهه، مُبْتَسِماً، يدعوه للدخول: "أهلاً وسهلاً".
- المحامي: "يا أخي كيف لنا أن نرتاح؟. ومشاكل النّاس تتكاثر ولا تنتهي، مُقْتَحِمة علينا خصوصيّة حياتنا، مُستبيحة لراحتنا، الله يساعدني عليهم، المهمّ هاتِ أخبرني، **(من طَقْطَقْ للسّلام عليكم)**".
تناول أبو فندي صينيّة القهوة من زوجته، وقدّمها لصديقه، حيث كان باشتياق لأوّل رشفة سريعة مباشرة، أشعل سيجارتين واحدة له، والأخرى لأبي فندي، الذي راح يسردُ دقائق جلسته مع أبي رستم.
- المحامي: "جميل جدّاً، أوافقك على أنّها لحظة حقيقيّة، ووقوفٌ مع الذات بالنسبة لهذا الرجل، يبدو أنّه من النوع الذي يُضمِر الخير، ولكنّ طبيعة عمله تفرضُ عليه الظّهور بمظهر مُخالِف، أستبعدُ أنّه يريد الإيقاع بك أو استدراجك، أو توريطك بمشكلة ما، **(حُطْ إيديْك ورجليْك في ماء بارد)**، ومثلما نصحتك **(أطعمْ الفم، تستحي العين)**، وأنّ**(اللُّقَمْ تردّ النِّقَمْ)**".
- أبو فندي: "رأيك صحيح، ربّنا يجيب العواقب سليمة، ويُقدّم ما فيه الخير للبلد، سنعمل بكلّ طاقتنا من أجل أن نحافظ على الممتلكات العامّة في قريتنا، وهي مُكتسبات لنا ولأولادنا، النّظام سيعمل بطريقة أو بأخرى، لدفع النوعيّات الفَوْضَوِّية الغوغائيّة، بتخريب ما يستطيعون تخريبه، من أجل تبرير القبضة الأمنيّة، وتعزيز نظريّة العصابات الإرهابيّة التي صنعوها، وبالتّالي تشتيت الرأي العامّ عن المظاهرات المطالبة بالحقوق لرفع الظلم، وتحويلهم إلى أناس هَمَجٍ

يُخرّبون بيوتهم بأيديهم، أرى أنّ الموضوع سيسير في هذا الاتّجاه على المدى البعيد، أخوَفُ ما أخاف، أن يُرفع السلاح في وجه النّظام، وتكون هي القشّة التي ستقصم ظهر البعير، وذريعة للنّظام بأن يُنفّذ جميع مآربه الإجرامية دون حسيب أو رقيب، على الصعيد الداخليّ، أو الخارجيّ".

- المحامي: "مخاوفك لها مبرّرات كثيرة، فإذا عزف الشعب عن رفع السّلاح في وجه النّظام، ساعتها سيعمل بكلّ ما أوتي من قوة، أن يدفع بهم لحمل السلاح، لإثبات نظريّته كما قال عنها الرّئيس في خطابه التاريخيّ، موضوع العصابات الإرهابيّة المرتبطة بالقاعدة، والسلفيّة الوهابِيّة الجهاديّة، سيعملون على إثباتها على الأقلّ أمام العالم الخارجيّ، وأنّ سوريّة تتعرّض للإرهاب القادم من وراء الحدود، وتغيّيب صورة المظاهرات السلميّة ذات الضرر الرّهيب على وضعيّة النّظام، وقد أثارت عليه نقمة العالم على الأقل إعلاميًّا، فَطِنَ أساطين وكهنة النّظام مبكّراً لهذا الموضوع، وهاهم سيعملون عليه، لتبديل وتبديد مسيرة الثّورة عن أهدافها الحقيقيّة".

تشعّب الحديث في طرق شتّى لأكثر من ساعة، وما إن همَّ المحامي بالمُغادرة، حتّى رنّ جرس (الموبايل)، جاءت نبرات الأستاذ أحمد الفهيد، مُبتدئاً بالسلام والسؤال عن الصحّة والعائلة والأولاد والحجّة أمّ محمد، وأعرب عن شوقه في لقاء قريب.

- أبو فندي: "الحمد لله نحن وإيّاكم بخير، كيف أنتم؟، هذا المحامي خالد موجود هنا، وهو يلبس حذاءه بِنِيَّة المُغادرة لضيق وقته، بالطبع عندي منذ ساعة فقط، لكنّه في عجلة من أمره، وإلّا كنّا اتّصلنا بك كي تأتينا، سامحني على هذه الغلطة، ربّي يبارك فيك، سنلتقي بخير، أشكرك على الاتّصال وسؤالك عنّا، بأمان الله". أغلق الموبايل.

تزامن خروجهما إلى الباب مع وصول أبي عادل قادماً من السّوق، أوقف درّاجته الناريّة، نزل للسّلام، والاطمئنان عليهما، وأردف بقوله: "هذه الأيّام أصبح القلق يسكن أنفسنا، لا نعرف ما الذي يحصل، ويُخَطط له؟، الآن مررتُ ببعض الأصدقاء بالسوق، حدّثوني عن استعدادات اتّخذها الشباب من أجل مظاهرة يوم الجمعة القادمة، من تجهيز اللّافتات والأعلام، وتنسيق تامّ بين الشباب على الهتافات، والشّعارات التي يَنوُون إطلاقها في المظاهرة، كما أنَني علمتُ كذلك عن إجراءات احتياطيّة تتّخذها المفارز الأمنيّة لمواجهة المظاهرة، ومن الممكن أن يلتحق بالمظاهرة الشباب، الذين سيأتون من القرى المجاورة، أعتقد أنّها ستكون حاشدة، لاسيّما أنّ دمّ الشّباب يغلي في عروقهم، على خلفيّة ما جاءت به الأخبار من الحصار الخانق لمدينة درعا، وإغلاقها تماماً فلا دُخول إليها، ولا خروج منها".

- قال المحامي: "أمرٌ مُقلق حقيقة، الحياة اليوميّة سيّئة جداً في المدينة، النّاس فيها يعانون من الحصار الخانق، فلا ماء ولا كهرباء ولا خبز، حظر للتجوال إلا في ساعات الصباح حصراً لمدّة ساعتين، تخرج النّساء للتسوّق، فالمواد الغذائيّة نَدُرَتْ في المحلّات التجاريّة، ارتفعت أثمانها لمستوى فاحش، قلّة السُّيولة الماديّة بين أيدي النّاس؛ جعلتهم يقتصرون على شراء حاجيّاتهم بالحدّ الأدنى من الغذاء الذي يكفيهم؛ لتسيير أمور يومهم فقط، ومن جشع بعض الأغنياء أنّهم أقبلوا على تخرين وتكديس الغذاء في بيوتهم، ربّما يكفيهم لأشهر قادمة".

- أبو فندي: "والله أعلم، أنّ مظاهرة هذه الجمعة ستكون حامية جدًّا، والأمور تتسارع بوتيرة عالية، كعربة تنزلق على مُنحدر شديد، والحوذِيُّ فقد سيطرته عليها، ولا ندري أين ستستقرُّ بنا الأمور؟".

يستأذن المحاميّ بالانصراف، يعتذرُ من أبي عادل لضيق وقته، ومواعيده الكثيرة، كذلك اقترب دوامه المسائيّ في مكتبه بالقرية.

- أبو عادل، مودّعاً له: "بأمان الله، نراك بخير، مع السّلامة".

***

(٣)

المحامي يُتابع كتابة مذكّراته بشكل يوميّ، بحرصٍ منقطع النظير، وكأنّ القدر كلّفه بذلك، تذخيرًا للأيّام القادمة، "الثورة إرادة

الشعب المظلوم، الرّافض للظلم وأهله، فكَسَرَ قيوده ورماها، رمى الخوف خلف ظهره، خرج من قُمْقُم القهر، يجتاز أنفاق الظلمات بهمّة عالية، وهو يشعل الشموع، آمِلًا في الوصول إلى القمّة في الأحلام، وعودة إنسانيّة الإنسان للإنسان، حُرًّا كريمًا.
الهجوم المُعاكس الذي تعرّض له بإرادة الظالم وأعوانه، الذين يريدون السّيطرة حتّى لو قَتلوا الناس جميعاً، في سبيل تربّعِهم على عروشهم المعمّدة بدماء الأبرياء، كُرَةُ اللّهب يتقاذفها اللّاعبون باتّجاهات كثيرة، لم تمض أيّامٌ قليلة على الخطاب الحريق، حتّى تَجَحفلت الدّبابات ضاربة طوقًا رهيبًا، هديرها يقطع صمت اللّيالي الموحش حول مدينة درعا، تُكبّل جهاتها الأربع، تصنع حصاراً خانقاً لكلّ سُبُلِ الحياة، تبعه قطع الاتّصالات والكهرباء والماء عنها، لخنق أهلها وإضعاف معنويّاتهم، لإجبارهم على الاستسلام، وكسر إرادتهم، إضافة لزجّ المزيد من العساكر من قوّات الحرس الجمهوريّ، ومنع الدّخول والخروج من وإلى المدينة، عندما صارت شوكة في حلوقهم، أدمت قلوبهم، وقضّت مضاجعهم، تمهيداً للمعركة الكبرى باقتحامها، وإخماد ثورتها، بالقوّة الغاشمة فقط، والقوّة سيّدة الموقف عند النّظام، فقد اعتاد أن تكون كلمته هي العليا والنّافذة، مهما كلّف الأمر، قام بمصادرة الأحلام التي تُلوّن الحياة بالبهجة لتكون مقبولة أكثر، والنّاس لا يفارقون قنوات الأخبار الفضائيّة، وهي تنقل الخبر ساعة وُقوعِه، من خلال ناشطين يُرسِلون ما يشاهِدون في لحظته من ساحة الحَدَث مُباشرة، وتطوّر الأمر إلى افتتاح فضائيّات جديدة مُتَخصّصة في الشأن السوريّ، وما يحصل من همجيّة النظام خلف السّتار الحديديّ".

***

يتابع المحامي الكتابة في اليوم الثاني: "هي كانت .. بداية ونهاية، كتَبَتْ نفسها بنفسها..، لم يكتبها أحد، كانت الصّرخة والمطرقة؛ فكسرت جبروت هياكل الطغيان الورقيّة أظهرت تفاهة الفزّاعة.
درعا هي البداية ..هي الصرخة .. هي المطرقة .. عقارب السّاعة لن تعود إلى الوراء أبداً.
الثّورة غربال لتنظيف الشوائب..، وسترمي لمزبلة التّاريخ فضلات التّفاهة .. ما حصل في سوريّة عميق..، الثورة غضّة التجربة..، لكنّها ستكتب تاريخاً جديداً للأمّة قاطبة ..، سترسم طريقاً للمستقبل، إنّها حقيقة أخافتهم جميعاً، فتآمروا عليها جميعًا، تآلف على عداوتها كَهَنةُ المَجُوس، وحاخامات اليهود".

***

أيضًا يتابع الكتابة بعد ذلك: "ذات فجر غاضب، استباح هدير الدبّابات المسافة ما بين مرابضها، وبيوت المدينة الثّائرة، الجنود يحملون حشوات القذائف، ويدفعونها في فوّهات المدافع، وتتأهّب راجمات الصواريخ، إيذاناً ببدء ساعة الصفر تمهيداً لتقدّم القوّات، وحُماة الدّيار عجزوا عن حماية الوطن، فصدئت إرادتهم وهم يجلسون قبالة أسلحتهم العتيقة المنتهية الصلاحيّة منذ أمَدٍ بعيد، في حالة مُراهقة يغازلون زيْفَ الواقع، ووَهْم الدّجل المُتخفّي خلف متاريس واهية، لا حيلة لها مع عدوّ سعيدٍ عندما حصل على الجولان هديّة من رأس النّظام؛ لأنّها وثيقة عهد سريّة، تتعّهد بعدم نهوض الضحيّة لتقف في وجه الجلاّد، أربعون عاماً من الوفاء بعهود قطعوها على أنفسهم أمام أسيادهم هناك في الغرب و الشّرق، بحفظ أمن الحدود مع إسرائيل، السيّد شايلوك لم يَتَوانَ في إنقاذ حليفه القابع في دمشق قلب العروبة

النابض، من إنقاذه وقت الضّيق والحاجة، فيرسل طائراته تُعربد في أجواء سوريّة، أو يضرب موقعًا في لبنان الشقيق، الذي اتّخذه النّظام مُتنفّسًا لتصريف أزماته، ومزرعة إضافيّة لضبّاط الجيش الذين امتهنوا التّهريب، وزراعة المخدّرات المزدهرة تحت حماية الأذرُعِ الأمنيّة، لتمويل عمليّاتهم القذرة، وهكذا ضاعت لبنان في طنجرة أبي لهب.

درعا بموقعها الاستراتيجيّ، وقربها من الحدود الدوليّة لفلسطين غرباً، فإنّ اتفاقيّة فصل القوات ١٩٧٤ بعد حرب تشرين التحريكيّة، وبركات العم (**كيسنجر**)، قد حظرت تواجد السلاح الثقيل في منطقة غرب درعا.وبقدرة قادر، دخلت الدّبابات، ولم تعترض إسرائيل بتهديد أمنها القوميّ، ولا إخلالًا بإتفاقيّة فصل القوّات.

ما الذي حصل؟.

على ما يبدو أنّ هناك شيءٌ ما يحصل من تحت الطاولة، بين النّظام وإسرائيل، عمّا قريب سيذوب الثلج، ويظهر ما كان يخفي من القاذورات، أمّا تصريح أحد رؤوس النّظام، بأنّ أمن اسرائيل من أمن سوريّة، هذه الحقيقة تستّروا عليها سنيناً طويلة، وهُمْ يخدعون الشّعب بممانعتهم الكاذبة، ما يؤسفني أنّ هناك الكثير ممن يصدّقونهم".

***

بينما جلس أبو فندي يستمع للأخبار، أصابعه تكبس على أزرار الريموت مُتنقّلاً من محطّة لأخرى بعصبيّة، بعدما تشعّبت الأحاديث في مجالات شتّى، رغم تأخّر الوقت، إلّا أن أبا عادل قد تأخّر عن موعد عودته لبيته، وكسر موعد نومه المُبكّر، لارتباطاته بالعمل، فرصة اللّقاء العابر جاءت بلا تخطيط؛ فكانت بَلسَمًا للأرواح المُتعَبَة القَلِقَة، بتداول دقائق الأمور فيما يحصل. الساعة تشير للثانية صباحًا، نهض أبو عادل عازمًا النِيّة على الذهاب؛ ليستريح من عناء يوم عمل

طويل، استأذن صديقه، ودّعه أبو فندي، أغلق باب الدّار خلفه، تذكّر شيئاً هامًّا بشكل مفاجئ، تأسّف في نفسه على هذا النسيان اللامبرّر لرؤية والدته، مشى إلى قسم الوالدة الخاصّ بها، فهو منذ يوميْن في مَتَاهة من النسيان عنها، طرق الباب ودخل، فوجدها جالسة على طرف الفراش، وتُمسك سُبْحَتَها لإتمام وِرْدها اليوميّ، بعد انتهائها من صلاة قيام اللّيل، قبّل رأسها، وسألها عن حالها، وهل تأخذ الدواء باستمرار؟.

طلب منها أن تسامحه، وتغفر له تقصيره برؤيتها.

- الحجة جواهر: "قلبي وربّي يرضى عليك يا محمد، ويُبعَد عنّك أولاد الحرام، أنا في غاية السّرور، ما دمتَ أنتَ وإخوتك بخير، وأعلمُ ما يدور في القرية، من خلال الجارات في جلساتنا اليوميّة، الطّريف في الموقف بعض الذين لم يفهموا موقعهم في الحياة، ولا يُلقوا بالاً لكلامهم، تخيّل أنّ أمّ كَرْمُو مؤيّدة، وأمّ قدّورة (مش عارفة ربّها وَيْن حاطّها)، أطلب من الله الهداية لهنّ، هذه الأيّام امتحان حقيقيّ لنا جميعاً، لنرتق إلى مستوى المسؤوليّة المُلقاة على عاتقنا، وعهدي إليكَ، تقدير نفسكَ وتاريخك الموروث من جدّك ووالدك رحمهما الله مُشرّف لكَ، ولذريّتك من بعدك إلى أبد الدّهر، ومنارة هداية لكم، والخاتم عهدٌ في رقبتك لمواصلة طريقهما مهما كلّف الأمر، هذه الأيّام بحاجة لأمثالك، كي لا يكون التاريخ عبئًا يُثقل مسيرتك بلا فائدة، بل مُنطَلَقاً، لتضيف إليه صفحة ثالثة، سيقرؤها فندي وإخوته من بعدك، بكلّ فخر واعتزاز".

- أبو فندي يحاكي نفسه: "شحنة قويّة مفاجئة لم أتوقّعها من والدتي، وها أنا للمرّة الأولى أكتشفُ، فهمها ووعيها، رؤيتها ثاقبة واضحة للقضيّة، وإصرارها الدّؤوب على مواصلة طريق والدها وزوجها، وها هي سلّمَتني المِشْعَل، بِعُهْدَتِها إليّ، وإلباسي الخاتم الرّمز، وقد

فَهمتْ قيمتَه المعنويّة لإثارة النّخوة والحميّة في نفسي، وإيقاد الجُذوة من جديد.
تنهّد بعمق. وقال: "أُمّاهُ، أنا ابنك الذي تربّى على يديْك، وأنا سَهْمُك الصّائب الذي لا يخطىء الهدف، سأرمي أيّام الكسل، وهناءة العيش خلف ظهري، سأقفُ في المقدّمة مهما كان الثّمن، هذا مكاني، وهذه أيّامي".
- أغمضت الحجّة عينيها، علامة الرضا والسرور. وقالت: "سأموت وقلبي مرتاح، ربّي يحميك، سِرْ على بركة الله، لا تخشَ إلاّ الله، كنْ مع الله ولا تبالِ".
حرارة الموقف ألهبت مشاعره وأحاسيسه؛ فاشتعلت في قلبه جذوة الحماس، وترقرقت الدّموع في عينيْه، قام مُسرعاً ناسياً تودعيها. أتبعَتْهُ بنظراتها الحانية، وهي تردّد: "الله معاك".

***

تمضي أيّام الأسبوع بتسارعٍ عجيب، يجعل الأذهان حائرة، ما إن يستقرّ أحدهم على أمر محاولاً هضمه، واستساغته أو رفضه، فيأتي القادم بأفظع منه، بمسافات تعْدِلُ ما بين الشّرق والغرب، دُوارٌ يُزيغُ الأبصار.
مساء يوم الجمعة، في ساعة متأخّرة من اللّيل، بعد أن أنهى كافّة أعماله ومشاغله، جلس المحامي خالد، والهدوء يُخيّم على أجواء المكان حوله، ففي البيت نام الأولاد مبكّراً، كما هي عادتهم اليوميّة،

من أجل دوامهم المدرسيّ، تأخّرت زوجته لانشغالها بترتيبات البيت، قُبيل ذهابها للنوم جهزّتْ له طعام العشاء مع دَلّةِ القهوة، جاءت إلى غرفة المكتب في البيت، هو مُنهمك بترتيب أوراقه الضروريّة لمرافعات قضايا الغدّ في المحاكم، تحدّثه وهو مستغرق في عمله، يسمع كلامها، لكنّه لا يلتفتُ إليها، فتقتصر إجاباته على الكلمات الضروريّة، بالطبع صارت خبيرة بأحواله فلا تحاول مُضايقته، فهي تنفرد بتحمّل كلّ شؤون البيت والأولاد، ولا تكلّفه بشيء من تلك الأعباء، وتردّد دائماً: "الله يكون في عونه..". تودُّ لو أنّها تستطيع التخفيف عنه من الضغوطات التي يُواجهها على مدار ساعات يومه.

-: "تعال .. هيّا، يا حبيبي قبل أن يبرد الطعام".

-: "قليلٌ من حِلْمك يا سيّدتي".

-: "أودّ رؤيتكَ قليلاً قبل أن يُداهمني النّعاس، وقتُك مليءٌ، ولا فراغ لديكَ، وأنا أُقدّرُ ذلك، حُشَاشَة قلبي ستذبُل، إذا لم تكتحل عيناي بمرآك، ولو لدقائق معدودة، لإعطائي دفقة حياة جديدة".

دبّتْ الحماسة في نفسه من رقيق كلماتها، عندما وضع آخر أوراقه في الحقيبة، فصارت كبطن امرأة حبلى في شهرها التاسع، قام من وراء الطاولة، اقترب منها، طبع قُبْلةً على خدّها.

سألها عن الأولاد ودراستهم، ومدى جديّتهم في المتابعة، اقترب من الطعام. وقال: "سلِمَتْ يداك حبيبتي، ما الذي كنتُ سأفعله، لو لم تتفهمي طبيعة عملي؟.

وانطلاقتي له بكلّ قدراتي وطاقاتي، أنتِ أغلى جوهرة في حياتي، والله لا أُخفيكِ ذلك، إنّها دعوات والدتي رحمها الله، بأن يرزقني الله ببنت الحلال، وكانت دعوتها مستجابة فيك".

غمرها شعور طافح بالسرور، علامات الرّضا مُرتسمة على مُحيّاها، تورّدت ابتسامة ساحرة، وبشاشة الوجه.

- قالت: "ربّنا يحفظك، ويُديمك فوق رؤوسنا".
تابعت، وهي تسرد عليه ما يدور في الحارة من كلام الجيران. ما بين مؤيّد للثورة ومعارض لها، وضائع عُميّتْ عليه الطّريق، ومنهم من يرَدِّدُ: (**ابعدْ عن الشرّ وغنّ له**)، و(**لا تَنَم بين القبور، ولا تشوف منامات وِحْشِة**)، بالطبع هي معتادة أن تتكلّم وهو يستمعُ لها، ولا يُجيبها إلاّ بكلمات قصيرة مقتضبة.
- هزّ رأسه تصديقاً على ما سمع منها، وقال: "نحن على مُفترق عظيم، سيُحدّد مُستقبلنا، شيء طبيعي أن ينقسم النّاس حيال أمر جديد عليهم، غير مألوف في حياتهم".
- استأذنته في الذهاب للنوم، بعد أن حملت الطعام؛ لتعيد ما بقي منه إلى المطبخ، النُّعاس عاجلها، والأولاد بحاجة لتستيقظ قبلهم بقليل: "تصبح على خير، حبيبي".
-: "وأنت بألف ألف خير، يا حياتي".
بإشارة من يده أرسل لها قُبْلة الوداع على الهواء. وتابع: "ورائي قليل من العمل سأتابع سهرتي، ومن ثم ألتحق بك".
جلس خلف مكتبه، شغّل جهاز الحاسوب، دخل إلى مواقع الأخبار على الأنترنت، على مدار ثلاثة أرباع السّاعة، طالع ما يحلو له حول ما كُتِبَ عن أحداث هذا اليوم الجُمعة، إضافة لمتابعته قبل ذلك نشرة أخبار التلفزيون، فتكوّنت لديه أفكارٌ إضافيّة على ما سبق من مشاهداته، وانطباعاته حيالها، تناول مفكّرته مُتابعاً تسجيل يوميّات الثّورة: "كان اليوم هو الجمعة الثّالثة مميّزًا جدًّا، فلم يكن مُتوقّعاً من الجماهير الاستجابة الكبيرة لدعوات التّظاهُر، كانت هذه الأعداد الضّخمة من عموم فئات الناس في قريتنا (**مَوْج**)، خاصّة من الشباب الذين نزعوا أردية الخوف، ورموا بها خلف ظهورهم، فضربوا عرض الحائط بكلّ التحذيرات من أهل العقل، كانوا على ثقة كبيرة،

أنّ هُتافاتهم ستغيّر الوضع المُزري إلى الأمثل، وعيونهم ترنو للمستقبل الواعد.

لا أدري على وجه التحديد، هل سيكون لكلماتي هذه الحظّ الكافي لتكون الشاهد على البداية، وهل سيكون لها شرف كتابة فصول النهاية؟، صراع الاحتراق في داخلي يجعلني أتخوّف على كلّ حرف، ومن كلّ حرف أن يُسرَقَ من سياقه، ليُوظَّفَ في طريق مُغاير، في غير موضعه المراد له، وأخاف منه الانحراف عن مساره في تقيّيد لحظة الحقيقة بصدق، وماذا لو ضاعت هذه المذكّرات، أو وقعت في يد من يُحقّق بها تقرُّباً، وحُظوَةً لدى أبي رستم وجماعته؟، فإن لم أستطع الجهر بالحقّ، فلا أستطيع أن أصفّق للباطل، على أقّل تقدير في هذه المرحلة، فَلْتُقْطَع يَدَاي.

تتواردُ أفكاري بهذه التساؤلات السابحة في محيط ظلمات تتلاطم أمواجه العاتية، ذهولٌ واستغراق تامّ في لُجّة الموقف المُسيطر على ساحات نفسي، فمن يعرف طبيعة الحياة في سوريّة، لا يمكن أن يُصدّق أنّ ما حصل لم يكن ليحصل، لولا أنّني عاينتُ وشهدتُ الحدث بأمّ عيني عن قُرب، لما تسرّب إلى قلبي شعاع من يقين أنّ الشّعب يستطيعُ نبذ الخوف، ويرمي به خلف ظهره، وإلى الأبد".

جاء مواء قِطّتنا السوداء المُوشّاة ببقع صغيرة من الوبر الأبيض؛ ليقطع سلسلة أفكاري، عندما وقفتُ صامتة تتطّلع وتتأمّل، يصدر مواؤها غامضاً ملتبساً، يتوقّف القلم عن نزفه بتسويد بياض صفحات الدفتر بلا إرادة، ترتفع يدي الأخرى، لأهرش بها فروة رأسي بقوّة، حتّى كادت أظافري أن تُدميها، وكأنّني كنتُ منذ أيّام على سفر بعيد، ولم تمتدّ إليها يد النظافة بالماء والصّابون.

تكرّر المواء كأنّه يُطالبني بأن أقوم إلى المطبخ وإحضار أيّ شيء تأكله؛ لتُسْكِتَ جوعها في هذه الساعة المتأخّرة من اللّيل؛ قمتُ باتّجاه المطبخ وهي تتبعني.
وصلتُ ثانية إلى قُرب بيت الدرج حاملاً الماء، وبقايا من طعام العشاء، ووضعتُه لها.
وقلتُ لها: "تفضّلي".
انسحبتُ إلى مكتبي، تقدّمتْ تلتهمُ ما وضعتُ لها بِنَهَمٍ، فتركتني ثانية لدفتري، وأفكاري تتلوّى تحت ريشة قلمي النّازف.
داهمتني فكرة تقول: "هل تُحكم الشّعوب بالحديد والنّار، النّاتج عن الانقلابات العسكريّة، أم بنتائج صناديق الإنتخابات؟". سأسجّلها لتأخذ مساقها بتناغم، مع لحظة الوقوف أمام صدمة الحقيقة، أرى فيها أنّها هي مربط الفرس، هدوء اللّيل مُغرٍ للأفكار بالتدفّق بانسيابيّة كما نسيم الصباح".
ثمّ أرتشفُ من فنجان قهوتي، صديق سهري الدّائم كلّ ليلة، رائحته تختلط بدوّامات دخان سيجارتي التي لا تنطفىء نارها، إلاّ عندما أدخل فراشي، يستولي التّعب على كلّ أجهزة جسمي، يجذبني للاستسلام لنوم عميق.
الوقت تأخّر، النّعاس يداعب أجفاني، شَطَطُ الأفكار يبتعدُ بي عن الهدف الأساسيّ بتدوين اليوميّات الخاصّة بالثورة، قلمي يعود لصحوته: "بعد انتهاء صلاة الجمعة، انطلقتِ الهُتافات من ساحة الجامع الكبير الخارجيّة مُترافقة مع التصفيق مُعبّرة عن الأفكار العامّة التي يحلم بها جيل الشّباب.
ما إن وصلت المظاهرة من تجمّعها في ساحة القرية، حتّى توجّهت إلى مبنى الناحية، وشعبة الحزب المجاورة، التوتّر سيّد الموقف المسيطر على الجميع، قوّات الشّرطة والأمن على أهبة الاستعداد، بعد

أن أغلقوا الباب الخارجيّ والداخليّ للمبنى، خوفاً من اقتحام غير محسوب للمبنى، حرارة الهتافات المناهضة للنّظام تتأجّج غضبّا بلهجة التحدّي للقوّة، جعلت أفراد الشّرطة المُتمركزين على السّطح، يُطلقون الرّصاص بطريقة عشوائيّة للأعلى باتّجاه السّماء؛ لإخافة النّاس من الاقتراب، رغم ذلك اندفع بعض الشّباب بطريقة هستيريّة باتّجاه مبنى الناحية، مُتَحَدِّين الوضع، حيث كنتُ مع أبي فندي، والأستاذ أحمد، وأبي سالم، وأبي عادل، وأبي سليم، وأبي نواف، وأبي راجح، وسعدون في المقدّمة، مع مجموعة من الرّجال ذوي الاحترام.
فالتّحشيد للموقف لهؤلاء الرجال جرى على وجه السّرعة، بمبادرة منّي ومن أبي فندي، ورفاقنا عندما تواصلنا مع الآخرين، شكّلنا طوقاً، وحاجزاً لقطع الطّريق، على المُندفعين الغاضبين حفاظاً على أرواحهم؛ كي لا يُصابوا بالأذى، وحفاظاً على مبنى الناحية وعناصرها، على مدار أكثر من ساعة بين أخذ ورَدٍّ، أخيراً اهتدى أبو فندي لرأي بأن يقود المظاهرة إلى ساحة القرية، هتافاته لقيت صدًى لدى الشّباب، حين توحّدوا على هتافه، سارت الحشود الغاضبة شرقًا، لتصبح السّاحة المكان الذي يتّسع للجميع، أفرغوا شحنات الغضب، هتافات متنوّعة، وتصفيق حادّ على مدار حوالي السّاعتين، احمرّت الأكفّ، تعبت الأجساد، بُحّت الحناجر، وهي تتلهّف للماء، ترافَقَ ذلك مع حرارة الشمس اللّاهبة، لاحظتُ ودققتُ النَظر، عندما أشار أبو فندي، لشخص هناك في البيت المجاور لمبنى الناحية، يقفُ خلف شُبّاك غرفته المُطِلّة على الطريق، حاملاً (كاميرا الديجتيل)، يقوم بتصوير المظاهرة بدقّة متناهية، تركيزه كان على الوجوه، هذا ما تبيّن فيما بعد؛ حينما جاء دور كتابة التقارير المُفصّلة عن المظاهرة، والأشخاص الفاعلين، وغير الفاعلين في المظاهرة ".
انتهى .. في يومه، وتاريخه.

***

كان أبو فندي على موعد مع أصدقائه بأن يسهروا عنده، جرى التّنسيق لذلك، بعد انفضاضهم من ساحة القرية، ذهب كلٌّ منهم إلى شأنه، فرصة طال انتظارها لتكون لقاءً موسّعًا، سيحضره العديد ممن شاركوا في المظاهرة.

تناول الغداء مع العائلة بعد عودته للبيت، راح يتأمّل وجوه أبنائه وزوجته، يتفحّصها بطريقة غير طبيعيّة، كأنّه للمرّة الأولى يراهم، راح يتملّى من قسماتهم، شعور غامض يحرُث بعمقٍ في بؤرة أحاسيسه المُتأجّجة تجاه أولاده، يأكل بِنَهَمٍ رغم شعوره بإرهاق شديد، يمضغُ اللُّقيمات بسرعة، فرضتها عليه التأوّهات من أعضاء جسده المَكْدُود من شدة المُدافعة، في صدّ الحشود الهائجة المُتدافعة، آثارُ الكدمات وسَمَتْ أجزاء من جسمه باللّون الأزرق المُحْمّر المائل للسواد.

- زوجته تسأله: "ما الذي حدث اليوم في القرية؟".

- بصوت مبحوح مرهق، تخرج الكلمات مُتعبة من بين شفتيْه بصعوبة، تُنبيء عن حال المُتكلّم: "والله يا عزيزتي، ما حصل خارج عن حدود التّصور، صدورُ الشّباب كالدروع تتحدّى الرّصاص، هتافاتهم غطّت على أزيز الرصاص، اندفاع حماسيّ يفوق كلّ وصف، فلا حذر ولا خوف، أتساءل بدهشة كبيرة، أين كان يختبيء هذا المارد الجبّار الغاضب الشّجاع ؟".

- أمّ فندي تقاطعه، وهي تلوم نفسها على سؤالها، راثية لحاله التي لم تعهدها من قبل: "لا عليك يا أبا فندي، قُمْ، وَنَمْ، لتأخذ قسطاً من

الرّاحة، - الله على قلبي - لا أقصد أن أزيد عليك، وما أنا إلاّ عونٌ لك على النّوائب، كرامة لله سامحني".

- أبو فندي: "وَكِّلِي الله يا بنت الحلال، لا تهتمّي، فلا أرى ما يستدعي تألّمك، هذه أيّامنا يجب أن نغتنم فرصتها لإصلاح حالنا، ورسم طريق مستقبل أولادنا، الذين هم مستقبل الوطن".

قام من مكانه بعد أن حمد الله على الشِّبَع، قاصداً المغسلة لغسل يديْه وفمه، وإزالة روائح الطعام، وسار باتجاه غرفة النوم؛ لأخذ قسط من الرّاحة. صحا من نومه، قبل المغرب بنحو ساعة تقريبًا، وهي توَدِّع في قلبه ذلك اليوم الحافل الفاصل، نهض بِهمّة ونشاط، ليُدرك صلاة العصر في آخر وقتها.

من خلف النّافذة تأمّل الشّفق الطّافح، أغرق صفحة الكون، وكأنّما صار بِرْكَةَ دم، لحظاتٌ رهيبةٌ ملأت نفسه رهبة من هَوْل المنظر، الذي أخذ بجوامع عقله؛ فاهتزّ قلبه بخفقان مُوحٍ بفرحٍ طُفوليٍّ، وتفاؤل غامض بِغَدٍ مُشرق، معالمه غائمة كَيَوْمٍ خريفيٍّ، غيرِ واضحة المعالم، انفرجت أساريره، فجأة قَطّب جبينه، ظهرت خطوط طوليّة كطُرُقٍ مُتوازية لا يمكن أن تلتقي، ولا يعلم سالكها قرارةَ منتهاها.

***

الأستاذ أحمد الفهيد كان أوّل الوافدين للسّهرة؛ لأنّ الأشواق تُسابقه للانفراد بالغوالي أحبّاء قلبه، والتحدّث إليهم بحميميّة، وحريّة بلا حواجز وحدود، قاصداً ذلك قبل مجيء عناصر السّهرة، المبرمج لها سلفاً: "جئتُ مبكّراً أوّلاً لاشتياقي لك يا صديقي، ومن ثمّ لأزفّ لك خبر توقيع عقد للتَدريس في الخليج. سفري بعد أيّام لظرف طارئ عندهم هناك، بوفاة خمسة مُدرّسين في السعوديّة أثناء عودتهم من العطلة النصفيّة، إثر حوادث سير مُروّعه، قضَوْا فيها جميعًا، لذلك سفري سيكون خلال أسبوع، أنت أوّل شخص يعلمُ ذلك بعد زوجتي،

أودّ أن يبقى الأمر طَيَّ الكتمان غير معلن أبدًا، لأنّ الظروف مُتشابكة كما ترى".

- أبو فندي: "لقد سعدتُ لك من كلّ قلبي بهذا السّفر الموفّق بعون الله، وانفراج لأزمتك الماديّة المُزمِنة، وكان اعتمادك على راتبك القليل الذي بالكاد يكفي حاجاتك الأساسيّة، ومتطلّبات أسرتك، والأولاد إذ أنّهم كبروا؛ فازدادت مصاريفهم الجامعيّة، ربّي يفتحها بوجهك، ويجعل طريقك خضراء، فرصة رائعة جاءتك في اللّحظات الأخيرة.

أتمنّى لك كل التّوفيق، سأتّصل بخالد الهنيدي؛ ليأتي حالاً إذا لم يكن مشغولاً؛ لنستغلّ الفرصة بجلسة دافئة وحدنا".

- الأستاذ أحمد: "حسناً .. كما ترى، سأخبركَ أنّني لاحظت شخصاً يقفُ خلف النّافذة في البيت المقابل للناحية، حاملاً (كاميرا ديجتيل)، وهو يلتقط الصّور للمُتظاهرين.

من وَحْي ذلك كتبتُ نصّاً بهذا الخصوص بعنوان (**استرداد ..**)، سأقرأه عليك، علّك توافقني؛ فيما ذهبتُ إليه".

- أبو فندي: "وأنا بدوري لاحظتُ هذا الشّخص، أشرتُ إلى المحامي بذلك، أعتقدُ أنّ هذه النّقطة سَتُوَثّق في مُذكّراته، على كُلٍّ تفضّل ..، كُلّي آذان صاغية لك، أستاذنا ".

- تنحنح الأستاذ أحمد، تناول كأس ماء، وشرب منها قليلاً حتّى تُذهِبَ جفاف حلقه، أخرج ورقة مطويّة من جيبه، فَرَدَ طيّاتها، انخرط في قراءة مؤثّرة، بصوت فَرِحٍ مُرتعشٍ مَشُوبٍ بشيء من الخوف:

" حبيبتي ..
هيّا..
أسْرِعي ..
لنستَبيح الكلام

نثرثر ..
نحكي الكثير، و الكثير ..
نستعيد حكايات حُبّنَا
و أيّام الوَلْدَنِهْ ..
و نفرش سجّادة غرامِنا من جديد ..
لا تحذري، لا تخافي
فالمُخْبرُون ناموا ..
رغمِ أنَّهم لا ينامون، إلا مرّةً واحدة في حياتهم
فيا لَحُسْن حظّنا ..
يا لسعادتنا ..
هيّا ..
أيقظي العصافير، و أزاهير حديقة بيتنا ..
أشْرِعِي النّوافذ للشّمس كلّ يوم ..
المُخْبِرُون ناموا للأبد ..
أسيادهم ناموا للأبد ..
فتعالي نَكسِر أقفال الصّمت ..
ونفتح أفواهنا ..، لنرى بياض أسناننا
تعالي نُطلق أصواتنا تناغي القمر
تعانق السّماء ..
هيّا.. نعلنُ للعالم احتفالنا ..
بشقائق النُّعمان، و قد تفتّحت أكمامها
و ننثر الورد، والرّيحان ..
و نراقصُ القمرَ، والنّجوم ..
و نُسبِغُ ماءَ الوضوء على وجوهنا ..
حبيبتي ..

ترنّمي بتَراتيلِكِ الممنوعة ..
ارفعي أكُفّكِ للسّماء ..
والْعَنِيهم ..
لا تخافيهم ..
كأَهْلِ الكهف ناموا ..
سنعلنُ للدّنيا فرحتنا ..، و الدّنيا ستعلن فرحتها للكون
و نحن نكفكف دموعنا الجامدة على أجفاننا ..
نام أحبابُنا في قبورهم، و غُصّة القهر حرقت قلوبهم ..
ليتَهُم استفاقوا عندما نام المخبرون ..
حبيبتي ..
ستورق أيّامنا ..
ستولد الفرحة في رُبَانا ..
و نتابع أحلامنا المؤجلة من خمسين قهراً .
و نستنشق الهواء بلا رقيب ..
و نشرب الماء بلا حسيب..
و نعانق حريّتنا، علّ الزمان يغفل عنّا فينسانا ..
حبيبتي ..
نام المخبرون ثعالب النِّظام ..
نام اللّئام ..
نام البُغاةُ الزُّناةُ جُناةُ الآثام ..
فتنفّس الكونُ الضياءَ،
و نور الفجر يَرْفدُ القلوب بالأمل " .

***

- **ما** رأيُكَ ..!!، بصراحة يا أبا فندي؟.
- أبو فندي: "بحقّ السّماء إنّها قمّة الجمال، فقد أثلجتَ صدري، وأضحكتَ سِنّي، ما قولُكَ لو قرأتَها للشّباب في السهرة؟، فإنها تحاكي شيئاً ما في قلب كلّ سامع".
- الأستاذ أحمد: "دخيلك، اعْفِنِي من ذلك، لا أريد أن يعرف أحد أنّني كاتِبُها، تصرّف أنتَ بالطّريقة التي تراها مناسبة ".
- أبو فندي: "سأتلوها أنا على مسامعهم، سأخبرهم أنّني وجدتُها على (الفيسبوك)، وأعجبتني فكرتَها، كما سأعيدُ نشرها على صفحتي الشخصيّة، عندي حساب آخر باسم مُستعار، غير حسابي المعروف للجميع، أستخدمه للنّشر على صفحات الثّورة المُهتّمة".
في هذه الأثناء وصل المحامي بسيّارته، مع انطلاق آذان المغرب، ثلاثيٌّ مُتفاهم على معظم القضايا، متآلف بعلاقة متينة، لا تتأثّر بما يحدث مع أمثالهم.
ألقى التحيّة، جلس في صدر الغرفة، يتأمّل وجهَيْهِما مُستغرباً توقيت اللّقاء.
وقال: "ما الأمر؟، أراكُما، وكأنّكما لم تفترقا منذ ساعات؟، جئت على عَجَلٍ هُروباً إليكما، خِلْتُ أنّ هناك أمرٌ ما".
- أبو فندي: "بكلّ تأكيد حضورك من الأهميّة بمكان؛ لأنّ الأستاذ أحمد فاجأني بخبر سفره العاجل في الأسبوع القادم إلى الخليج، آثرتُ أن نلتقي قبل موعد السهرة، كما أنّه كتَبَ منثورة من وحي التَجَمْهُر أمام الناحية، أحبَبْتُ أن نتناقش حول ما حصل اليوم".
- المحامي: "خيراً فعلتَ يا أبا فندي، حتّى نكسب من الأستاذ، ربّما لا نلتقي أبداً، بادرتني فكرة الآن، أن يكون الأستاذ سفيراً للثّورة في الخليج، ممكن إذا ساءت الأمور أن يكون رافداً إغاثيًّا إذا طالت الأمور، هناك أصدقاء لي من المحامين، حضروا معنا مؤتمرات إتّحاد

المحامين العرب، إلتقيتُ بهم في عدّة دورات في أماكن مختلفة من العواصم العربيّة، سأعطيكَ أرقام اثنين منهم على درجة عالية من الحماس لحقوق الإنسان، كما أنّهما عُضْوَا المكتب التنفيذيّ للمنظّمة العربيّة لحقوق الإنسان، لهما وزنهما الاجتماعيّ، بداية إن شاء الله تصل بالسّلامة، فقط اتّصلْ عليهما للسلام والتّعارف، من أجل أن تبلغهم تحيّاتي وأشواقي، سأحضر لكَ عُلبتين من الحلوى المُشَكَّلة الفاخرة، هديّة رمزيّة، الأيّام القادمة سنحتاج عونَهُم في مجالات شتّى، سُرِرتُ لخبر سفرك في هذه الفترة القلقة الحرجة، ربّي يُفرجها عليك من أوسع أبوابه، فلا تقلق يا أستاذ أحمد، الموضوع أسهل مما تتخيّل بكثير، كما أنّ هذا الأمر؛ سيفتح لك منفذاً للتعرّف على أمثال هؤلاء الأشخاص، مما سيُسَهِّل عليك الكثير من المصاعب، التي ربّما تواجهك هناك، أتمنّى لك التوفيق في مهمّتك".

- أبو فندي: "يا أستاذ أحمد، - كما يُقال فإن: (**الحصوة تُسنِد جرّة**)- وأنت لن تخسر شيئاً، هذه مقدّمة جيّدة مُبشّرة لنا أن تكون أوضاعك في غاية الكمال والتّمام".

- المحامي: "سأتّصل بهم قبل سفرك ليكونوا على علم، ما عليك بعد وصولك إلى (أبو ظبي) إلّا أن تتواصل معهم".

- الأستاذ أحمد: "على بركة الله، يعجز لساني عن شُكرك؛ لأنّ حساباتك لمئة سنة قادمة، ببُعْدِ آفاقك، ورؤيتك المستقبليّة، ربّما أكونّ عاجزاً عن إدراك أهدافك البعيدة والقريبة.. !!".

***

لم يمض بعض الوقت على لقائهم السريع، إلا وحضر أبو عادل، وأبو سليم الأخ الأصغر لأبي فندي، بينما مضى الوقت ولم يلتحق

باقي الشّباب، الذين كان من المتوقّع أن يأتوا للسّهرة، اتّصل بعضهم من أنحاء متفرّقة من القرية، اعتذروا عن الحضور بسبب دوريّات الأمن المكثّفة الثّابتة والمُتحرّكة، وهي تنصب الحواجز الطّيّارة في أي مكان.
وأنّ هناك اعتقالات لبعض الشباب النّاشطين خلال هذا اليوم بعد انفضاض المظاهرة مباشرة، ومن تنبّه من الشّباب هرب مُتوارياً عن الأنظار، بذلك اقتصرت السهرة على أربَعَتِهِم (المحامي، وأبي فندي، وأبي عادل، وأبي سليم)، بعد الانسحاب المبكّر للأستاذ أحمد الفهيد، قُبيل انصرافه (المحامي) أجرى اتّصالات مع بعض أصدقائه في الطريق التي سيسلكها إلى بيته، لينظروا له ما إذا كانت هناك حواجز لتفاديها، سلك طُرُقًا داخليّة من خلال البيوت القديمة، بينما انطلق أبوعادل لبيته القريب، تمسّك أبو فندي بأخيه أبي سليم، كي ينام عندهم، وفرصة ليُكمَلوا سهرتهم مع الحجّة الوالدة في غرفتها.
شوارع القرية خالية من النّاس تمامًا، الدّكاكين، والمحلّات التجاريّة أغلقت أبوابها باكرًا على غير عادتها، عندما سَرَتْ أخبار الدوريّات، والحواجز الطّارئة.

***

بعد وصوله (المحامي) بالسلامة إلى البيت المطفَأ الأنوار، الصّمت يُخيّم عليه، هدوء تام، تسارُع الأحداث مُذهل، يجعلهُ لا يترك أمرًا بلا توثيق، أو تأجيله لوقت آخر.
دخل غرفة المكتب، بدأ بتدوين فصل جديد في مذكّراته المُتتابعة.
"قريتنا (**مَوْج**) مثلها مثل كلّ القرى والمدن السوريّة، لم تكن خارج السّياق فيما يحصل من مظاهرات جماهيريّة واسعة، بسبب موقعها الجغرافيّ في أقصى الجنوب، بعيدة عن مركز العاصمة، فقد كانت أوّل مركز على مستوى القطر، قد تحرّر من قبضة الأمن.

وصلت أخبار اقتحام مدينة درعا المحاصرة منذ أيّام، سادت حالة من الترقّب والانتظار، القوّات أخذت استعداداتها كاملة.
في صبيحة يوم مغبّر، ركب أبو فندي درّاجته الناريّة، متوجّهًا إلى السّوق لشراء الخبز والخضار والبيض واللّبن، من أجل إعداد الفطور لأسرته، الهواء يلفح وجهه؛ الدّموع تنزّ من عينيْه على غير إرادة منه، يمسحها، ويعيد النظّارة الشمسيّة إلى مكانها لاتّقاء الغبار، المدارس أغلقت أبوابها، وسمحت للطلّاب بمغادرتها كي يعودوا لبيوتهم، حفاظاً عليهم، فالخوف والهلع أصاب الجميع، وتحرّكت (**غريزة القطيع**) لتأخذ مداها، تجمّع العديد من الشّباب في ساحة القرية.
ازدادت الجُموع القادمة لهذا المكان، الهتافات المُندّدة بالنّظام ورموزه تهزُّ المكان، وتهتزّ مشاعر النّخوة في قلوبهم نصرة لإخوتهم في درعا الجريحة؛ بعد ذلك توجّهت الجُموع الغفيرة، ومن لحق بهم فيما بعد باتّجاه النّاحية، في هذا اليوم كانت المعطيات تختلف عمّا سبقها، خاصّة يوم الجمعة الماضية، تأجّجت حرارة الدّم في عروق الشباب، تجرأ العديد منهم لاعتلاء سور الناحية، رغم إطلاق النّار من الشّرطة، وراحوا يحاولون فتح الباب الخارجيّ المغلق، واقتحام باب المبنى الحديديّ الداخليّ، قسمٌ يقذف بالأحجار على النوافذ وتكسيرها؛ أخيراً تمكّنت مجموعة من الشباب من فتح الباب، اقتحموا المبنى قذفوا فيه عبوات (غاز) المنازل بعد فتح صماماتها وإشعالها، ألسنة اللّهب تمتدّ تلتهم الأبواب والشبابيك الخشبيّة والمكاتب.
وفعلوا ذلك أيضًا في شُعبة الحزب الملاصقة للنّاحية، وفي مبنى مفرزة الأمن السياسيّ خلف شعبة الحزب، بينما مفرزة الأمن العسكريّ كانت تبعد مِئَتَيْ متر عن هذا الموقع، توجّهت إليها مجموعات أخرى وأطلق الأمن النّار، ولمّا تكاثرت الجُموع، تمكّن أبو

رستم من تجميع عناصره، والنّجاة بأرواحهم من الجُموع الغاضبة الهادرة المُتكاثرة كالجراد، أخلُوا مواقعهم، اشتعلت النّار في محتويات المفرزة بعد خروجهم، توجّهت مجموعة أخرى إلى مبنى أمن الدّولة المجاور لجامع القرية الكبير، فوجدوه مغلقاً، وفارغا من عناصره، الذين ركبوا سيّاراتهم، وأخذوا أغراضهم الضروريّة، واتّجهوا إلى مدينة السُويداء.

***

انتهت الأسطورة .. احترقت أصنامها .. تحطّمت على صخرة إصرار وغضبة الغاضبين، بقاياها المؤذية إلى مزبلة الماضي، آثار الدّسائس، والمؤامرات الخسيسة مُتلفّعة بملاءة النَذالة والقماءة، سقطت وُرَيْقات التّوت .. ظهرت العورات، بقايا أوراق سوّدتها الأيدي الآثمة، التي لم تَرقُبْ إلّا ولا ذمّة في الأهل، والجيران والأصدقاء، وأبناء القرية، وحُرمة الوطن.

أيدٍ تستحقّ الحرق، وليس القطع..، ألسنةٌ تحتاج للاستئصال من جذورها..، عيون تراقب في الظّلام من أجل الظّلام..، بحاجة للسّمْل..، آذان تتجسّس، تتحسّسُ عورات الآخرين، فتنقُلها ليس كما واقعها، بل زيادة وتحريفاً.

سيرة المخبرين، مُقزّزة تقشعرُّ منها الأبدان، ترتجفُ القلوب من هَوْل الصّدمة، والألم الذي تسبّبوا به لأبناء جلدتهم ..، حبُّ الاستطلاع حدا بالجُموع الغفيرة الوُلوج إلى المكان المخيف، تناثرت الكثير من أوراق التقارير، والمراسلات، وبعض سجلّات الصّادر والوارد، خاصّة في مفرزة الأمن السياسيّ والعسكريّ، وقعت في أيدي النّاس بعدما دَخَلُوها، ومُعاينة قِلاع الرّعب على مدار أعمارهم، أما وقد رأوا تفاهة

الهياكل الكرتونيّة، المُتهاوية أمام إرادة الشّعب، وكلّ يبحث عن شيء ما بنفسه، أو فيما تبقّى من رِمَم، لم تَطُلْه ألسنة اللّهب والنّيران.
كثُرَتْ الإشاعات، والاتّهاماتً المُتبادلة بين النّاس، بالعمالة للأجهزة الأمنيّة، ظهر الكثير من الأشياء التي لم تكن متوقّعة، من بعض الأصدقاء لبعضهم، فظهرت تقارير عجيبة، ولكن أخطرها على الإطلاق، أنّ أحدهم قد أورد أسماء ثمانية عشر شخصاً من أبناء القرية، وفيه اتّهامات صريحة لهم بأنّهم ضدّ النّظام، وقاموا بالتّحريض على المظاهرات وتمويلها، وهم لم يفعلوا شيئًا من ذلك.
قناة الإخباريّة السوريّة، بثّت صور المباني المحروقة، مُعتبرة أنّ العصابات الإرهابيّة، قامت بالاعتداء على ممتلكات الدّولة، وهكذا كانت (**موْج**) أوّل قرية في سوريّة كلّها تحرّرت من قبضة المخابرات والشّرطة.
لأنّه لا توجد فيها قطاعات عسكريّة للجيش، كان من الممكن أن تؤازر موقفهم بالصمود.
تمّت إزالة كلّ رموز النّظام، في القرية دفعة واحدة، وإنزالها عن الدوائر الرسميّة والسّاحات العامة، من صور للرّئيس وأعلام، وإشارات، واستبدال العلم الأحمر والأبيض، بعلم الاستقلال الأخضر والأسود، حيث اتّخذت منه الثورة راية، ورمزاً لها. وأضافوا إليه بين النّجمتيْن، كلمتيْ الله أكبر.
جاءت العقوبات دفعة واحدة، انقطع التيّار الكهربائيّ، مُتصاحباً مع وقف خدمة الهواتف الأرضيّة و النقّالة والأنترنت.
انقطعت القرية عن العالم الخارجيّ، بحيث أصبحت (الموبايلات)، أو (الكمبيوترات) أدوات لا قيمة لها، كالجسد بلا روح، ولا تساوي من قيمتها إلّا القليل.

بدأ أهل القرية بالبحث عن أدوات الإنارة القديمة، من الفوانيس والشمعدانات، وزيت الكاز، والشّموع.
الأسعار قفزت بجنون بارتفاع حادّ غير مسبوق، ومع ذلك نفقت من السوق بسرعة فائقة، أمّا أجهزة الإنارة التي تعمل بواسطة الشّحن الكهربائيّ، فقد توقّفت عن العمل، بعد إيقادها في ليلة أو اثنتين.
استمرّت الكهرباء على هذه الحالة لمدّة أربعة أيّام، تتابع انقطاعها بعد ذلك، وتتصاعد فترة الانقطاع حتّى وصلت في إحداها لمدّة أسبوعين.
لكن القرية لأوّل مرة في تاريخها، ومنذ تأسيسها قديماً، فقد عاشت حوالي ثمانين يوماً، بلا شرطة ولا مُخابرات، ومن العجيب أن تتوقّف كلّ أعمال السّرقات التي كانت مُنتشرة قبل ذلك، رغم وجود الشّرطة، والأمن سابقًا.

***

أصبحت موضة القوائم المختلفة، تصدُر كلّ يوم بطريقة عشوائيّة لا مسؤولة، والأخطر هي قوائم المطلوبين المُتسرّبة من جهات أمنيّة، قيل أن تقريراً كتبته مجموعة من أبناء القرية، في مضافة أحد وجهاء الشّبيحة، اجتمع على كتابة هذا التّقرير الجامع المانع إثنا عشر شخصاً، أجمعُوا أمرهم على توريط (٢٨٠ فرداً) من كلّ أبناء ووجهاء القرية، جاءت مواصفات الأسماء بالاسم الثلاثيّ، واسم الجدّ، واللّقب الشخصيّ إن وُجِد، والاسم الفرعيّ للعائلة، نسبُوا فيه التُّهم جُزافاً، وكذباً، وزوراً؛ فتقيّدت حركة من وردت أسماؤهم، ولم يجازفوا بالمرور عبر الحواجز، الاعتقال شبح مسيطر على قلوبهم، ففي حالات الحروب تكثر الإشاعات، وتسري في جسم المجتمع كما تسري النّار في الهشيم.

ما حصل في القرية لا يخرج عن القاعدة هذه، بين فينةٍ وأخرى تظهر قوائم بأسماء المُخبرين، أوراق يتداولها أهل القرية بشكل علنيّ.
وتتويجاً للتّشهير بالفضيحة الكبيرة، راح البعض ممن يدخلون بأسماء وهميّة ينشرونها على (الفيسبوك)، فضائح على رؤوس الأشهاد، في كلّ مشكلة لا بدّ أن يصاحبها الصّواب في جوانب منها، وفي أخرى تتآخى مع الظلم ضدّ الأبرياء، فهم لم يكونوا على علم بما يدور، ولا بما كان يُحاك حولهم من دسائس ومؤامرات، لاعلاقة لهم بها لا من قريب، ولا من بعيد".
يتوقّف المحامي عن الكتابة، فقد تعبت يده، يرمى بالقلم على الطاولة، يتأفّف ضجَرًا، من هذه العوائق المُفتّتَة لوحدة الصفّ، وفشل توحيدها ضدّ النظام.
أشعل سيجارته، ثم استند إلى الخلف، أخذ نفساً عميقاً، امتدّت يده لالتقاط القلم من جديد، السّاعة تشير للثانية صباحاً، حاول أن ينهي هذه الفقرة، ويأوي إلى فراشه، فقد كدّه التّعب، وأضناه التفكير، والتركيز على تسجيل الحدث بدقّة متناهية وأمانة؛ لأنّه يعلم أنّه سيأتي اليوم، ليطّلِع القرّاء على مُذكّراته، تابع بعد أن استرجع قليلاً من حيويّته، بتناوله كأس ماء، مما جعل أعضاء جسمه المشدودة ترتخي، أسبغتْ عليه شيئاً من الارتياح. تابع التدوين من جديد.
"الظلم وقع علينا جميعاً من النظام، وها نحن نتظالم فيما بيننا، فنظلم أنفسنا أولاً بالاتّهامات التي نطلقها على الآخرين، ونظلم الأبرياء بنسبتهم إلى أعمال وأفعال لا نصيب لهم فيها، وبالتالي تتشوّه صورتهم لدى مجتمعهم، ربّما لن يفلت أحدهم من هذه التشويهات حتّى في قبره.
استمالت أجهزة المخابرات مجموعة من الأشخاص، ترغيباً لهم بأن يصبحوا من الوجهاء المُحْدَثين، الذين وُلدوا من رحم الأزمة، فكانوا صلة الوصل، والحلقة المفقودة اكتملت بهم، انْبَرُوا للتفاوض من أجل

استرجاع قطع السلاح الـ (٢٢) المُستولى عليها من الشّرطة، أثناء اقتحام الناحية، بعد مفاوضات ليست بالعسيرة، تمّ جمع قطع السلاح ممّن كان يمتلكها من الثّوار، وتسليمها عن طريق مكتب المحافظ، كانُوا قد حصلوا على وعود من رموز النّظام بعدم ملاحقة الشباب حَمَلَةُ هذه الأسلحة.
انتهت أوّل مهمّة بنجاح للوجهاء الجُدُد، بالتّالي استطاعت الأجهزة نزع السّلاح من أيدي ممن أطلق عليهم لقب (ثُوّار)، ضمنوا بذلك اقتحام القرية، حينما يقرّرون دون مقاومة، وينهون الوضع على طريقتهم، رغم أنّ قطع السلاح هذه لا تفي بغرض حماية القرية، أو حارة منها، أو تمنع دخول قوّات الأمن من الرّجوع إليها ثانية، ولكن ليَضمنوا عدم وجود أدنى درجات المقاومة المسلّحة، والتي من الممكن أن تُسبّب لهم إرباكاً وإحراجاً، وحفاظاً على عناصرهم".
استغراق المحامي بالكتابة، أنساه السيجارة في يده؛ فوصلت نارها لطرف اصبعه، شعر بلسعتها، رماها في المطفأة، وأشعل أخرى، غرق من جديد في سُحُب الدّخان، وهو يثعبُ عليها بنفس عميق، ثمّ كتب.

"حَظِي هؤلاء الوجهاء، بكسب احترام الناس لهم، كما تراءى لأنفسهم، طلبوا من فرع مخابرات السويداء، بأن يعملوا تسوية وضع للمطلوبين الواردة أسماؤهم في التقرير، بعد اجتماعات عديدة، حاولت الأجهزة توسيع الدّائرة قليلاً لتوريط آخرين، بانضمامهم إلى الوجهاء، انسحب من انسحب، وثبت منهم من ثبت بتواصله لمصلحة أبناء القرية.
كما كانوا يطلقون الوعود، بعدم اقتحام القرية، وعدم اعتقال أصحاب الأسماء المطلوبة، بعد تسوية أوضاعهم في السويداء. النتيجة.. التي لا مراء فيها، مراوغة الأجهزة لكسب الوقت، وتفتيت، وتشتيت العداء

للنّظام، كلّها كانت (**مواعيد عُرقُوب**)، ما حَدَث لاحقاً كان عكس هذه الصّورة المنقولة لأهل القرية، فكانوا أداة استهلكتها المخابرات، حتّى أنّه اعتقل العديد منهم، وعذّبوهم في أقبية الأمن.
هذا درس كان علينا جميعاً استيعابه، وأخذ العبرة والدّروس منه، بما يخدم أهداف ثورتنا، ويحفظ عليها وحدة الهدف دون تشتيت".

***

دخلت قوّات الأمن والشّرطة إلى القرية من جديد، وأعادت تمركزها في المربّع الأمنيّ السّابق، وأضافوا إلى مقرّاتهم المحروقة والتي عاث فيها الفساد والتّخريب مجموعة من الدّوائر المدنيّة القريبة منهم، مبنى دائرة الكهرباء، ومبنى دائرة المياه، ومبنى العيادات الخارجيّة المنفصلة عن المشفى.
وانتشروا في أماكن جديدة منها القلعة، لتعزيز القبضة الأمنيّة واستعادة السّيطرة على (**موْج**) بالقوّة، وهنا ظهر الدّور الفعّال للشّبيحة جليًّا، وكانوا الظّهير المُساند بقوّة لتوطيد أقدام الأمن، بحماية الطّريق الموصل للسويداء؛ ليبقى نافذة مفتوحة لرفد قوّات النّظام بالدّعم (اللّوجستيّ)، وقيل أنّ الأمن العسكريّ قام بتسليح(٢٥٠) شبّيح دفعة واحدة، إضافة لما كانوا يختزنونه من البداية.

***

تجمُّع للعساكر معزّز بعربة (BMB)، وسيارة زيل عسكريّة تقطر خلفها صهريج ماء، وسيّارة (بيك آب) منصوب عليها رشّاش (الدّوشكا)، يجلس خلفه جنديّ، قد بدا عليه التعب والإرهاق، كأنّ

وجهه مطليّ بالطّين، رأسه يتمايل بإرهاق من ثقل الخوذة الحديديّة، يتلفّتُ يمنةً، ويسرةً خوفاً من أيّة حركة، في هذا المكان المكتظّ بالسكّان، الذي لا تتوقّف الحركة عبره على مدار السّاعة، يبدو أنّه على أهبة الاستعداد، لأن يضغط على الزّناد، إذا ما حصلت مفاجأة ما أمامه أو قريبة من محيطه.
النّاس يتهامسون من هذه المفاجأة، وقد حصلت، لا يدرون ما يفعلون، فما كان منهم إلا مواجهة الخوف بالخوف.
قبيل الظهر جاء ضابط برتبة عقيد، طويل القامة ذو بشرة شقراء، ووجه طافح فيه شارب كثّ كأنّ يد الحنّاء قد مسّته، فأحالت لونه قريبًا من اللّون البرتقاليّ، صاحب المحلّ المجاور لهم على الزّاوية، الذي له بابان يفتحان على جِهَتَيْ الشّارع، خرج من محلّه، وهو يحمل لهم علب (البيبسي)، و(الكوكا كولا) والماء. "تفضّل سيادة العقيد"، انفرجت أسارير وجهه، بعد أن فتح علبة (البيبسي)، احتسى أوّل شفّة منها؛ راح يتشكّر النّاس على كرم ضيافتهم، أمام تساؤلات النّاس عن سبب مجيئهم إلى هذه النقطة، ابتسم لهم، وبَانَ بياضُ أسنانه المصفّر قليلاً من آثار التّدخين، أخرج من جيبه علبة دخان (مارلبورو)، أشعل سيجارة.
وانخرط في خطاب موجّهٍ للجماهير، أفصح فيه عن موهبة كبيرة مختبئة خلف هيكله العسكريّ، تنحنح، مجّ على سيجارته نفساً طويلاً نافثاً دخانها، فتكوّن حول محيط رأسه سحابة شبيهة بدخان القطار عند وقوفه قرب ساحة القرية.

أيها المواطنون، أيّها الشّرفاء، لعلّكم تفاجأتم بمجيئنا، الكثير يتساءل عن مهمّتنا، من الخير تواجدكم بهذا العدد الوافر، لأبلّغكم تحيّات القائد العامّ السيّد الرّئيس، الذي أخذ على عاتقه حمايتكم من المجموعات

الإرهابيّة، والعصابات السلفيّة، أمام هجمة المؤامرة الكونيّة على قُطرنا الحبيب.
مقاطعة: - تصفيقٌ حادٌّ -
صوت يجيء من خلف الجماهير يهتف: (بالرّوح بالدمّ نفديك يا بشّار)، يتفاعل النّاس هاتفين معه، يتعالى إطلاق الرّصاص من الجنود، الأمر اللّافت لانتباه المُحتشدين، على مدار خمس دقائق زادت حرارة الهتافات، مترافقة بالتصفيق، والعقيد ما زال يقف في مكانه، يتحيّن سكوتهم حتّى يتابع، خَفَتَتْ حرارة هتافاتهم، أخرجوا مناديلهم من الجيوب لمسح العرق المُتَصَبّب على جباههم.
نفث العقيد الدّخان من فمه. تابع خطابه: ما حصل لم يكن بالأمر الهيّن، فقد ظنّ الإرهابيّون أنّهم يستطيعون النيل من صمودنا في وجه الهجمات العاتية لكسر شوكتنا، هذا ضربٌ من المستحيل، فنحن دولة صمود ومواجهة، يقع علينا عبء كبير تجاه القضيّة الفلسطينيّة، وأرضنا المحتلّة في عام ١٩٦٧م.
- تصفيق حادّ، لكنّه أقلّ حرارة من المرّة الأولى -
الهجمة تزداد علينا من قطر، وتركيّة، والسعوديّة، والدول الرجعيّة المعادية لنهج قيادتنا الحكيمة، وها هُم قد أرسلوا الإرهابيّين، بغرض زعزعة صمودنا والنيْل منه، وثَنْيَنَا عن مواصلة مقاومتنا لكلّ خيارات الإستخذاء، نحن نتشرّف بكلّ يد مقاومة ممانعة تقف إلى جانبنا، لن نتراجع .. و لن نركع.
يقاطعونه بهتافات، تجعله يشتهي متابعة خطابه، يتنفّس الصعداء بتوقّفه. راح يمسح قطرات العرق المتلألئة على جبينه، في حين توقّفت الهتافات، والتصفيق، تابع:
أيها المواطنون:

خيارنا الاستراتيجيّ المواجهة حتّى النهاية، شعارنا الأسد، أو نحرق البلد، ولن نتهاون مع أيّ خارج على أمن الوطن مهما كان صغيراً، ولن نسمح للعصابات التي تتلقّى تعليماتها من العرعور، ذلك الإرهابيّ الفارّ من وجه العدالة، يختبئ هناك في أوكار الرجعيّة، مخلب التخريب والتحريض علينا، والتطاول على القائد ونهجه، و العبث بمقدّرات الوطن.

هذا الكلب الدجّال اللوطيّ نتيجته محتومة، وكلّ مُتَعَرْعِرٍ معه، عمّا قريب سترَوْنه ماثلاً أمام السّلطات المختصّة، لينال جزاءه العادل على جرائمه مع أتباعه المجرمين، ومن يحاول التّعاون معهم، أو التستّر عليهم.

هذه رسالتنا لكم، ومن لم يكن معنا فهو ضدّنا، ولن نتهاون مع أحد مهما كان، و أيّاً كان، نحن في معركة مصيريّة، إمّا نحن أو هم، وسنضرب بيدٍ من حديد.

مَنْ له تساؤل حتى نجيبه؟.

- ينبري رجل مُسِنٌّ، بسؤاله، يا بني: "وهل ستطول إقامتكم عندنا؟".

-: "لا يا حجّي نحن فقط لمدّة أسبوعين لإعادة الهدوء، والاستقرار لكم، ولقريتكم؛ ولنجعلكم آمنين في بيوتكم، بعد القضاء على الإرهابيّين، وسحق المجرمين. أطلب منكم أن تتعاونوا معنا لتسهيل مهمّتنا، تحيّاتي لكم".

تصفيق، وهتافات حارّة، تعبّر عن موقفها المؤيّد للخطاب، نبرة الخوف سيطرت على الموقف، جعلتهم يُظهرون مزيداً من الحماس والتأّييد.

كان النّاس في هذا المربّع من أصحاب المحلّات التجاريّة، والسّكان ممن بيوتهم قريبة، ومن العابرين لقضاء حوائجهم، تجمّعوا حول

الضابط، والجنود، وهم يتأمّلون وجوههم بصمت عجيب، قلوبهم ترتجف، وتتحرّق خوفاً من القادم المجهول.
ركب الضابط سيّارته (الرانج روفر) منطلقة بسرعة الرّيح، وسيّارات المرافقة تتبعه، وأخرى كانت قد سبقته في المقدّمة.
الحاجز احتّل مفترق الطرق الحيويّ، فجعل أوصال القرية **(مَوْج)** مقطّعة، بينما هو مفترق طريق بالاتّجاهات الأربعة المحلّات التجاريّة تتجّمع في هذه النقطة المهمّة، والاستراتيجيّة، يتمنّى كلّ من يريد ممارسة أيّ عمل تجاريّ، أو خَدَميّ، الحصول على موقع لموطئ قدم له، في هذا المكان الذي تتزاحم فيه الأقدام، ويعجّ بالناس على مدار السّاعة تقريباً.

***

ربضت عربات الجنود، ترجّلوا منها، وأنزلوا متاعهم وأسلحتهم، بمرافقة حراسة مكوّنة من دبّابة، وعربتيْ (بي إم بي) المُدَرَّعه، وهم يعتمرون الخُوذَات الحديديّة، وكأنّ المثلّث أصبح حقل بطّيخ في (السّحاري)، وقت كان الفلاحون يزرعونها في أواخر الربيع، في سِني الخير بعد أن ارتوت الأرض جيّداً في كانون الثاني (الفحل)، حيث أنّها لا تحتاج للريّ، والسقاية مرّة ثانية، وتكون قريبة على أطراف القرية فيها البطيخ، والشمّام، والقِثّاء، والبامياء، وعبّاد الشّمس على أطرافها، وتوضع الفزّاعات على أطراف الحقل لإخافة الطّيور، والوحوش من تخريب المحاصيل، إذا لم يكن هناك نواطير ينامون في السَّحْرَة.
أخذ الجنود أهبتهم القتاليّة على أتمّ استعداد، لمواجهة العدوّ المفترض لديهم، المختفي، والوهمي، كأشباح تظهر وتختفي، كثيراً ما تذهب بهم الظّنون والشّكوك، بأنّ كلّ سكّان البلد هم أعداء محتملون مُتّهمون بكلّ

أنواع الجرائم والمؤامرات، حالات الخوف الغريزيّ تتوالد عندهم، كما أنّ سكّان البيوت المجاورة للحاجز، يستغربون انخراط العساكر في نوبات إطلاق رصاص كثيف، وكأنّ المعركة قد ابتدأت هناك مع العدوّ على حدود الجولان، هم متحفّزون متوتّرون، أعينهم تبرق في جميع الاتّجاهات، يراقبون كلّ شيء، حتّى العصافير ممنوعة من الطيران مروراً فوقهم في السّماء، حجزوا جميع الاتّجاهات، منعوا النّاس، والسيارات، وكلّ شيء من الاقتراب من تلك المنطقة، النّاس غيّروا الطُّرُق التي يسلكونها لقضاء حوائجهم، إلى طُرُق إلتفافيّة بعيدة تكلّفهم الوقت والجهد، قسمٌ من الجنود اعتلى أسطح بعض البيوت، نصبوا عليها رشاشاتهم (البي كي سي) لحماية المنطقة، وإخافة النّاس بشكل عامّ، وبَنُوا المتاريس بأكياس الرمل.

مجموعة من الجنود تُطلق النّار في السّماء، لإشاعة أجواء الخوف والرعب في القرية؛ كي يعلم أهلها أنّهم أصبحوا هنا، وإنذار بالوَيْل، والثبور، والموت، والدّمار لمن يحاول الاقتراب منهم، بينما راح قسم آخر من الجنود يعملون بهمّة ونشاط، لإنزال وترتيب حاجاتهم، وأغراضهم، ووضعوها في جامع الحارة الصغير، في منطقة تفرّع الطريق إلى القرى المجاورة، بعد أن احتلّوه بقوّة سلاحهم، بطريقة ابتعدت عن اللّياقة، و احترام أماكن العباده.

في اليوم الثاني جاؤوا بجرّافة، جرفت التراب من حدائق البيوت المجاورة للموقع، بحيث يستطيعون تفتيش المارّة، ويحتمون وراء تلك السّواتر، كان هذا العمل جزئيًّا بحيث بقيت السّيارة تمرّ عبر الحاجز، بعد أن أخضوعها للتفتيش والتدقيق والتأكّد من هوية سائقها وراكبيها، سارت الأمور على هذا المنوال لفترة بسيطة، إلى أن خضعت المنطقة فيما بعد للإغلاق التامّ احترازاً أمنيّاً، واحتياطاً من عمليّات الثّوار المستهدفة للحاجز؛ بعد أن أصبح مصدر رعب وإزعاج.

***

غادرت أسراب الحمام أعشاشها خوفاً، وطلباً للنّجاة مبتعدة إلى مكانٍ آمن، أبعد من أسطح بيوت أصحابها المألوفة، عند الغروب عاد أحدُ هذه الأسراب بعد أن اطمأن على حياته، لم تطُلْ فترة الطمأنينة، حيث اعتلى اثنان من الجنود أحدهما يحمل رشّاشاً، والآخر يحمل بندقيّته الروسيّة على سطح البيت، واثنان آخران صعدا لسطح بيت مجاور للأوّل، لتأمين الحماية التّامة.

هرب الحمام ليلاً إلى جهة مجهولة، هدَتْهُ غريزته للنّجاة بنفسه، في هدوء النهار عاد، ورجع الهديل؛ لمعاندة الموت الذي يصبّه الجنود برصاصهم، يعلو فوق الأسطح في هدأة أزيز الرّصاص، رغم حصار من الأسطح المجاورة، هو يتشبّث بالعودة إليه..؛ لتكون الفاجعةً الكبرى، وغير المتوقّعة؛ لتصبح هذه الحَمَامَاتُ الجميلة والرقيقة، دريئة يتدرّبون بالرماية عليها، هؤلاء الجنود القساة، كلّ منهم حريص على اصطياد ما يقدر عليه منها، ضحكاتهم تتعالى بعلوّ صوت رصاصاتهم الغادرة، وهي تستهدف الحياة لكلّ ذي روح.

يختفي الهديل..، باختفاء طيوره، كان ذلك مؤشّر بداية بؤس سيحلّ على الحجر، والبشر من هؤلاء الهمج.

يفعلون ما يحلو لهم، دون مساءلة من أحد، أو حساب من رقيب على تصرّفاتهم الفاسدة، وانحلال خلقيّ، عندما يدوسون ببساطيرهم كلّ مقدّس، من كرامة النّاس إلى تدنيس بيوت الله، فقد تناقل للأسماع أن جنود الاستعمار الفرنسيّ، عندما كانوا يطاردون شخصاً مطلوباً لهم للقبض عليه، فإذا دخل مسجداً للاحتماء، والاختفاء بداخله، ينتظرون

لفترة أمام الباب، ولا يقتحمون حُرمة جداره، حتّى إذا طالت فترة مُكوثه بالدّاخل، تركوا المكان، وأصابهم الملل؛ فانصرفوا.
جنودنا البواسل ليسوا غزاة جاؤوا من الخارج، بل هم عربٌ أبناء جلدتنا، وهم حُماة الديار، سقط العديد من طيور الحمام جرّاء إصابتها برصاصهم، ونجا منهم من نجا..، بالطبع لم يَعُد سطح البيت سكناً آمناً لهم، ارتحلتْ أفواجها ولم ترجع أبداً، اختفى هديلها مُفسحاً الساحة للموت، والخراب.
هاجر الهديل .. سكن الموت مكانه.
هاجر الحمام .. أقام الجنود مكانه.
الطمأنينة هجرت النفوس، حلّ محلّها نوبات مُتتالية تمدّدت بأذرعة الخوف، كالأخطبوط يوصل رعبه إلى كلّ الجهات. استوطن الفزع نفوس جميع الأهالي المساكين، انسدّت الآفاق بعيونهم، صاروا نَبعاً لليأس القاتل، المدمّر لكلّ بارقة أمل مشرقة، أو كانت ستشرق في المستقبل.

***

سعدون، ابن خالة أبي فندي، كثيراً ما كان يلتقي به، ذلك لصلة القربى وثيقة العرى، ولِحُبّه الشديد لخالته أم محمد الودود ذات الوجه البَشُوش، وهي بالمقابل تُظهِر حبّها الكبير لابن أختها سعدون، كأنّه ابنٌ لها، أمّا الجانب الآخر للقائهما، فهو للتحادث في الأمور المستجدّة في البلد، والتعريج على أدبيّات هوايتهما المشتركة في تربية الحمام، فضلاً عن أن أبا فندي ابن خالته، محترفٌ، وهَاوٍ قديم لتربية الحمام، من الممكن الاستفادة من تجاربه وخبرته العريقة.

ذابت بهجة الحياة في محيطٍ من الضياع باتّجاه المجهول.. خرزة ملوّنة بيد سعدون، يتأمّلها، الدموع تنساح على خدّيه، يتحدّث بحرارة مترافقة بنشيج مكبوت يخرج من أعماقه بحرقة قائلة: "ابن خالتي انظر، أمْعِنْ النظر جيّداً في هذه الخرزة، فقد كانت مثبّتة برجل ذَكَرِ حمام بغداديّ، وجدتُ رجله مقطوعة أمام باب البيت، هذا الذّكر الأبيض النقيّ كقلوب الأطهار، اصطاده ذلك الجنديّ الأرعَن، أثناء عودته لعشّه، وهو يحمل الطّعام لصغاره".

بعد هذه الحادثة التي أدّت لقتل أعداد من الحمام، أصيب سعدون بحالة من القرف سيطرت على سلوكه في حياته، لم يَعُدْ مُقبِلاً على عمله في ورشته الصغيرة، لإصلاح الدرّاجات الناريّة وكهرباء السيّارات عامّة، صار يتغيّب عن عمله.

استمرّ بحالته تلك إلى أن أصبح يترك ورشته يوماً بأكمله، بينما يُداوم من يعمل لديه من الشّباب الصّغار، كمتدرّبين يتعلّمون المهنة على يديْه، يتواجدون، ويقومون ببعض الأعمال التي يستطيعون القيام بها حسب خبرتهم.

غادر الزبائن ورشته لمكان آخر مُبتعدين عن الحاجز، تفادياً للتفتيش، ربّما يؤدي بهم غالباً للاعتقال.

***

الشاب راضي ابن أخ المحامي خالد الهنيدي، مُقيم مع أسرته في العاصمة، اتّصل بعمّه: "السلام عليكم عمّو، كيف أنت؟".

- المحامي: "أهلا وسهلا، طمئنّي عن البابا والماما وإخوتك، ما هي أخباركم ؟".
- راضي: "كلّنا بخير".
- المحامي: "بعدما صدرت نتائج المفاضلة، في أيّ كليّة ستكون؟".

- راضي: "والله .. يا عمّو، سأسجّل في كليّة الهندسة المعماريّة، غداً إن شاء الله سوف أسافر إلى القرية، قاصداً شعبة التّجنيد من أجل إجراء معاملة للتأجيل الدراسيّ لي، واستخراج ورقة إخراج قيد مدنيّ من دائرة النّفوس؛ لاستكمال أوراق التّسجيل في الجامعة".
- المحامي: "أهلا وسهلاً، غداً سأكون بانتظارك، أخبرني عندما تتحرّك باتجاهنا، لكنّك لن تستطيع أن تعمل شيئاً في شعبة التجنيد، قبل استخراج الأوراق الضروريّة لإتمام التسجيل في الجامعة، وتأخذ منهم مُصدّقة لتقديمها إلى شعبة التجنيد، أرى أن تُؤجّل سفرتك، غداً أنا أستخرج لك إخراج القَيْد، وأرسله لك مع سائق الباص، وعندها تأخذ معاملتك للجامعة، وتحضر وثيقة الدوام معك (المُصدّقة)، بعد ذلك تأتي لمعاملة التأجيل".
- راضي: "الله يخليك لنا عمّو خالد، ها أنتَ وفّرت عليّ الكثير من التعب والسفر بلا فائدة".
بعد يومين اتّصل راضي بعمّه المحامي، ليخبره أنّه سيسافر للقرية في صباح الغدّ.
- المحامي: "أهلا، غداً أنتظرك، أخبرني عندما ينطلق الباص من دمشق".
- راضي: "إن شاء الله".

***

قُبيل العصر وصل راضي، تأخّر كثيراً لظروف قاهرة، خارجة عن إرادته، القلق سيطر على عمِّه، أخذته الظّنون لمآخذ بعيدة، كلّ الاحتمالات واردة في مثل هذه الظروف، فما إن حطّت قَدَمَا راضي الأرض، حتّى أخذه عمّه بالأحضان، أخذ نفساً عميقاً: "أقلقتني عليك يا رجل ..، على كُلٍّ، الحمد لله أنّك وصلت أخيراً .. رغم احتراق أعصابي من تأخّرِك".

راح راضي يحكي ما حدث معه على الحاجز، بالتّفصيلات الصغيرة، والمُمِلّة، وهما يتّجهان للبيت، فالغداء ينتظرهم، أنصتَ باهتمام لابن أخيه..، ولم يقاطعه، أو يطلب منه أيّ توضيح في أيّة نقطةً من الحديث.
في اللّيل بعد انتهاء كافّة أعماله ونوم عائلته، كعادته جلس يدوّن قصة راضي على الحاجز كما رواها، على الشكل التالي: "فاجأنا سائق الباص بإطفاء محرِّك المركبة، قبل الحاجز بكثير، مُتّخذاً مسافة عدّة أمتار عن آخر سيارة تصطّف في الطّابور، بانتظار دورها في التّفتيش، لاجتياز الحاجز اللّعين، فلا رحمة لكبير أو صغير ..، ولا لشيخ، أو امرأة، مِزَاج العسكريَ هو الذي يتحّكم بالموضوع.
الحرارة تكاد أن تتجاوز الأربعين درجة، النّوافذ مُشرعة، الباب مفتوح، سكون عجيب لنسيمات الهواء التي يتمنَّوْنها لاسترداد أرواحهم، روائح التعرّق تمتزج بأنفاسهم، فتُصدِر خلطة عجيبة، كانوا مُجبرين على القَبول بها، فالتأفّف لا ينفع، وعقارب الزَمان توقّفت عند هذا الحدّ.
شابٌ ينظر إلى ساعته مطلقًا تأفّفه: "أوف .. أف .. - بكلام مُغَمْغَمْ- ساعة مضت على توقّفنا هنا". يمسح العرق عن جبينه، ويعيد ترتيب نظّارته السوداء. يتابع كلامه بسؤالٍ للسائق: "هل تعتقد أنّنا سنتأخّر كثيرًا..؟".
- السّائق، يتنحنح نافثاً دُخان سيجارته، يرفع رأسه للمرآة الأماميّة ينظر للشّاب من خلالها، ويقول: "إن شاء الله لن نتأخّر، طابور السّيارات يتقدّم، بالصّبر سنَصِل بأمان، نصيحتي أن تُبرِّد على أعصابك، إن بقي منها شيء، هذا قدرنا ولا مفرّ ..".

- الشّاب صاحب النظّارة السوداء: "أعمارنا تتكسّر على نِصَال عقارب السّاعة، بلادنا غارقة في مجاهل بدائيّة، لا تعترف بقيمة الوقت، مَركَبَاتُنا تُحطّم سيف الوقت بدم بارد".

طفلٌ يتلوّى بين يديّ أمه، تُهدهِدَه تهفّ عليه بدفتر العائلة، هواء حار يلفح وجهه الذّاوي، تُخرج ثديَها فَتُلقمه إيّاه، وتُغطّي رأسه بطرف منديلها. دخانٌ منبعثٌ من الجالسين في الكرسيّ الأخير، تتكوّم السُّحُب في جوّ مشحون باليأس المُمِلّ، مُوظّفتان لم تنقطع ثرثرتهما عن الجارات، وغداء اليوم المطبوخ ليلاً، شخيرُ أحدهم يأتي لتزداد حالة القرف والتذمّر.

شابّان دون العشرين، يحتضن أحدهما قفصاً يختفي مع محتوياته داخل كيس، استنشقوا أنفاسهم بارتياح، على صوت مُحرّك الباص، وانتقاله مسافة إلى الأمام، ليصبح أمام الحاجز مباشرة. السّائق يطلب من الجميع تهيئة بطاقات هويّاتهم. وإيصالات الكهرباء المدفوعة حديثاً، لتجنّب المزيد من التأخير. غمرتهُم حالة من النشوة، فقد أخذ منهم التّعب كلّ مأخذ، وقتل فيهم الإحساس بالوقت.

***

تقدَّمَ عسكريّ للتّفتيش، واضعاً جُعْبته على صدره، بندقيّته على كتفه، على مسافة أمتار قليلة، يقف عسكريّ آخر كمؤازرة إذا ما حدث شيء طارىء.

جمع السّائق بطاقات الهويّة مع إيصالات الكهرباء، وقام بتسليمها للعسكريّ الواقف من جهته، وقال له: "تفضّل سيّدي، لكنّها ناقصة وصلاً واحداً، فذاك الشّاب ليس معه وَصْله".

نظر العسكريّ إلى راضي بنظرة شَزِرَة عابسة، الشّرَر يتطاير منها، وقال: "ألا تعرف أنّني سأعيدك من حيث أتيْت، ولن أسمح لك بالمرور". وهزّ رأسه بغيظ كأنّما يتوعّده، وأمر الشّاب الآخر بخلع نظّارته السوداء.
الحيرة تصيب راضي. يتلعثم لسانه: "سيدي - والله - لا عِلْمَ لي بالأوامر الجديدة، كما أنّني قدمتُ من العاصمة، قاصداً القرية من أجل إجراء معاملة تأجيل دراسيّ في شعبة التجنيد، واستخراج قَيْد سجّل مدنيّ، من أجل التّسجيل الجامعيّ أوّلًا ثمّ التأجيل الدّراسي".
- "اخرس .. اخرس ..(بلا علاك فاضي)".
بلع راضي ريقه بامتعاض، بدت علامات الغضب المكبوت على ملامح وجهه المُتورّد خجلاً لهذه الإهانة أمام الآخرين. رانَ صمتٌ ثقيل على الأجواء، بينما العسكريّ توجّه للخيمة لفحص أسماء الرّكاب على جهاز (اللابتوب)، ومطابقتها مع قوائم المطلوبين، أمام الخيمة يربِضُ رامي الرشّاش خلف سلاحه متأهّباً، قريباً منه الحُرّاس، كلّ يتّخذ زاوية تُشرف على الميدان.

***

صراخٌ حادٌّ صدر عن إحدى المُوظّفتيْن، انقلب الصمت إلى ساحة معركة، بدأ كلّ حارس يطلق النّار بشكل عشوائيّ، خرج ضابط برتبة ملازم أوّل من الخيمة بملامحه الغاضبة صارخاً: "ما بكم، وما الذي حدث؟".
صوت جماعيّ للعساكر: "سيّدي، صراخ في الباص".

بينما انفلت باب القفص، خرج جِرْذٌ أبيض، يستخدمه الشّاب لِسَحْبِ أوراق الحظّ للراغبين، فيحصل منه على معيشته في مساعدة والدته الأرملة في تربية أخواته، تلقّى الجنود أمر الضابط بتطويق الباص وتفتيشه، بينما ينتهي هو من مطابقة الهويّات.
- العسكريّ: "من الذي صَرَخ، وأحدث تلك الضجة؟. ألا تعلمون أنّكم صدَّعتْم رؤوسنا؟".
- الموظّفة: "سيدي، جِرْذٌ تسلّق على رجلي، وحاول قرض كُنْدَرَتي".
انخرط العساكر بنوبة ضحك هستيريّة، آذانهم غير مصدّقة ممّا سمعوه من السيّدة الموظّفة. كبير العساكر يرفع حاجبيْه مُتعجّباً، ويقول: "من أين جاء الجِرذ إلى الباص؟. يا للغرابة ..!!.
- بلهجة الأمر-
هيّا انزلوا إلى الأرض، ابتعدوا إلى هناك، هيا بسرعة".

***

جرت عمليّة تفتيش دقيقة للباص، كاد أن يختفي أثر الجِرذ، إلا أنّ أحدهم أدخل الحَرْبَة الموصولة بمقدمة البندقيّة، في فتحة صغيرة تحت كرسيّ السّائق، ليخرج الجِرذ مذعوراً.
صرخ العساكر: "اقتله .. انتبه، هرب باتّجاه الأرض".
صوّب أحدهم رصاصة لتخترق الجِرذ، وتخرج منه لتستقّر في دولاب الباص الأماميّ، ينزّ دمه بقطرات على الباب الأيمن، وترسم لوحة كئيبة بسرياليّة حزينة، تُضاف إلى الدمّ السوريّ المهدور.
يأتي دور الشّاب صاحب الجِرذ، ليأكل نصيبه صَفْعًا وركلًا وضربًا بأعقاب البنادق من المُفتّشين. وقع أرضاً، الدّم نزف من أنفه، حملوه للباص فاقد الوعي.

خرج عسكريّ من الخيمة، نادى على الشابّ صاحب النّظارة السوداء: "تعال بسرعة".

داخل الخيمة وقف أمام طاولة الضابط، وراح يستجوبه، عن اسمه ومواليده، واسمَيْ والده ووالدته. ثم تحوّل لسؤاله عن مشاركته في المظاهرات. نفى الشّاب نفياً قاطعاً أيّ اشتراك أو نشاط له.

ثم التقط له الضابط صورة له بواسطة (كام اللابتوب)؛ كي يقارنها بالصُّور المخزّنة عنده، مُستخدِماً برنامج عارض الصور (بيزاكا)، الذي يُصنّف الوجوه حسب نقاط التّشابه، بعد لحظات من عمليّات البحث والمطابقة أمره بالانصراف.

خلال هذه الفترة قام السائق بتبديل الدّولاب الذي اخترقته الرّصاصة، وانطلقوا إلى وجهتهم.

في صبيحة اليوم التّالي، تناول راضي مع عمّه طعام الإفطار، وتوجَّها لشعبة التجنيد.

***

(٤)

الطفل سامر عمره أربع سنوات، ينام على ذراع أمّه، وقد هدّها التّعب من أعمال البيت اليوميّة المُتناسلة بلا انتهاء أبداً، مُتجدّدة

باستمرار كنبع القرية، دفّاقة بمستجدّات كثيرة، تمرّ الساعات الطويلة عليها فلا تستطيع حكّ رأسها، من نظافة البيت التي تستغرق كلّ اليوم، وتستنزف كثيراً من جهدها، على مدار الساعات يرمي الأولاد قصاصات الأوراق، وبقايا قُلامات الأقلام المَبْرِيّة على الأرض، والأب من هناك يصيح:
- "يا أمّ سليم، ما هذه الأوساخ، ومن الذي فعل هذا؟".
الأولاد يُنكرون فعلتهم، يختَفُون من وجه أبيهم خوفًا من العُقوبة، بينما أمّ سليم .. تعلو ضحكتها المُتردّدة المُنهكة كما جسدها، تستعجل خُطاها؛ لتقف أمام الزوج الغاضب من الأولاد، لترطيب الموقف، تسترضيه بقولها:
- "يا حبيبي، أنت تعرف الأولاد، رغم توصياتي المستمّرة لهم، أفعالهم كثيرة، مشاريعهم لا تنتهي أبداً، الشقاوة طبعهم، لا عليك.. لا عليك، سأصلح ما أفسدوه".

***

تذهب إلى المطبخ، وتعود بسرعة تحمل بيدها اللّمَامة البلاستيكيّة، تُجمِّع بها ما تناثر من بقايا الطعام بحركة نشيطة، وتطلب منه أن يستريح.
يجلس، أنفاسه الحرّى تتدفّق كأنّها فحيح أفعى، تنطلق مع سحب دخان سجائره. تأتيه بفنجان قهوته المعهود المُخصّص له وحده، فلا يستخدمه أحد غيره من أفراد العائلة، كلّهم يعرفون أنّه خاصّ للبابا.
وضعت أمامه الصينيّة عليها الفنجان مع صحن السجائر، ورفيق القهوة الدّائم المتلازم كأس الماء البارد.
- وقالت: "هل تريد شيئاً آخر أحضره لك؟. قبل أن أبدأ بتجهيز الغداء؛ فالجوع يكاد يقتلهم، كما تعلم فإنّ ذلك يسبّب لهم النرفزة، والمشاغبة

المُتصاحبة بالصراخ وإصدار الأصوات العالية، مثلما يحدث في المدارس، خاصّة في الحصص الأخيرة.
هذا ما علمتُه، وعرفتُه من فترة في محاضرة تربويّة، خلال متابعتي لها على إحدى الفضائيّات".
هزّ رأسه، وهو يتلمّس شاربيْه، بحركة عصبيّة نزقة، متأمّلًا بُخار القهوة المتزاوج مع دخان سيجارته المتصاعد بوتيرة عالية، لأنّه يسحب منها بنَفَسٍ عميق وينفثه إلى أعلى، الضيق يكسو ملامح وجهه الأسمر ذي اللّحيةِ الخفيفة، كأنّ هُناك أمراً عظيماً، يلحّ على أفكاره، ويستولي على اهتماماته، استغراق وحالة من الشرود، أخذته إلى الذُّهول عمّا حوله، وقد اتّسمت حياته في هذه الفترة - وللمرّة الأولى - بِقِلّة الكلام، لم يحدُث له مثل ذلك من قبل، إلّا في حالات نادرة جدّاً منذ بداية حياته الزوجيّة، كما ذكرت زوجته فيما بعد، وعلى ذمّتها.
وهي تتذكّر تلك الحالة المفاجئة قد أصابت زوجها، ولم تستطع أن تسأله لكي لا تزيد الهموم عليه، بل حاولت ترطيب الأجواء، بعد أن جاءت بإبريق الشاي قبل انتهائه من شرب فنجان قهوته.

***

ذهبت أمّ سليم إلى المطبخ ساهمة الطّرْف لاتدري ما الذي ستفعله، داهمتها حالة نسيان مفاجئة لم تعُدْ تتذكّر. صراخ سامر صدّع شرودها مُنبّهًا لها، وبلا وعيٍ منها استدارت راكضة تجاه مصدر الصوت، رفعته عن الأرض إثْرَ سقوطه عن السرير، حضنته وراحت تُهدهده، وتضع يدها على فمه محاولة إسكاته وتُقبّله.
فما إن وصلت به المطبخ ثانية، هدأ وسكت عن البُكاء، أجلسته أمامها على بلاطة المَجْلَى، وناولته قطعة حلوى تلهّى بها.

فكرة مرعبة راودتها، لكنّها لا تعلمُ مصدر هذا الرّعب الداخليّ المُسيْطر عليها، واشتعلت الأسئلة في ذهنها.
هل من الممكن أن تزداد الأمور سوءًا؟.
هل ستطول بنا هذه الحالة؟.
هل من الممكن أن يستجيب النّظام لرغبة الشعب ويغادر؟.
هل النّظام قادر فعلًا على لملمة الأمور، واحتوائها؟.
انفتحت نوافذ لا حصر لها من الأسئلة، وازدادت الهواجس في عقلها، ومزيد من التكهّنات المعقولة وغير المعقولة من التساؤلات الصعبة وكلّها بحاجة للأجوبة. بفطرتها الأنثويّة الشفّافة أحسّت بطيف من غيهب الظّلمات. يصيح بأعلى صوته:
- "إنّ الأمر جلَلْ وجدّ خطير، وهذه الأسئلة حقيقة لا جواب لها، اقتنعي وارتاحي، واختاري طريق النّجاة لمن حولك، فلا فائدة من الانتظار، الأمور ستتعقّد لدرجة مُحيّرة جدًّا".
وزادت الأخبار الآتية عبر الفضائيّات على مختلف انتماءاتها، تعاظمت حالات التوتّر النفسيّ لمعظم النّاس، القلق سيطر على الحياة، الأخبار في المجالس والمحلّات، إدمان عجيبٌ عليها على مدار السّاعة، الكثيرون جفاهم النّوم من متابعاتهم التي لاتنقطع إلّا إذا أرهِقُوا، وهدّهم التّعب، واستسلموا لسطان النّوم غصبًا عنهم.
(تسونامي) الأخبار اجتاح كلّ السّاحات الاجتماعيّة المختلفة، لم ينجُ منه أحد، إلّا أصمّ أبكمٌ أو فاقد عقل.
أمّ سليم أصابتها فوضى عاثت فسادًا بهدوئها المعهود، وعجزت عن ترتيب أفكارها ثانية، تذكّرت بعد أن توقّفت العاصفة، وصمت ضجيجها، ما الذي يجب أن تطبُخه.
خفّفت نار (البوتوغاز) تحت طُنجرة الأرزّ، وحضّرت جاط السّلطة، وباقي مستلزمات الغداء.

طفلها ما زال على جلسته الهادئة، وهو يقضم حبّة خيار بعد أن انتهى من الحلوى والبسكويت، سكونه أتاح لها إنجاز عملها بزمن قياسيّ.
رغبتها في الجلوس إلى زوجها داهمتها، حاولت اقتحام عالمه لاخراجه مما هو فيه. جلست بجواره، وسامر في حضنها يتطلّع بعينيْه بلا تشويش، مطمئنّ في حِجْرِها، وراحت تستعرضُ ما عنّ لها من هواجس، وتساؤلات مما خطر في ذهنها أو لم يخطر.
يسمع لها وعيونه مُركّزة على التلفزيون، ويُقلّب من محطّة إلى أخرى بتوتّر ظاهر على ملامحه.
آثرت الإنطواء على نفسها ثانية، وتبادلت مع عالمها إجترار هواجسها، وهي تحتسي مرارة ما طرأ مُجدّدًا وحدها، فتُحلّل المواقف حسب فهمها، وتُعيد تركيبها. وعلى رأي الفلّاحين في القرية: **(فهي تدرُس وتُردّد وحدها)**، هذا في أيّام البيادر، حينما يدرسون القشّ المحصود في البيْدر باللّوح الخشبيّ الذي يجرّه الحصان، ويدور به مع ثقل كبير عليه حتّى تكون فعاليّته قويّة.
أشاح عنها طيلة حديثها ولم ينظر في وجهها، أخذت تتقاطر الهموم عليه تَتْرَى، من متابعته لـ(الجزيرة والعربية والبي بي سي، وغيرها)، يحمل (الريموت كنترول) بيده، يكبس أزراره بانفعال، ومن يجلس بطرف الصّالة يسمع صوت جهاز (الريموت) يئنّ بقبضته، بالطبع هو غائب في عوالمه عمّا يجري حوله، إلّا أن صوت أمّ سليم فاجأه. عندما أعلمته، بعد عودتها من المطبخ ثانية:
- "طّعام الغداء جاهز يا حبيبي، هيّا".
لم ينتبه لها وهي تقف متّكئة على باب الغرفة، ولم يستجب لقولها، ما زال مُتسمّراً بنظراته على شاشة التلفزيون؛ مُتابعًا لمشهدٍ مُرعبٍ في مدينة بانياس، وهي إحدى المناطق المُلتهِبة بعد درعا مباشرة، تتعرّض للقصف المدفعيّ، قال مُنَفِّسًا عن غضبه:

- "أولاد الكلب .. انظري دمّروا المبنى، تهدّم على رؤوس ساكنيه، أكثر الضحايا من النّساء والأطفال".
- أمّ سليم: "يا الله.. ما الذي يحدث لنا، أنحن في حلمٍ أم علمٍ؟، يا ألله تسترنا، وتحفظنا في أوطاننا".
تقف منكسرةً، الدموع تملأ وجهها مُنساحة تهمي كغيث في يوم ربيعيّ، غير آبهة بالمناديل التي تُجفّفها. تتابع قائلة:
- "يا ويلهم من الله على ما صنعوا بهؤلاء الأطفال، ماذا فعلوا .. ما هي جريمتهم؟. تراودني شكوك أن يكون هؤلاء الأطفال إرهابيّين وسلفيّين، وكأنّهم هم الذين يُقاتلون النظام.. والله ..!!، لم يبق غير هذا حتّى يُعلنوه على قناة الدّنيا عن هؤلاء الأطفال، عليهم من الله ما يستحقّون من قتل البراءة .. وخنق الزهور في مهدها ..".
هي ما زالت مُتحجّرة بمكانها، كصخرة لا تتزحزح، كعمود جامد، دموعها تنهمل، بلّلت صدرها.
انتبهَ .. من غفلته عنها، وهو مُنسجمٌ لدرجة التوحّد مع أخبار تأتي على قلبه كهبوب سَمُومٍ لا تُبْقِي ولا تَذَر، لا يستطيع أحد الإفلات من آثارها السيّئة، والمُخَرّبَة للعقول والنّفوس، بما تصيبه من اهتزازات، فتجعل السليم سقيماً، يحسّ بالآلام والأوجاع، والمرض النفسيّ قد أصاب الجميع دون أن يستطيع أن يفلت منه أحد.
تمتدّ يد أبي سليم إلى الطّعام، بنظره يُتابع المذيعة الأنيقة بمكياجها، وتدويرة وجهها الجميل، المُتناسب مع دورها في إذاعة هذه الأخبار الضارّة المنعكسة سواداً، واكتئاباً على وجنتيْها الورديّتين، فأصبحتا بمرور الوقت تميلان لِلَوْنٍ كُحْلِيّ.
وضع اللّقمة الأولى في فمه، فتيبّس حلقه وجفّ ريقه، ناولته الزوجة كأس الماء، شرب منها قليلاً، حاول ازدراد اللّقمة، استعصت على

كلّ الطرق والوسائل، قرّب يده أمام فمه؛ فأخرجها ووضعها أمامه على طبق الطّعام.

وقال: "رأيتُ صورة اختصرت المزيد من الكلام، ولا تنفع فيها التحليلات والتأويلات، ومهما قيل فيها، برأيي قليلٌ جدًّا. جثّة امرأة عجوز نتيجة لهمجيّة القصف في ساحة بيتها الريفيّ في بانياس، وجهها ممرّغ بالغبار والأتربة. قِطَع الحجارة والإسمنت المتطايرة تحيط بها كغابة، وَقَع طقم أسنانها من فمها، الذي فَقَدَ القدرة على الاحتفاظ به، وظهر أمام وجهها المُمرّغ بالتُّراب. بالأمس كانت هذه الأسنان تعينُها في مضغ الأطعمة وتنعيمها، ليسهل عليها ابتلاعها.

والآن هاهي ملقاة مع الحطام، و ما دلّ عليها إلّا انعكاس أشعّة الشمس على سنٍّ ذهبّي في مقدمة الفكّ العُلويّ".

رغم ارتفاع صوته على أساس أنّه مُتيقّنٌ من استماعها، لكنّه حقيقة لم يَدْرِ أنّه يُكلّم نفسه؛ فأمّ سليم زوجته مشغولة بكفكفة دموعها، لم تنبته له، ولم تَعِ شيئًا منه، وهي ساهمة ساهية لاهية.

يتناول أبو سليم لقمة أخرى؛ ليُسكت قرقعة أمعائه بلقمتين، اللقمة الأخرى أيضاً توقّفت في منتصف حلقه، تحشرجت أنفاسه، ناولته كأس الماء ثانية، شرب قليلاً نزلت اللّقمة قليلاً، وما زال السّعال والحشرجات تعاوده إلى نصف ساعة بعد الطعام، والدّموع على وجهه المُحْمّرِ كالشوندرة الناضجة، أشار إليها بأنّ نفسه قد عافت الطعام، لا يدري ما الذي جرى له فجأة؟.

أشعل سيجارة أخرى مباشرة قبل أن يطفئ نار الأولى.

***

دروبٌ تمزّقت .. أخرى تلاشت .. زاغت الرؤى، حار الدّليل، تبدّدت الشجاعة لدى الكثيرين، صارت كبقايا خيوط واهية، أوْهَى من بيت العنكبوت، ربّما يكون بتفاهته أكثر صموداً مما لدى كثير من النّاس الذين شابَتْ قلوبهم تعباً من شدّة الهوْل، ومن أبواب جهنّم المُنفتحة عليهم، يُصْلَوْن بنارها على مدار الساعة، يكتَوُون بسعيرها المتأجّج.

تمنّت أمّ سليم أن يتابع العودة إلى الطعام، ويملأ بطنه من طبخة اليوم، كان يشتهيها منذ زمن، وطلبها بنفسه لحبّه الشديد لها، رغم غلاء تكاليفها، وقد انتظر حتّى استلم الراتب الذي انخفضت قيمته الشرائيّة إلى النصف، رجع إلى الخلف وسيجارته بين أصابعه، رشف من فنجانه الذي تركه على الطربيزة قبل محاولته الفاشلة مِلْءَ بطنه من الطّعام.

مجّ الدخان بقوّة، ضغط على شفتيْه، كأنّه يعاقب نفسه أو ينتقم من السيجارة، لاحظت أمّ سليم ما حصل لكنّها لم تعلّق، خصوصاً أنّها تُراعي مشاعره كثيرًا، وهي ترى تعبه الجسميّ، والنفسيّ في هذه اللّحظة، حاولت أن تتشاغل عنه بطلبها من الأولاد تخفيض أصواتهم؛ ليسمحوا لوالدهم بسماع نشرة الأخبار، لم يَطُل به الزمن وهو على هذه الحالة، فانتهت عند آخر نفس سحبه من السيجارة عندما أطفأها في المِنفَضة، وارتشف ما تبقّى من فنجان القهوة، قام مُسرعاً إلى غرفة النّوم ليرتاح من العناء والمعاناة، النّوم في هذه الساعة أصبح برنامجاً يوميّاً له منذ فترة من الزمن، ربّما تطول نومته حتّى الغروب، وأحيانًا تقتصر على أقلّ من ساعة.

***

لكنّ اليوم جاء مُختلفاً بكلّ شيء على غير عادته، ما إن دخل الغرفة، علا نداؤه على زوجته، أطلّت برأسها لترى ما يريد، أشار إليها أن تأتيه هزّت برأسها، أغلقت الباب راجعة للصّالة، رفعت بقايا الغداء لكي لا يعبث به الأولاد، صاحت مُنبّهة على الأولاد ثانية:
- "أن البابا، ينزعج من أصواتكم، اخفضوها".
دخلت، بعد أن فهمت الإشارة، فخلعت، استلقت في الفراش لتجده مثلها عارياً تحت اللّحاف، تمرّ ساعة قد لفّت البيت بالصمت، إلّا من بوح الأجساد برغباتها، يعلو ضجيجها في هذه الفترة من النهار بعد انخفاضه طويلاً، ساعة جاءت حُلُماً مُجافياً لنغمة الواقع، كأنّها لحظة لالتقاط الأنفاس أتعبها اليأس والإحباط، لحظة نسيان أنهكت الأجساد بلذّة؛ فخلدتْ للنوم قليلاً. اللّيل استحال هاجساً مُخيفاً، يدير كؤوس الرّعب على قلوب عامّة النّاس، بسبب القصف الليليّ العشوائيّ، وأزيز الرصاص المتقطّع أصبح مألوفاً، فجفا النوم عيونهم، وأحياناً كثيرة صار أمنية لديهم.
يبدو أن هذه اللّحظة الحَمِيميَّة أصبحت غريبة عن واقعها، وسياقها الطبيعي رغم أنّها حاجة ضروريّة كالأكل والشرب لا يُسْتغنى عنها، بعد أن اضمحلّت، كادت تنطفئ جذوتها، فلا راحة ولا هدوء، بينما افتقدها الكثيرون منذ مدّة طويلة، ما عادوا يذكرون شيئاً منها إلا الترحّم على ماضي قوّتهم، إلا أنّها مُترسبّة في قاع ذاكرتهم، من بقايا ذاكرة الأمس، لم ينسوها.
سنة مضت على هذه الحال، والحياة بانحدار نحو المجهول.. أين الفرار؟، لا أحد يدري ..!!.

***

أَوَتِ الأسرة إلى فراشها بعد يوم شاقّ من الإرهاق، وشدّ الأعصاب، لم يمض بعض الوقت حتّى خرجت قذيفة من حاجز ساحة القرية، سقطت قريبة من بيت أبي سليم، صرخ الطفل سامر المُتّكىء برأسه على يد أمه، وهي تهدهده منذ نصف ساعة، قام الأولاد جميعاً؛ الفزع يعلو وجوههم، حسبوا أنّ القذيفة أصابت جزءًا من البيت.

استنفر الأب، قام بسرعة ينظر من خلال الشبابيك بشعره المنفوش، وهو يهرول على الدرج صاعداً إلى السّطح، ليتبيّن أين سقطت؟، يعود على مهله يجرّ خطواته ببطء شديد، مردداً:

- "الحمد لله جاءت بعيدة عن البيوت، في مزرعة أبي نوّاف الغمري المقابلة لنا من الجهة الشرقيّة".

تناول كأس ماء بارد من الثلّاجة مباشرة؛ حمد الله وعاد لفراشه، بعد أن طلب من الأولاد أن يعودوا لنومهم، ويتوكّلوا على الله.

أطفئت الأنوار من جديد، عاد الأولاد كلٌّ إلى فراشه، لكنّ أبا سليم جفاه النوم، ترك فراشه ودخل إلى غرفة الضيوف. جلس وقام بتشغيل (الكمبيوتر)، ليستطلع صفحات تنسيقيّات الثورة على (الأنترنت)، لعلّه يحصل على خبر يطمئنه، ويجعله يستقرّ وتهدأ أعصابه التّالفة، فكره مشغول بهذا القصف العنيف المتكرّر والاشتباكات اليوميّة التي لا تتوقّف، وما خلّفت من نتائج على أهل القرية التي كانت آمنة.

جلس وقلّب الصفحات الإخباريّة على (الأنترنت)، فلم يجد ما يشفي غليله، رجع إلى التلفزيون، راح يُقلّب من محطّة إلى أخرى، وهكذا حتّى أذان الفجر. تكالبت عليه الهواجس، كادت أن تأكل كبده، قام فأدّى الفريضة وذكر الله قليلاً، عادت الطمأنينة إلى قلبه، عاد ثانية إلى لفراش بعد أن كلّ جسمه، استسلم لنوم عميق خلال ساعتيْن قبل ذهابه إلى الدوام.

بعد طلوع الشمس كانت أمّ سليم تدخل من غرفة إلى غرفة، بحركة عصبيّة مليئة قلقاً وخوفاً، وقد استجمعت قواها من جديد بعد ساعات من سقوط القذيفة قُربهم، الحيْرة تُشَتِّتُ قدرتها على التركيز في هذا الصباح.

- أمّ سليم تدعو، بصوت مسموع: "ربّاه، أجرنا من المصائب، يا ربّ احفظْ لنا أولادنا، يا ربّ .. الخ..".

حاولت إشغال نفسها بترتيب المطبخ، وتنظيف الصّحون التي خلّفها العشاء، تتطلّع إلى السّاعة المعلّقة على الجدار، كأنّ الوقت توقّف، بدقائقه وثوانيه البطيئة، أو أن عقاربها قد رُبطَت بحبال، ارتفعت الشّمس قليلاً، بدأت أشعتها تبعث الدفء في أركَان البيت، وتدبّ الحياة باستيقاظ الطفل سليم، وبحثه في الغرف عن أمه، فوجدها تجلس على البرندة، وهي تنظّف حفنات من العدس والبرغل، لتخليصهما من الشوائب، للإعداد، والتجهيز من أجل وجبة الغداء.

- سليم: "صباح الخير ماما".

كان يعبث ببقايا طلقات وقذائف، قام بجمعها من محيط البيت، صحا أخوه وسيم أيضاً، راح يصرخ عندما لم يجد أغراضه الخاصّة من بقايا رصاصات، كان يلعب بها في الأمس، حيث أنّ أخاه سليم استولى عليها، صراخه يدوّي في رأس أمه كأنّه صُداع مزمن سكن في رأسها من قلّة النوم، ودوّامة التفكير، وشدّة خوفها عليهم، لاسيّما وأنّه خلال الشهر الماضي بينما الصبّي وسيم يلعب أمام البيت ويلهو، إذ مرّت طلقة من الحاجز فوق رأسه لترتطم بالجدار مُحدِثَة ثقباً، يستقرّ المقذوف داخل فراغات الطّوب. حينها سعى الأخوان سليم ووسيم لاستخراج المقذوف، ولم تُعْيِهِم الحيلة في أن يجلبوا قطعة من المغناطيس مثقوبة من الوسط، ويربطوها بسلك معدنيّ، وينزلوها داخل الثقب، ليلتقطوا القطعة المعدنيّة، وهكذا استخرجوها، فكانت

فرحتهم كبيرة بذلك، بينما والدتهم أخذت تهدهد سامر الصغير وتنظّفه وتلبسه وتناوله قطعة بسكوت راح يقضمها بِنَهَم لإسكات جوعه حتى تجهيز الفطور، كلّ ذلك وهي في عالم آخر من الاستغراق في دوّامة الأفكار، وتحدث نفسها:

- "ما الذي يحصل لنا يا رب؟.
ما الذي فعلناه حتّى نستحقّ كل هذا العقاب؟.
ما ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء؟. وما .. وما .. وما ..".

استجمعت قواها، وخلصت إلى أنّه يتوجّب أن يغادروا، فقط أن يغادروا إلى أيّ مكان، طلبًا للأمان والاطمئنان.

بينما جاء صوت زوجها عندما استيقظ، فألقى عليها تحيّة الصباح، وهو يستمع لصوت المذيعة القادم من التلفزيون تقرأ نشرة السابعة جاء فيها: أنّ قوّات الجيش تُداهم منطقة دوما في ريف دمشق، وبانياس، وأحياء في اللاذقيّة، مصحوباً بإطلاق كثيف للنيران، وقتل العديد من المواطنين، واعتقال آخرين.

الدّموع تترقرق في عينيْها، اختفى صوتها بنشيج مكبوت، لسانها يتلعثم، وهي تقول:

- "يا أبا سليم، من أجل هؤلاء الأطفال، كرامة لله أن توافقني أن نخرج من الحارة، لأنّها أصبحت مُستهدفة باستمرار، رغم أنّني ما كنت لأتخيّل أن ينهار حلمي في هذا البيت، وقد بَنَيْنَاه بعرق الجبين، كلّ لبنة فيه شاهدة على ذلك، لكنّ الروح غالية، نحن نريد أن نعيش فقط من أجلهم".

نظر إليها بعينيه الذابلتين، مُشيحاً بوجهه عن أشعّة الشمس المُنعكسة عن البلاط، وهو في طريقه للحمّام، بينما هي داخلة للمطبخ بسرعة لتهيئة فنجان القهوة تزامنًا مع خروجه.

اليوم على غير عادته خرج سريعًا من الحمّام، بدون أن يحلق ذقنه، وهذا غير معهود في حياته اليوميّة، فهو مختلف تماماً. جلس على الكنبة في الصالة، أشعل سيجارته، أحضرت فنجانيْن من القهوة، جلست قبالته، راحت تتأمّله والحيرة بادية عليها. أعرب لها عن مزاجه المُتعكّر، وفي نيّته التغيّب عن دوامه، وأنّه سيتّصل بمديره لإبداء عذره.

سألها إذا كانت قد سمعت شيئاً من الجارات بخصوص ما حدث في الحارة ليلاً؟.

فأومأت برأسها أنّها لم تقابل أحداً، ولم تخرج من البيت، لانشغالها بالترتيبات اللّازمة، من جديد ترقرقت الدموع بعينيْها؛ راحت تبثّهُ خوفها على الأولاد، حتّى وصلت لقرارها الأصعب في حياتها، بمغادرة البيت حتّى تهدأ الأمور.

رنّ جرس التلفون، قامت للرد: "أهلا أبا فندي، ربّي يسلم حالك، طمني عنّك وعن أولادك وأمّ فندي وحماتي، كيف أنتم؟، ربي يحفظكم، والله نحن لم نذق طعم النوم البارحة، ربّنا سلّم، جميع جيراننا بخير لم يُصَب أيّ شخص بمكروه، الحمد لله، نعم نزلت القذائف في مزرعة أبي نوّاف الغمري.

(ابن خالة أبي سليم، تربطه بهم علاقة طيبة متينة، وهو يُقارب أبا فندي في العمر، وكانا يدرسان بنفس الصفّ)، ربّي يسلمك ويجبر بخاطرك بأمان الله".

- تابعت أمّ سليم، موجهة كلامها لزوجها، بعد أن وضعت سمّاعة الهاتف في مكانها: "والله أخوك أبو فندي رجل ذو ذوق ونخوة، وفيه الخير والبركة، أبدى لي قلقه علينا، وتأخّر في اتّصاله لأنّ هاتفه الأرضيّ كان مُعطّلاً من المقسم الرئيسيّ بسبب عطل فنيّ طارئ، وهاتفه النقّال انتهى شحنه لأنّ الكهرباء منذ عصر اليوم الماضي

مقطوعة في حارتهم، حتّى اشتغل الهاتف الأرضيّ قبل قليل، عندما سَرَتِ الحرارة في أسلاكه".

عادت لتجلس مكانها، ولتُذكّرَه بقلقها وخوفها، تحُثّه على إيجاد حلّ سريع، هو يستمع إليها بإنصات، لم يتفوّه بكلمة واحدة أبداً، والدخّان يلفّه، كأنّ خَياله غاب في لُجّة من الضباب.

أبو فندي قرّر تجهيز الغرفة الخلفيّة المستقلّة، من أجل عائلة أخيه، أخبر زوجته بتنظيفها وتفريغها من الأغراض، وتأثيثها بالفُرُش اللّازمة حتّى يدعوهم للمجيء والإقامة بها، تُقابِل قسم الحجّة الوالدة، حيث كان سرورها عظيماً عندما عرفت بذلك؛ رفعت يديْها تدعو الله، لِكَنّتِها أمّ فندي أن يحفظ لها أولادها وبناتها من كلّ مكروه.

بعد العصر أخبر أخاه أبا سليم، بتجهيز أنفسهم للقدوم والإقامة في بيته، وأن غرفتهم جاهزة، فقط يجلبوا معهم الملابس التي يحتاجونها.

***

أبو سليم روَى للمحامي خلال لقاء عابر جمعهما، جانباً إنسانيّاً من مأساة، عمّتْ فطمّتْ مُدمِيةً للقلوب:

- "القرية كباقي قرى الرّيف، كانت لا تخلو من الحيوانات الأليفة كالكلاب إلّا أنّها فُقِدَت بالمرّة، ومن النّادر أن ترى كلباً في خضمّ هذه الأحداث، أو تسمع نُباحاً لا ليلاً ولا نهاراً، وكم هي مُرعبة للأطفال أصوات الكلاب، ففي صغرنا كان الكلب هو الرعب الحقيقيّ المخيف لنا، وفزّاعة يستخدمها الأهل من أجل إخافة أطفالهم لجعلهم يَهْدَؤُون قليلاً أو يَخلُدون للنّوم.

الجنود تمترسوا وراء السواتر والحواجز التي صنعوها لأنفسهم، وجعلوا كلّ متحرّك أيّاً كان، وعلى مدار السّاعة هدفاً لهم. افتقدنا كلبَ

جيراننا، فهو صديق لكلّ أهل الحارة، حتّى أنّ الأطفال أنِسُوا به، وأنِسَ إليهم، يلعبون معه ولا يؤذيهم أبداً. ذات صباح وُجِدَ مرميًّا على جانب الطّريق بجانب جدار حجريّ، إثر تعرّضه لشظايا تطايرت إلى جسده، من قذيفة هاون انفجرت قريباً منه، بقي يَجُرّ نفسه إلى تُخُوم الحارة، لعلّه يحصل على مساعدة من أحدهم بإنقاذه، أو أنّه عَزّ عليه أن يموت بعيداً عمّن ألفهم وألفوه.

حزنوا عليه حزناً شديداً، ومن باب التندّر فقد هَمَّ أحد الشّباب بتسجيله في عِداد الشهداء. ووفاء من الأولاد لهذا الوفيّ، قاموا بحفر جورة ودفنوه فيها، وعملوا مراسم دفن تُدمِي العُيون، ويرقُّ لها القلب على فراقه، وكأنّه أحد الأعزّاء على قلوب الجميع.

سكونٌ مُريبٌ عندما افْتُقِدَ نُباح الكلاب. أيضًا فإنّ الحمير تتلكّأُ ليلاً على أطراف الطرق والمزابل؛ صارت ضحيّة من ضحايا الحرب اللّعينة. وفي بعض الأماكن، ارتكب الجُنود مجزرة قتلوا فيها أكثر من مئة حمار، عندما جمع الجنود فيها كلّ حمير إحدى القرى. فكانت لطخة عار في تاريخهم، آمَنّا أنّهم يقتلون البشر، أمّا الحمير والكلاب والحيوانات الأخرى..، ما بالها؟.

والله يبدو أنّ هذه الكلاب من العصابات الإرهابيّة، إنّهم لم يستطيعوا سماع أصوات المُتظاهرين المُطالبين بالحريّة؛ فقتلوهم. وكذلك أزعجتهم أصوات الكلاب، فكّروا أنّها تتحدّاهم، وفرضُ منع التِّجْوَال لم يشفع للحمار بأنّه حيوان أعْجم لاضرر ولاخوف منه، بل لحقه الدّور بالقتل. حارتنا افتقدت جميع حميرها، لم نَعُدْ نسمع نهيقها الذي كان يباغتنا كلّ حين من ليل أو نهار.

والحَمَام فَرّ، والعصافير هَجَرَتْنا، خَمَدت أصوات الكلاب، نهيق حميرنا افتقدناه، بينما حلّ نُباح ونعيقُ الشبّيحة وإجرامهم. وتعالت أصوات الأنين، وتلوّنَتِ البلد كلّها باللّون الأحمر.. غارقة بالدموع،

تكلّلت سماؤها بالأرواح البريئة صاعدة لربّها، تشكو ظلم ظالمها، ولم تعرف فيم قتلت؟".
بدا التأثّرُ واضحاً على وجه المحامي، وقال: "أشكرك يا صديقي، على لفت انتباهي لهذا الجانب، الذي كان غائباً عن ذِهْني، بعون الله سيكون له مكانُ بارزٌ في مذكّراتي عن الثّورة".

***

يتابع أبو سليم حديثه: "الجمال المُنبعث من منظر أشجار (الكينا) القائمة على حافة النّبع، يفيض بالبهجة والسرور، ويُضفي كذلك بظلاله برداً وسلاماً على الأرواح.
عميقة جذورها في قلوب أهل قريتنا **(مَوْج)**، على مدار السّنين والأيّام، خاصّة لمن تجاوز السبعين من عمره مِثْل أمّي، وهي تحدّثنا:
يوم أن كانت هي صغيرة، كانت هذه الأشجار أيضاً صغيرة، كبرُت أمّي وكبرت أحلامُها لتُطاوِل رؤوس تلك الأشجار الشّامخة، المُتدفّقة نُمُوّاً وحيويّة، تبعثُ الأمل فِي نفوس الفلّاحين بأنّها مُتشبّثةٌ مُتجذّرة، لا تزول عن بُقْعَتِها تلك المحبّبة لها إلى أن تقوم الساعة.
جاء اليوم الهمجيّ، لنرى فيه أنّ هذه الأشجار قد فقدتِ الأجزاء العظيمة منها بفعل القذائف، التي بثّت الرّعب في نفوس الأهالي، قصفٌ مركّزٌ على حارَةِ النّبع، أَحْدَثَ الكثير من الأضرار والدّمار، بيوت بكاملها أصبحت خراباً، فَخَوَتْ على عروشها بعد أن هجرها أهلها نجاة بحياتهم.
امتَصّت الأشجار نُسُغ الحبّ والحياة من النّبع الصّافي. كما القلوب المُرتوية منه؛ فكبُرَت وشمخت بالحبّ والسّلام على الرّبوع. إلى أن

دخل الجنود، فَأحزانُ النّاس لامست وُجْدَان الأشجار، فشعروا بمشاركتها في أحزانهم.
كَشَح لونُها الأخضر البهيّ صارت قاتمة، بِقَتامَة الأفُق المسدود في جميع اتّجاهاته، نُذُرُ الفناء كَسَتها من جُذوعها إلى قمّتها، بشموخها تُناهز أسطح الأبنية الأثريّة الشّاهقة طولاً في السّماء، كارِهة للوضع المكروه من أهل القرية.
وكم لجذوعها أن تتحمّل تلك الضربات الموجعة من القذائف المُنْصَبّة ليل نهار على المنطقة؛ فتفيض عليها موتاً ودماراً، نضُبَ ماءُ النّبع، والدّموع جفّتْ مآقيها، وتجمّدت الدّماء في العروق، استطال الخوف مُتمدّداً شاملاً كلّ مفاصل الحياة، موقف الأشجار ثابت لا يتبدّل بشموخٍ صاخبٍ لحضارة، كلّلتْ **(مَوْج)** بعبق التّاريخ".
الأشجار تقف وحيدة صامدة في الحارة، بعد أن هجرها أهلها طلباً للأمان، والعصافير هجرت أعشاشها باحثة عن الأمان.
الحزن يَرتَسِم على الأشجار الكاشحة، أوراقها على وشك الذُّبُول، بعد أن اكتست بالسواد الموشّح اخضرارها؛ فيصعب التكهّن بحالتها، وكأنّها (الجيوكندا)، تتوزّع على مساحة وجهها من المعاني الغامضة المستعصية على التّفسير، والتّأويل المعقول وغير المعقول، ربّما عجز عن حلّ اللّغز أساطين الفنّ و الفلسفة.
عندما تهدأ الأحوال قليلاً يعود النّاس نهاراً إلى بيوتهم، ويقضون معظم يومهم فيها، وعند المساء يُغادرون إلى أماكن سُكناهم الطّارئة.
بينما يبقى أحدهم في الحارة ليَحْرُس البيوت من الحراميّة، الذين وجدوها فرصة مُناسبة للسرقة جاءتهم على طبق من ذهب لينهبوا كما يطيب لهم، وعلى رأي القائل: **(موتُ الكِلابِ فرجٌ للحراميّة)**. لأنّهم لم يكونوا يحلموا بمثلها ولو في عالم الأحلام".

- المحامي: "يا صديقي هذا شيء طبيعيّ، ونتيجة معلومة سلفاً، فكلّ أنواع الإجرام الواقع علينا من هؤلاء الهَمَج وأمثالهم بأفعالهم الشّنيعة، تجعلنا نتجذّر ونتعمّق. نحن هنا... نحن راسخون في أرض أجدادنا الذين ذادُوا عنها وحَمَوْها بدمائهم وأرواحهم، وسنكون على نهجهم إمّا حياة كريمة، أو موتاً عزيزاً. أستأذنك، فهناك من ينتظرني في المكتب، إلى اللّقاء".

***

عائلة أبي راجح الصغيرة، حملت بعضاً من أمتعتها، وغادرت إلى الحارة الغربيّة الآمنة. هناك جلسوا عند أقاربهم، حيث أعطوهم غرفة خارجيّة خلف البيت، كانوا يستخدمونها مُستودعًا للمُونة، أفرغوها من محتوياتها، ليسكنها أبو راجح مع أولاده.

يبدو عليهم أنّهم في حالة نُزُوح طارئة. فلا خزانة لملابسهم، ولا مطبخ مستقلّ.

حاجيّاتهم وأغراضهم بقيت هناك في بيتهم. يجلبون ما يحتاجون كلّ يوم أو يومين، حسب ما تسمحُ به حالة الهدوء الحذر والمُخيف المُسيطر على النّفوس.

لوازمهم الضروريّة للإقامة هي المرافقة لهم، بابور غاز، فَرْشَاتُ إسفنج، وملابس على الخفيف، حتّى التلفزيون لم يستطيعوا حمله لكبر حجمه.

صاروا يسهرون عند جيرانهم أهل البيت، إذا لم ينقطع التيّار الكهربائيّ؛ لمتابعة نشرات الأخبار؛ والإطّلاع على آخر الأحداث في المناطق الأخرى.

هناك من هم أفضَلُ حظًّا من أبي راجح، فمن يملك المال قام باستئجار بيت مستقلّ، كما يُقال: **(رُبّ ضارّة نافعة)**.

أبو راجح موظّف بسيط في دوائر الدّولة، يُعاني من الأمراض المُزمِنَة، مُتفائل في الحياة، يدخّن بشراهة، يشرب القهوة بشراهة أيضاً، حتّى قيل عنه:

"أنّه إذا نام وضع طرف مصّاصة (الشلمونة) في فمه؛ ليشفُط بواسطتها القهوة من الفنجان".

يكتبُ للحياة والحُبّ..، أشعارُه يتغنّى بها في الغُرَف الصوتيّة على أثير (الأنترنت)، وفي الأمسيات قبل انتقاله والعودة إلى القرية، وبعد استقراره دُعيَ لإلقاء أمسية في العاصمة، مع ثُلّة من أصدقائه الشعراء.

الاجتياح الأوّل لم يتأثّر به كثيراً، رغم أنّ العساكر سَرَقُوا له بعض أشيائه البسيطة.

كانت القاصمة الكبرى، عندما أحرقوا له درّاجته الناريّة، وهي وسيلته للتواصل مع الآخرين والتنقّل بها لوظيفته، وشراء الأغراض من السّوق، صار كمن حاقت به مصيبة كبيرة كنكبة البرامكة.

القادم غامض لا يمكن تخمينه، من الصّعب التَنَبُّؤ كيف سيأتي ويكون.

جاء يوم الاجتياح الثّاني الأعنف بإطلاق النّار الكثيف، وانتشار حالة من الخوف المُريع، حَظْرُ التَجوّل أقْعَدَ النّاس في بيوتهم بانتظار مصيرهم الأسود كما يتوّقعون.

والأقسى على القرية بأكملها، بما حدث من حرق للبيوت بعد أن سرق الجنود ما خفّ حِمله وغلا ثمنه، واعتقال الكثير من الشّباب، فكان مثل نكبة العرب بضياع فلسطين وسقوط بغداد، بالنسبة لأبي راجح ..، فهو لا يملك شيئاً إلا مَسْكَنه الموروث عن والده، فأصبح كَمَنْ قُطِع عنقه، أوطائر بلا عُشّ، عندما أحرقوا ذلك البيت، بعد انتهاء الحملة بكى بدموعه الحرّى حُرقةً على دفاتر ذكرياته، وأشعاره وخواطره التي سطّرها بمداد قلبه وروحه.

لم يبق إلّا هيكل من الحديد الأصمّ للفاترينة، النّار حَرَقَت لونها؛ فأضحت سوداء حزينة على ساكنيها من الكتب المحترقة، ضاع معها تاريخ مليء بحبّ الحياة وتناقضاتها.

ضاقت الدّروب على أبي راجح، انحسرت مساحة الحياة في القرية ومحيطها، لم يكن مُقتنعًا في الخروج إلى القرى المُجاورة كما فعل الكثيرون من الأهالي.

لكنّ الظروف النفسيّة السيّئة التي أحاطت به في الأيّام الأخيرة، توّجتها إصابة ولده الوحيد راجح، الذي لم يتجاوز الأربع سنوات من عمره..، برصاصة أصابت وجهه، كادت أن تُودي بحياته، أجبرته على التفكير الجدّي هذه المرّة بالهجرة، لكن ليس إلى القُرى المحيطة بقريته (**موْج**)، وإنّما ذهب بعيدًا في طلب الأمان لأطفاله، الذين ما فتئوا بعد هذه الأحداث أن ينفلتوا بالصراخ والبكاء أثناء نومهم، صاروا يخافون حتّى في النّهار من أيّ صوت عالٍ، صدّت أنفسهم عن الطّعام، اضطرابات سلوكيّة لم تكن معهودة من قبل، فمنهم من صار يتبوّل على نفسه لاإراديًّا أثناء اللّيل في فراشه، ووصل الأمر إلى أن استفحل بهم بالارتجاف والتبوّل بمجرّد سماع الأصوات العالية وأصوات الانفجارات، وإن كانت بعيدة عن مكانهم.

هو الآن أمام طريقيْن لا ثالث لهما، إمّا أن يبقى عُرضة للقصف والموت، أويسلك خُطى من سبقوه إلى الطريق المؤدّي إلى مُخيّم الزعتريّ مُضْطَرّاً غير مُخَيّر، فخياراته محدودة وإمكانيّاته الماديّة شحيحة.

بعد طول معاناة وصل إلى المخيّم، واستقرّ فيه لفترة قصيرة، ثم لظروفه الصحيّة الإستثنائيّة، سعى للخروج والإقامة في عمّان العاصمة.

ما بال الارتحال صار سمة للسوريّين؟.

مشتّتين على دروب وعتبات المجهول، في أنحاء الكون. ذلٌّ وفوق الذلِّ قهر، وظلم طويل كانوا في كنفه، أمّا اللّجوء الداخليّ فمصيبة أخرى، فلا أمان ولا اطمئنان، وصدق فيهم المثل:
(طِلِع من تحت الدَّلِف، إلى تحت المزراب)، أو**(كالمُستَجير من الرمضاء بالنّار)**.
أبو راجح نموذج للمُرتحلين. ما ضاع منه كثير، لكنّه لم يندم على فوْتِ أيِّ شيء. طَلَبَ الحياة لأولاده بإصرار، تشبّث بسُبُلها فهي أغلى من المَتَاع كلّه.
غادر، وهو على أمل العودة بعد هدوء الأوضاع، وإيجاد حلّ جذريّ للصراع، وعودة السّلام مُكلّلاً بالحبّ، من أجل الأجيال القادمة.

***

عمارة سعادة تشمخ عالياً في الأحياء الجديدة على أطراف القرية، بشكلها الجميل الأنيق، ألوانها زاهية، ديكوراتها الخارجيّة تسرُّ الناظرين، شُرفاتُها موزّعة على الشُقق في جميع الاتّجاهات، تعتبر الشُّرفات هي المتنفّس الوحيد لعلب الكبريت، وهي التسمية التي يُطلقها أهل القرية على نظام العيش في مثل هذه البيوت الصغيرة.
لكنها مع ذلك لن تسمو لأن تكون كعمارة (يَعقوبيان)، الشّاهدة على حياة مصر، وتبدّل الحكم فيها من الملكيّة إلى الجمهوريّة، هجرها سُكّانها من (الخواجات) وعِلْيَة القوم؛ ليحتلّها ويسكنها رجال الثّورة وأزلامهم.
عندما فرضوا حالة الطوارئ، فأباحت لهم أن تمتدّ أياديهم لكلّ شيء، فلا قانون لأنّهم يتربّعون فوقه، ولا من حسيب أو رقيب، هم القانون

على من سواهم، وإرادتهم هي المفروضة على الشّعب المسكين، هذه اللّوثة المصريّة امتدّت إلى سوريّة في فترة الوحدة بين البَلديْن.
فُتِحَتْ أبوابُ السماء لصاحب عمارة سعادة. وكما يقال:
(**ربّ ضارّة نافعة**). جاءت الثورة، وحصل ما حصل، صار النّاس يلجؤون إليها مُرغمين للفرار من الجحيم الذي نزل بقريتهم (**مَوْج**) واستهدفها كلّها، وعلى الأخصّ حارتها الشرقيّة.
بينما أزلام ومحاسيب ثورة يوليو في القاهرة هناك، مناصبهم فَتَحت لهم أبواب الثَرَاء؛ فهجروا عمارة (يعقوبيان)، وذهبوا إلى الضواحي المنشأة حديثاً، ذات الطراز الجميل من الفِلَلْ الأنيقة، والقصور الفارهة.
في القرية انتعشت عمارة سعادة...، فصارت كعروسة يَنظُر إليها الأهالي بشيء من الاحترام، وهي تطلّ عليهم من عليائها، شاهقة يتلألأ انعكاس زجاج نوافذها على من حَوْلها، شكّلت ظلالاً على محيطها من البيوت المُتلاصقة معها، ومن يسكنها كأنّه يستنشق الهواء من منبعه الأساسيّ، قبل أن يتنفّسه أحد.
هكذا اشتهرت العمارة بسرعة فائقة، أصبح الطلب كثيراً على السّكن فيها، وصارت مقصدًا للهاربين من بيوتهم، مُرغَمين بكراهة النّاس على ذلك.
انطبق حال النّاس، وحالها على رأي (**مُكرَهٌ أخاك لا بطل**). لكنّها الضرورة في زمن الضرورة، شُقَقُها جمعت أكثر من عشرين أسرة في حيّز صغير، غير معتادين عليه أبداً.

***

أمّ سليم تشتكي إلى زوجها حينما تختلي به، مُعربَة له عن استيائها وضجرها:

"المسكن ضيّق جدًّا، وغرفة واحدة لا تكفينا، كما أنّ الأولاد اختلف الجوّ عليهم، فقدتُ السّيطرة على الكثير من تصرّفاتهم، إضافة إلى أنّه سكنٌ مشترك غير مستقلّ، يحدّ من حريّتي.
بالله عليك يا أبا سليم، أن تبحثَ لنا في عمارة سعادة الجديدة عن سكن مُناسب، العديد من النّاس يمتدحون السكن بها، كما سمعت".
أبو سليم، يأخذ نفساً طويلاً من سيجارته، يستمعُ لها فقط، ولم يَرُدّ ولو بكلمة واحدة حتّى انتهت، و تعيد الكرّة بسؤاله:
"ما رأيك.. يا حبيبي بما قلتُ لك، والله لا أستطيع الشكوى إلاّ إليك بعد الله، من أين لي أحد سواكَ، ممكن أن يفهمني؟".
-: "إن شاء الله يصير خيراً، لا تقلقي يا عزيزتي، أيضاً أنا غير مرتاح، لكنّي كنتُ أنتظر، وأقول ربّما تهدأ الأمور. بينما صعوبات الحياة في حارتنا تزداد على مدار السّاعة، عوامل القلق والخوف تتكاثف كالغُيوم تتوالد يوماً بعد يوم".
تنفسّتْ أمّ سليم الصعداء، أعربتْ عن سرورها، وارتياحها لكلامه، تمنّت لو أنّه قام من فوره للبحث عن بيت.
نوى أبو سليم بالتمهيد للموضوع، كي لا يبدو قراره مفاجِئًا للحجّة الوالدة، ولأخيه أبي فندي وزوجة أخيه، ويضمن أنّه يملك مُبرّراً قويًّا ووجيهاً.
فرَسَمَ الخطّة، وابتدأ بتنفيذها من عند الحجة: "يا أمّي كم أنا سعيد أنّني بجانبكم، وأراك كلّ يوم، صُبْحاً وعشيّا، حيث أنّني افتقدتُ تلك اللّذة من كثرة مشاغلي، وربّما كان يأتي الأسبوع، ولا أستطيع رؤيتك، وكان الهاتف وسيلتنا الوحيدة للاطمئنان على بعضنا. سامحيني .. يا أمّي على تقصيري هذا، أمنيتي أن أبقى بقُرْبك، لكن كما ترَيْن.

فإنّ الغرفة صغيرة لا تفي باحتياجات أسرتي، يبدو أنّ الأمر سيطول، حارتنا تشتعل كلّ يوم، ولا أدري كيف لي أن أخبرك، أنّني نويتُ أن أبحث عن بيت مستقلّ، إذا سمحتِ لي يا أمّي ..".
- الحجّة جواهر: "يا بني، سعادتك، وراحتكَ أنتَ، وإخوتك كما تعلم، هي أولى اهتماماتي منذ البداية، ربّي يرضى عليكم، ويفتح أبوابه لكم، لا مانع من جهتي، وسأتحدّث مع أخيك، بخصوص هذا الموضوع".
عشرون شقّة سكنيّة، استأجرتها عشرون أسرة ريفية تقريباً، هذا ما يعادل بُيوت حارة صغيرة بأكملها، أو نصف حارة كبيرة.
كتب أبو سليم عقد إيجار الشقّة في عمارة سعادة، بعد يومْين قام بنقل أغراضه من بيته، واستقرّ مؤقّتاً رغم معاناتهم من ضيق الشقّة، وضجيج القاطنين فيها، وصراخ الأولاد الذي لا يهدأ على مدار السّاعة، وروائح الطّعام المُستوطِنَة عند الوصول لمدخل العمارة، كمثل (**الحمّام المقطوعة مياهه**)، لكنّ الوضع أفضل قليلاً من الغرفة الواحدة في بيت أخيه.

***

المحامي باهتمام بالغ، يتابع كلّ مَهَامّه بجدٍّ ونشاط، يعتقدُ جازماً أنّ كلّ ما يُكتبْ سيُقرَأ مُستقبَلاً، لايتوانى عن تدوين يوميّات الثّورة خطوة بخطوة، لايترك شاردة ولا واردة إلا ويقوم بكتابتها، يفتحُ اليوم صفحة جديدة. يتابع كتابته:
"كانت المظاهرات تنطلق عادة وتتجمّع في السّاحة، يأتي التجمّع قادماً من الجامع الكبير، يلتقي مع القادم من الجامع الشرقيّ، ثم يُتابعون طريقهم إلى مدخل القرية، ويعودون أدراجهم.
والهتافات تُطاول عَنَان السّماء، تهزّ جنبات القرية، كثيراً ما كانت البيوت المُتربّعة على جانبيْ الطّريق تمتدّ الأيادي من نوافذها ومن

شُرفاتها لتَرُشّ الأرُزّ، وأوراق الورود على المتظاهرين، كما أنّ الماء البارد يأتي كالبلسم في أيّام الصيف الحارّة، وكأنّ النّدى قد حمل قطعة من روح البحر إليهم، فترتّد الأرواح ناشطة من جديد.
سارت الأمور على هذا المنوال لفترة استمرّت حوالي السّنة، إلى أن تركّزت الحواجز وأخذت مواقعها، وراحت تقذفُ حممها القاتلة على المتظاهرين السِلميّين، عندما يهتفون بأصواتهم، وتتحرّك أياديهم بحركات إيمائيّة مُوحِيَة، موحدّة غاضبة بهيجان، تتوافق بحركاتها مع الهُتافات بإيقاع يُلامس شغاف القلوب من أجل الحريّة، ورحيل النّظام المُغتَصِب لها، وترتفع اللّافتات بتعابيرها المُبتَكَرة العميقة المُسْتَكِنّة في القلوب، وقد حفرت مساربها في طريق الأجيال الحديثة.
عَلَمُ الاستقلال تعبيرٌ عن الانعتاق من ربقة الاستعمار الخارجيّ، كما أنّ دلالته الرمزيّة حاليًّا هي رفضٌ قاطعٌ لكلّ ما يأتي من النّظام وأزلامه. والمشي في طريق اللّاعودة.
حدث طلاق بائنٌ بينونة كُبرى بين الأمس واليوم، لتحرير الإرادة من ذوي البساطير، وتفريغ صدور النّاس من هموم ثقيلة سيطرت على كلِّ حياتهم، فيها الكثير من الذل والخنوع والظلم.
شرطيّ يصول على هَوَاه دون رادع أو وازع. كثيرون يتزلّفون إليه، يتقرّبون منه متأمّلين حصول العوْن منه على تحصيل حقّ لهم، أو للتّباهي بمعرفتهم له، وهل صُحبَة الشرطيّ إلاّ شرٌّ مُسْتَطير؟.
فلا صاحبَ لشرطيّ، فصاحبه مصلحته فقط كما يقولون، ومصلحته جيبته، وبما يحصل عليه من رشاوى وابتزاز للنّاس، و تشويه شرف السّلك المُنتمي إليه، ناكثاً بالقّسَم الذي أقْسَمَهُ في كليّة الشّرطة عندما تخرّج فيها، فهل بقي لديه شيء من بقايا كرامة خلقيّة أو إنسانيّة".

***

في الفترة الأولى كانت ساحة القرية هي المكان للتعبير الأوّلي عن طموح الثّائرين، على أنّها رمزٌ الحريّة، لما تحمل من هيبة وجلال في القلوب، أمام أبنيتها الأثريّة القديمة ببهائها النّابض المُتجدّد، وعظمة نصب الشّهداء المتربّع في وسطها، إضافة إلى أنّها مُترامية الأطراف تتّسع للحشود مهما بلغ تعدادها.

أصبح يوم الجمعة هو يوم الثّورة المنتظر من الجميع، النّظام يعيش على أعصابه بترقّب وحذر، والشّباب ينتظرون هذا اليوم، حتّى أنّ المساجد صارت تغصّ بالمصلّين، على غير عادتهم قبل مجيء الثورة.

الله أكبر .. حريّة

واحد واحد واحد.. الشّعب السوري واحد..

شعارات، وهتافات تضجّ بها الحناجر المبحوحة، العرق يتصبّب على الجباه، تتلاصق الأجساد، بحيث تحسّ بالبلل، والتعرّق من حرارة الموقف المترافقة مع حرارة الجوّ، حرارة الشّعارات المُلهبة للحماس من أقصى الجُنوب إلى أقصى الشّمال، ومن أقصى الغرب إلى أقصى الشّرق في سوريّة.

الشّباب يشدّون أزْرَ بعضهم بعضاً، بترديد الشّعارات الحماسيّة، الهُتافات المُبتكرة بطريقة عجيبة، للمرّة الأولى على أرض الواقع، أصبحت هُناك أدبيّات للثّورة، صادرة عن ثقافة عميقة أصيلة لم تظهر قبل ذلك، فلما وجدت البيئة المناسبة زمانًا ومكانًا. اعتباراً من اختيار اسم مميّز لكلّ جمعة مُرتبط بحدث ما.

بعد التشاور، والاتّفاق من خلال مواقع التواصل الإجتماعيّ (الفيسبوك) وغيره. لأوّل مرّة في التاريخ تقوم ثورة بلا قائد، ولا تخطيط ولا تنظيم.

فجّرتها عفويّة الجماهير المُنطلقة عندما فاجأت الجميع، وللمرّة الأولى في تاريخ سوريّة والعالم بدأت الشرارة من الأطراف (الأرياف)، وتقدّمت باتّجاه العاصمة والمدن الرئيسيّة.
التطوّر كان لافتاً بالتدرّج في طرح الشّعارات والهتافات، سَكَتَ الشّعب السوريّ دهراً.
فهل نطق كُفرًا، كما يقال؟.
مما أغاظ النّظام وأزلامه، لهول صدمة المفاجأة المُثيرة لجنونهم وتوحّشهم.
الجُنود هناك في مقرّاتهم الأمنيّة، يتأهّبُون لشنّ حملات تفريق الشّباب المتظاهرين.
ينطلقون مُسرعين بأرتالٍ من السّيارات، الرّصاص ينطلق في كلّ اتّجاه، حتّى أنّهم بداية استخدموا قنابل الغاز، لكن على نطاق ضيّق جداً ولفترة محدودة، حيث أنّهم اعتادوا على الرّصاص الحيّ القاتل. فالهراوات والغازات المُسيلة للدموع، ورَشّ الماء من سيّارات الدفاع المدنيّ، غير وارد أبدًا في قاموسهم.
سارت الأمور على هذا المنوال، حتّى أنّ ساحة القرية أصبحت غير آمنة، بعد أن نصبوا الرشّاش على مبنى مُديريّة الناحية، قبالة السّاحة المكشوفة وليس بينهما حجاب.

***

بعد التشاور فيما بين مُحرّكي المظاهرات ومُنظّميها، استقرّ رأيهم أن تنطلق المظاهرة من الجامع الشرقيّ، ومن الجامع الكبير إلى ساحة صغيرة. أطلقوا عليها فيما بعد (ساحة الحريّة) الجديدة، أمام جامع كاظمة، والدير القديم..، أصبح علم الاستقلال رمزًا للحريّة، خاصّة

عندما ألبسوه لمئذنة جامع كاظمة الشّاهقة بارتفاعها المَهِيب، وكذلك لواجهة الدير الأثريّ.
تلك ساحة..، وأيّة ساحة بعظمتها، إنّها مساحة للتعبير عن الإرادة..، ساحة محفوفة بالأمل..، مُكلّلة بالبهاء..، تُجلّلها المهابة..، ليست أيّة مهابة..، إنّها مَهابة عِنَاق التّاريخ، يصافح الحاضر في صناعة المستقبل.
وهل بعد هذه المَهَابة من مَهابةٍ أعظم وأجَلّ؟.
يتوقّف عقل المرء أمام هذا الصرح ..، بخشوع ليس له مثيل..، إنّها مهابة روحانيّة تسمو بالتاريخ ليشهد عظمة الإنسانيّة بتسامحها بعيدًا عن التعصّب، وتوسيع مساحة الاختلاف بعيدًا عن التناحر والتدابُر، عندما يتعانق المسجد مع الدّير..، وما يعني هذا للحاضر من دلالات عظيمة، يُبنى عليها الكثير من الوئام؟.
أليست الوحدة الحقيقيّة للشعب الواحد، بالمصير الواحد، والهدف الواحد؟.
واحد واحد واحد.. الشعب السوري واحد..
مُكبّرات الصوت..، اللّافتات ذوات الشّعارات المُعبّرة عن نبض الشّارع..، صُوَر مُعلّقة على جدار الدير القديم للشهداء الأبرار.. المنطقة آمنة نوعاً ما، إلى أن صارت هدفاً، وعُرْضة للاقتحامات المُتكرّرة من قوّات الأمن. في إحدى المرّات قتلوا ثلاثة من الشّباب المُتظاهرين، تَجَنْدَلوا على أرض ساحة الحريّة، كانُوا القربان الأكبر في وقته، أحدهم كان على وشك أن يتزوّج، بعد أن جلب غرفة النّوم، وجهّزت له أمّه كلّ جهازه، وتنتظر فرحته الكبرى، قامت على تربيته مع إخوته بعد وفاة أبيه، ومما زاد الطّين بلّة هو أنّه بكرها.
غادر إلى جوار ربّه تاركاً رفاقه وعروسه. وأمّه وغرفة النّوم الجديدة، فلم تمهله يدُ القدر ليرى فجر الحريّة.

لم يكن يجول في خاطر محمد أبي فندي آنذاك، أن تصبح هذه السّاحة مسرحاً، ومَعقِلاً للاحتجاجات والاعتصامات السلميّة بشكل دائم، بعدما كانت من ملاعب صِباه، ومرتعاً لأحلامه الطفوليّة.
عندما كان يلعب هناك في حارته القديمة مع رفاقه وأقرانه، وفي هذه السّاحة بالذات أبقى من الذكريات ما تجعله يحنّ للذهاب إليها.
والرّكض فوق سياج مسجد كاظمة الحجريّ، والصعود للمئذنة لمشاهدة تفاصيل القرية المختلفة كلّها دون عائق أمام ناظريْه، والتمتّع بالمنظر الخلاّب للبيوت والحارات من هذا العلوّ الشّاهق. كان يتخيّل، وبنظرة الطفل وقتذاك أنّه يُطاول عَنان السماء، ويمسك الغيوم بيديْه، أو أنّه سيصل ليرى سطح القمر خاصّة عندما سمع من أستاذه، أنّ هناك أودية وجبالًا وتضاريس على سطح ذلك الكوكب، وهو الأقرب للكرة الأرضيّة، نحن والقمر جيران يُردّدونَها في أغانيهم أثناء لعبهم ولهوهم، وكان يَوَدُّ لو أنّه رأى تلك الشّابة السوفييتيّة (فالنتينا تيرشكوفا)، أوّل رائدة فضاء في التّاريخ، حينما قرأ درساً عنها كان مقرّراً في كتاب الصفّ السّادس الإبتدائيّ.
ليسألها عما يخطر بباله ونفسه من أسئلة كثيرة، وخواطر مُتعلّقة بالقمر، لم يجد من يستطيع أن يسأله؛ ليجد عنده الجواب الشّافي لقلقه وحيْرته.
وللحكايات المُختَزَنة في ذهنه من أحاديث المضافات، ألقٌ مُتوهّج على مدار الأيّام، ومعينٌ لاينضب وهو يغترف منه بإعادة تدويره عندما كبُر وصار رجُلًا، ذكريات الطّفولة هي الأجمل والأغلى على القلب، والأقرب إلى الرّوح؛ لسهولة استذكارها بفرح غامر في كلّ وقت وحين، ورفاق الطّفولة لاينقضي الكلام عنهم إذا استحضر الذّهن ما يُذكّر بهم.

أمّا عندما يقترب الأذان لصلاة من الصلوات، يكون قد أطلّ الشيخ محمود بطلعته البهيّة، فينصرف الأولاد هاربين من ساحة المسجد، يلوذون بالأزقّة المتفرّعة عن السّاحة لحين انتهاء الصلاة، أو يذهبون للسّاحة الأخرى الخلفيّة للمسجد، حيث الكاتدرائيّة، هناك يلعبون في ساحاتها الفسيحة أو في غُرَفِها، أو الصُّعود إلى الخزّان الكبير المتربّع فوق أحد أعلى الأبنية فيها.

وكان وقتذاك يُعتبر أعلى نقطة مرتفعة في القرية، يأتيه الماء من النبع بواسطة المضخّات الضّخمة التي ترفع المياه إليه، ومن ثُمّ يُعاد توزيعها على البيوت المُشْتَرِكَة في خدمة توصيل الماء لها، وهي قليلة بالطّبع كانت.

أو يذهبون لمبنى الدّير القديم شماليّ الجامع مباشرة، تفصلهما عن بعضهما السّاحة فقط، وفي ظلال الجدران العالية يلعبون الدّحاديل (المازات)، هي من الألعاب المفضّلة لديهم بكلّ أنواعها وأشكالها، لكن ما كان يُنغّص عليهم مُتعة اللّعب والاستمرار فيه أو يزيد الهُيَاج في المكان، عندما يقوم أحد شياطين الأولاد بِنَبشِ عشّ الدبابير فتنقضّ عليهم؛ فيركضون هرباً لإخلاء المكان للنّجاة من لسعاتها، ومنهم من يحثو التراب للأعلى كي يُضلّل الدبابير، ولا تهتدي بالوصول إليهم، قلّما ينجو من إبَرِهَا أحد منهم، فتلسعهم في الرأس أو أحد الأطراف.

***

تطورّت الأمور إلى أن صارت الساحة هدفاً مستمرًّا، ومحطّاً لأنظار عناصر الأمن، وبمساعدة من الشبّيحة والمُخبرين المُندّسين بين المُتظاهرين، سارت الأمور إلى أن انتشر السّلاح بين أيدي

الشّباب، الذين أُطلق عليهم وقتها لقب الثوّار، تيمنًّا بثوّار سوريّة الذين قارعوا الاستعمار الفرنسيّ.
جاء حمل السّلاح ليكون مَقتلاً عظيماً، ومُميتاً لسلميّة الثّورة، التي أحرجت النّظام، وهو يُقاوم الهتافات بالرّصاص الحيّ، وسقوط الشّهداء من مختلف الأعمار، أجّجت التعاطف العالميّ مع التظاهر السلميّ، بما تنقله عدسات الهواتف النقّالة والكاميرات مباشرة على أيدي الهُواة إلى المحطّات الفضائيّة، التي ساندت الحركة بكلّ إمكانيّاتها، بالسّلاح الذي رُفِع فَقَدت الثّورة السلميّة أنصارها، وتحوّل الكثير عنها بآرائه ومعتقداته.
راحت أجهزة إعلام النّظام تبثّ مقاطع للمسلّحين خاصّة في درعا، والتي قيل عنها أنّها ملفّقة من أجهزة الأمن، التي لعبت هذه النقطة بذكاء وحنكة، فَبَدَل أن كانت الثّورة للمطالبة بالحقوق والإصلاحات، انقلبت بين عشيّة وضُحاها من وجهة نظرهم على الأقلّ إلى عصابات مُسلّحة مُرتبطة وممّولة من الخارج؛ تقوم بأعمال إرهابيّة خارجة على القانون، يجب مقاومتها ومعاقبتها بأقصى أنواع العقوبات، وقد نُسبت إليها عمليّة ضخمة بحجم حادثة تفجير الخليّة الأمنيّة، وكانت الأجهزة اشتغلت بإتقان على هذه النّقطة، وتحويل نظرة تعاطف العالم الخارجيّ للمتظاهرين، ومساندة مطالبهم السلميّة.
تساؤلات كثيرة بين يوم وليلة. وعلامات استفهام بحاجة لتفسير، وهي برسم الزّمن أن يقول كلمته الحقيقيّة.
من أين جاء السّلاح إلى أيدي النّاس بهذه الكميّات غير القليلة؟.
في وقت لم يمكن للطير الطائر في السّماء أن يتجاوز حدود سوريّة بالذهاب و الإيّاب إلّا بإذن أو منعه بكلّ الوسائل المُتاحة.
انعكست الصورة العامّة من جديد، عندما تعرّضت **(مَوْج)** القديمة بكاملها لاجتياح، ومُداهمات أمنيّة تقوم بها الأجهزة الأمنيّة مع وحدات

عسكريّة خاصّة الدبّابات التي طوّقت القرية من جهاتها الأربع، ترافق ذلك بإطلاق النّار الكثيف من الرشّاشات، وتخريب للبيوت، واعتقال وقتل، وتشريد النّاس من بيوتهم.

بعد الذي حصل وجد المسلّحون أنفسهم مُحاطين بهالة من التعاطف الجماهيريّ في القرية، ومن الواجب عليهم الوقوف في وجه قوّات النّظام، في حماية المظاهرات من هجوم مُباغت، أو تبادل إطلال النّار مع بعض النّقاط السّاخنة.

أصبحت السّاحة بموقعها المحصّن نوعاً ما، هي المكان المفضّل للمسلّحين، عندما صاروا يحرسون المتظاهرين والمعتصمين فيها، إلى أن جاء دوْر المدفع الهاون إلى قوّات النّظام المُرابطة في أكثر من مكان في القرية، ونصبوه داخل قلعتها المُشْرِفَة على أنحاء وجَنَبات القرية قديمها وجديدها، ومحيطها السهليّ المنبسط في كلّ الاتّجاهات، فكان موتًا مُحققًا إذا ما سقطت قذيفته في نقطة ما، ودمار هائل يقضي على بهجة الأمكنة في قلوب أصحابها.

إضافة لحاجز المثلّث، حيث قُطّعَت أوصال القرية، إضافة لحواجز الشبّيحة الطيّارة حسب الحاجة، وعند توتّر الأوضاع.

ساد الرّعب البلد بأقصى درجاته، فقوّات الأمن من جانب، والشبّيحة من جانب آخر.

أنهِكَت القرية وتعبت، وتعب النّاس فيها، فالوصول للفرن الآليّ لشراء الخبز في بعض الفترات العصيبة، صار من أصعب المهامّ اليوميّة للسّكان، حتّى تطور الأمر لنصب حاجز جديد على مداخل القرية **(موْج)**، القادمة إليها من قرى محافظة مجاورة، هذا بحدّ ذاته مُشكلة جديدة، تُضاف إلى قائمة الصعوبات المتكاثرة يوماً بعد يوم.

كارثة بعد أخرى أعاقت حركة الانتقال من وإلى القرية، جاء اليوم الذي أصبح المرور بمحاذاة الحاجز رُعبًا حقيقيًّا، عندما قتل العديد من

العابرين على درّاجاتهم أو في سيّاراتهم، تضييق وتقييد على حركة الذين هجروا بيوتهم فيما بعد، خاصّة عقب الانفجار الضّخم في العمارة التي كانوا يتمركزون فيها، وطارت العمارة من أساساتها، ولم يعد لها وجود على وجه الأرض، أغلِقَتِ المنطقة تمامًا، وانتقل الحاجز لاحتلال البيوت المجاورة من الجانب الآخر، بعد طرد أصحابها منها، إلى أن أُخليَتْ المنطقة من ساكنيها، مُتحوّلة إلى خربة أشباح، وتركزّت فيها كلّ أدوات الدمار، التي ترشق الأحياء والحارات كلّ يوم خاصة في اللّيل، وأصبح القصف المدفعيّ من الدّبابات مُمنهجاً بطريقة شبه يوميّة، صُبحاً وعشيّاً، القرية تنام وتصحو على أنغام الرّصاص.

بالطبع لم يُستثن أيّ شيء على الإطلاق، الهدف الأوّل لجميع الحواجز هو الحارة الشرقيّة والبلدة القديمة، القصف كثير في أيّ وقت، حتى حصلت مجزرة مروّعة في ساحة المطحنة القديمة، بجانب الجامع الكبير، قضى فيها عدد من الرجال والنساء والأطفال.

هذه الحادثة جعلت كثيراً من النّاس يَهجرون بيوتهم إلى القرى الأكثر أمناً، بيوتهم أصبحت خاوية على عروشها، مخيفة مرعبة. لغة الخوف سيطرت على الألسن، الرّعب خيّم على الرُّبوع، الأطفال..النّساء..، وجوه علاها الغبار..، عقول حائرة..، لا أمل في العيون..، لا ثقة بأيّ شيء..، جوع..، بطون خاوية..، قرقعة البطون تناهز قرقعة الرّصاص، والقنابل..، تحدّ عجيب، بإصرار على متابعة الحياة..، والمسيرة مهما كلّف الثّمن. معنويّات عالية لدى الجميع، وللصغير قبل الكبير.

نظر المحامي إلى السّاعة، وقد أشارت عقاربها إلى الثالثة صباحاً، فتزاحُمُ الأفكار، وتواردها إلى ذهنه مُتوالية بلا انقطاع، وكلّ فكرة تستدعي أخرى مرتبطة بها بشكل ما.

أغلق دفتره، بعد أن سجّل اليوم والتّاريخ تحت هذا الفصل، شرب آخر قطرة قهوة من فنجانه البارد، أطفأ سيجارته، وقف يتمطّى، وأخذ بتمرين ذراعيْه وساقيْه، لإزالة أثر الجلوس الطويل على الطاولة وراء الحاسوب، ثم قصد فراشه بعد خروجه من الحمّام.

***

(٥)

أمّ فندي صكّتْ وجهها بقسوة غير مقصودة، قبل أن تتلمّسه، لم تكن تدري لماذا؟، في كلّ مرّة تفعل ذلك.
تحجّرت وجنتاها، كأنّ نضارة الورود غادرتهما منذ ثلاثين عامًا، فَلِذَة كبدها.. بِكْرها..، اعتُقِل من المدينة الجامعيّة، اللّيل يرمي بوشاحه على بلدة (**مَوْج**) الغافية على آلام الأشواق المُتحطّمة على الدروب، سكتت الدموع ليس تقشّفًا، بل جفاف منابعها، (**أعينيّ جودا ولا تجمدا**).. حتى أنت يا خنساء ..!!.
لم تقطع الأمل بحياته، إنّها تعلم أنّ كلّ المعتقلين القُدامى في الثمانينيّات، انقطعت أخبارهم، وأصبحوا في حكم المَنْسيّين، نساؤهم نسيْن ملامح وجوههم، ضاعت نبرات أصواتهم من ذاكرة أطفالهم، الذين أصبحوا رجالاً، تساؤلات كثيرة حول آبائهم، وظروف وملابسات اعتقالهم، فلا هم في عِداد الأموات فيرتاحون، ولا هم من الأحياء فيزورونهم في معتقلاتهم.
مصير مجهول، أغلب الظنّ أنّهم سُحقوا في مطحنة الإعدامات الجماعيّة المُتكرّرة على مدار السنين الطويلة، النّظام لم يعلن عن أيّ معلومات عن مصير هؤلاء.
تحلم أمّ فندي أن تلمُس وجه ابنها، وتضمّه إلى صدرها، حتّى ولو كان في آخر يوم من حياتها، اشتطّت بها الظُّنون فتخيّلته ميّتاً، لكنّها تتمنّى أن تعرف قبره لتفي بنذرها، وأن تبلّل ثراه بأدمعها.

***

العاصمة قَلِقَه. نام النّاس. الأمن والمخابرات مُناوبون ..، يُراقبون، يفتّشون بحرص شديد مليء بالحذر والخوف من كلّ شيء، خوفهم ملأ قلوبهم، فنشروه على الملأ بكلّ زوايا العاصمة المرعوبة، فصمتت على مضض متوعّدة الأوغاد إلى حين يأتي موعدهم، دوريّات على رأس كلّ شارع وفي كل زاوية، وأخرى تجوب الأحياء مدجّجة برعب يُسْقط أعْتَى قلوب الرجال.
ورقة يطويها، لتستقرّ في جيبة (الفيلت) الأخضر الذي يرتديه الضّابط فوق البدلة الكوريّة الخضراء، بعد أن تأمّل الأسماء المطلوبة، بخُطَواته السريعة يقطع الممرّ باتّجاه غرفة مكتبه، ليستقرّ وراء طاولته. يفتح الأدراج، ويضيف بضع كلمات على الورقة، يُحدّد الأماكن، بعصبيّة مُفزعة يتطلّع إلى ساعة كبيرة تتربّع على الحائط المقابل له، ثم يرفع يده ليتأكّد من دقّة الوقت، يتناول سمّاعة التلفون يعطي أمره إلى عامل المقسم، بأن يتّصل على العمليّات لتجهيز خمس سيارات بعناصرها، وكامل عتادهم خلال نصف ساعة، مناديًا على الحاجب المجنّد. بِطَرْفة عين حضر مؤدّياً التحيّة: "احترامي سيّدي".
يا بني أحضر إبريق (المَتّهْ) بسرعة، أحسُّ بأنّ حلقي ناشف، الوقت ضيّق جدًّا.
(حاضر سيّدي).
ينصرف الحاجب إلى (البوفيه)، يعود بعد دقائق حاملاً طلب قائده، من فوره راح يملأ الكأس بالماء السّاخن بعد وضع القليل من السّكر، يرتشفه بواسطة المصّاصة المعدنيّة المُذهبّة.
خلال ذلك تصفّح أوراقاً، أخرجها من أدراج طاولته، دخان سجائره (المارلبورو) صنع سحابة فوق رأسه، ثم انتشر لتعمّ أجواء المكتب.

***

الأم أوَتْ إلى فراشها منذ ثلاث ساعات، بعد يوم مليء بالتّعب من أعمال البيت التي لا تنقطع على مدار اليوم، متقلّبة في فراشها وقد جفاها النوم، استعاذت بالله حاولت مِرارًا، قامت لتتناول كأس ماء، لإحساسها العارم بحاجتها للماء، لإطفاء جفاف حلقها.
تواردت إلى ذهنها ذكريات قديمة، حاولت تتبّع حالة القلق، لعلّها تصل إلى ميناء ترسو فيه قوارب ذاكرتها، المُجْهدة بين أمواج الخضمّ العاتية، شعرت بنوبة قشعريرة سَرَتْ في أوصالها.
ارتجف جسمها، ثمّ انخرطت في بكاء عميق، ونشيج مكبوت على مدار أكثر من ساعة، كأنّ قلبها افتتح صفحة جديدة من الحزن الأبديّ الطارىء على حياتها، فقلب الأمّ دليلها، ليلتها تلك مشهودة بامتياز نادر.

***

رشف آخر قطرة (متّة) ساخنة من الكأس، التفت إلى ساعته، جاء رنين الهاتف ليخبره بجاهزيّة الدوريّة، قام من وراء طاولته، وهو يفكّ حزام بنطلونه مُتّجهاً إلى الحمّام، بعد لحظات عاد إلى المكتب، ارتدى السُّترة الواقية من الرصاص، وضع مسدّسه على خصره، أخيراً لَبِسَ جَعبتَه، أمر الحاجب بتوصيل بارودته الروسيّة الخاصّة به إلى السيّارة.
تحرّك الرّتل، ما هي سوى دقائق قليلة حتّى توقّف أمام بوابة المدينة الجامعيّة، كبس على (الزامور)؛ فُتِحت البوّابة دخل الرّتل، أمام مكتب رئيس الحرس اصطفّت سيارته، ترجّل منها، دخل إلى المكتب.
- مسؤول المناوبة في تلك اللّيلة رحّب به أشدّ ترحيب: "تفضّل سيّدي، هل أطلب لك القهوة؟".

-: "لا..، لا ..، بسرعة أحضر قوائم أسماء الطّلبة، لنحدّد مكان المطلوبين، معي عشرة أسماء مطلوبة".
انتشر أفراد الدوريّة على الوحدات الأولى والثانية والثّالثة، ما هي إلّا دقائق حتّى انحشر خمسة مطلوبين في صندوق سيّارة الجيب الأولى، مُطمّشي الأعين، مُقيّدي الأيدي خلف ظهورهم، ركلاتُ العساكر على مؤخّراتهم، شتائم مُقذعة الألفاظ، وهم يحشرونهم بقوّة وفظاظة.
اتّجهوا بالآخرين إلى سيّارة الجيب الأخرى، انطلق الرّكْبُ بسرعة فائقة مسابقاً الرّيح، فتحت أبواب الفرع على مصراعيْها دخلت السيّارات؛ وأغلقت البّوابة الكهربائيّة المُصفّحة، هدأ ضجيج المحرّكات أمام بوّابة المبنى الكبير، اقتيد المعتقلون إلى الداخل.

***

بحركة مفاجئة قامت من فراشها، كالملسوعة، شعرت بأنفاسها تضيق حدّ الاختناق، الساعة تشير إلى الثالثة قُبيْل الفجر، نادت على زوجها: "محمد، رجاء أن تصحو، قلبي يحدّثني أنّ فندي في ضيق، أو حصل له مكروه".
- "يا بنت الحلال، الصباح رَبَاحْ، اِخْزِ الشّيطان، كلّها أحلام لا قيمة لها".
- "رجائي يا محمد أن تعلم، وتحسّ بالنّار الملهتبة في قلبي، قُم واتّصل به، لنطئّمن عليه، ونرتاح".
- تناول (الموبايل)، ضرب رقم ابنه: "الوقت متأخّر جدًّا، سنُزعِجَه ونُقْلِقَه لا غير".
يأتيه صوت (الكمبيوتر)، بأنّ: "الرقم المطلوب مُغلق حاليًّا، أو خارج نطاق الخدمة".

يُعيد الكرّة بإعادة الطلب، يتكرّر الجواب. ويخاطبها: "عزيزتي، كما قلت لك، لا شيء يستدعي هذا القلق المُفرِط، عودي إلى فِراشك، وفي الصباح نَسْتَجلي حقيقة الأمر".
يتكرّر جواب (الكمبيوتر)، عندما أعاد طلب الرقم في السّاعة السّابعة والنصف صباحًا، مُتعجّلًا في ذلك؛ ليتمكّن من مكالمة فندي قبل ذهابه للدوام في كليّة الهندسة، حتّى أنّ هاتفيْ صديقيْه في الغرفة أيضاً في حالة إغلاق، وعلى مدار ساعتيْن كاملتيْن محاولاته لم تتوقّف جميعها باءت بالفشل.
اقتربت السّاعة من العاشرة، حالة قلق وشَكّ سيطرت على نفسه، صمتٌ عميقٌ رانَ بِثِقلِه على المكان، دوّامة الأفكار عصفت بذهنه، استحضر صورة كلّ الاحتمالات السيّئة، حاول دفعها عنه:
"الله يلعن الشّيطان، أخذني في متاهاتٍ من الوساوس، لم تكن قد خطرت لي من قبل".

***

جرس (الموبايل) يكسر جليد الصمت بفظاظة غير عاديّة، ليقرّر حقيقة هواجسِ ومخاوف أمّ فندي، على الشّاشة يظهر اسم (محمد ابن جيراننا): "أهلًا عمّو محمّد، كيف أنت، طمئنّي عن أحوالك".
- محمد ابن الجيران: "والله يا عمّو أنا بخير، سامحني بنقل خبر سيّء، هذه اللّيلة اعتقلوا فندي..، ومن هُمْ معه في الغرفة، ومجموعة أخرى غيرهم". ترتخي يده عن (الموبايل) فيقع أرضاً، زوجته ساكنة مُرْهِفَة سمعها علّها تسترقُ كلمة من المُكالمة.
صرختْ فجأة بأعلى صوتها، للمرّة الأولى في حياتها، تخرُجُ عن رزانتها وهدوئها المعهوديْن: "يا ويلي على ابني، شو إللي حصل له؟، هيّا تكلّم بسرعة، أهو حيٌّ أم ميّت؟".

- "هدِّئي من روْعك، احمدي الله، هو بخير، لكنّهم اعتقلوه".
خارت قِواها، قدماها ضعُفتا عن حملها؛ ارتطم جسدها بالأرض، صراخُها أفزع الحجّة، فجاءت مُتحاملة على تعبها لتستطلع الأمر، بخطواتها البطيئة كسُلحفاة هَرِمَة، تتّكئ على عُكّازتها، دخلت عليهم الغرفة، استندت على الجدار.
قام أبو فندي مُتثاقلاً بخطواته المُتعبة، أحضر كُرسيًّا جلست عليه الحجّة، راحت تلتقط أنفاسها، متسائلة: "شو صاير معاكم".
- بعد دقائق من الصمت، استجمع شتات قِوَاه: "اعتقلوا فندي البارحة".
- تنفرُ الدّموع من عينيها: "لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يجازي أولاد الحرام".
تُجفّف دموعها بقطعة قماش كانت تحملها بيدها. وتُطلق لسانها: بالدعاء على الظّالمين، وتطلب من الله أن يفكّ أسر كلّ المأسورين.
قام أبو فندي من مجلسه، فتح (اللابتوب)، لرؤية الخبر، ما هي إلّا لحظات حتّى وصل لمواقع التنسيقيّات، التي نشرت خبر اعتقال الطّلبة في المدينة الجامعيّة مع ذكر أسمائهم، ومحافظاتهم المُنتمين إليها.
تبيّن أنّ معظم الشّباب من درعا، أقفل الموقع؛ لينتقل إلى موقع حكوميّ، نشر الخبر على الشكل التالي: "قامت مجموعة من قوى الأمن باعتقال مجموعة من المُخرّبين، والإرهابيّين داخل المدينة الجامعيّة في المزّة، وضبطت بحوزتهم مجموعة من الأسلحة والمتفجّرات، أرادُوا تنفيذ مخطّطات أسيادهم في ضرب الاستقرار في البلد. وجاءت يقظة رجال الأمن العين السّاهرة؛ لإحباط مخطّطاتهم الدنيئة الجبانة، والنّصر لنا على الإرهاب".

***

دخل الحاجب يحمل قصاصة ورقٍ وضعها أمام المُحقّق، بعدما قرع الباب. تلقّى إذناً بالدّخول.
هزّ المحقّق رأسه، وهو مُقطّب الجبين، زامًّا شفتيْه، عيناه غائرتان قليلاً لضعف وجهه، وهو يُحَملِق بالورقة، وكأنّ ملامحه توحي بالتعجّب.
انطلق لسانه بالشّتائم البذيئة، والتهديد بشكل عام: "شوف، يا فندي، كلّ من يأتينا يحلفُ أغلظ الأيمان أنّه بريء، أنتُم الخطر على الوطن، والتهديد لأمنه واستقراره، تتآمرون مع العصابات الإرهابيّة، ولا أدري ما الذي ينقصكم؟.
ها هي الدّولة توفّر لكم كلّ سُبُل الحياة، والأمن والأمان، وتتظاهرون ضدّها، يعني تريدون منّا أن نضرب لكم تحيّة وسلام، قَسَماً بشرف القائد، لنلعن أباكم وأبا أبيكم، ونحرقكم يا حقراء.. يا كلاب، فلا فائدة من الإنكار، أعرفُ عنك مالا تعرفه أنتَ عن نفسك، بإمكاني أن أخبرك من لحظة ما نزلت من بطن أمّك حتّى هذه الآن، لذلك بإمكانك تخفيف المهمّة علينا وعلى نفسك".
- أجاب فندي: "حاضر. سيدي .. أنت تأمر".
- المحقّق: "سأترُكُك كي ترتاح حتّى المساء في غرفة أخرى، خذْ هذه الأوراق، واكتبْ فيها كلّ شيء عن حياتك، إيّاك إخفاء أيّة معلومة، ولو كانت تافهة بنظرك، لكي لا أضطرّ لاستخراج إضبارتك من الأرشيف، وَفِّرْ على نفسك وعلينا الوقت".
- "على بركة الله ". حمل رُزمَة الورق، تمنَى لو يُتاح له الجلوس على الأرض. إنهاك شديد، حالة من الرعب المَشوب بالتشويش سيطرت عليه، خلال فترة تواجده عندهم من البارحة حتى هذه الساعة.

وهو واقف، سقطت ساقاه، وَهَنَتْ أعصابه، فلا طعام ولا شراب، عداك عن أصوات التعذيب القادمة من هناك، من خلف سُحُب الظلام، في نهاية الممرّ الطويل، هبطت معنويّاته إلى الحضيض.
جاء الحاجب، اقتاده إلى غرفة فارغة تماماً، إلّا من طاولة وكرسيّ، أغلق الباب عليه، أجالَ بنظره على الجدران، تنفّس الصعداء قليلاً، شعر بالراحة، تلمّس رجليْه، سرت الدماء في عروقه من جديد.
بسط الأوراق أمامه، غادرته الأفكار والكلمات، مضت نصف ساعة والقلم بين اصْبعيْه في حالة تأهّب. شارد الذهن .. فارغ الفؤاد، يتأمّل بياض الأوراق بلا معنى يخطر له في هذه اللّحظة أبدًا، يعتصر دماغه، وقد خانته ذاكرته هذه المرّة، الوقت يمرّ، يرفعُ رأسه يتأمّل سقف الغرفة والجدران، صورة الرّئيس مُتربّعة أمامه على الجدار المُقابِل له، يُصاب بالخوف من جديد، شعر بحاجته المفاجئة للذهاب إلى الحمّام، اختنق صوته في صدره، فلا يدري ما العمل؟.
-: "يا رب، عونك وفرجك.. يا إلهي.. أين أنا الآن.. ما هذا المكان؟، ما هو حال أمّي وأبي؟، يا تُرى..، هل عَلِموا باعتقالي؟. وإذا عرفوا.. كيف هم الآن؟، لا أدري هل ستطول فترة اعتقالي، الامتحانات على الأبواب، برنامجي مزدحمٌ بالمواد الدراسيّة، وكتابة الأبحاث من أجل التخرّج.
يا الله..!!، ألهمني الثبات في القوْل، نَجّني برحمتك، امنحني الشّجاعة والجرأة في هذا الموقف العصيب".
بينما هو على هذه الحالة من التَشتّت. جاءه صوت: "فندي .. ما الذي حدث، هل انتهيت؟".
تلفّت يمنةً ويسرةً، لاحظ مكبر صوت صغير مع (كاميرا) مُراقبة، تنبّه من جديد للوقت الذي يمرّ سريعًا، استجمع قواه، انطلق القلم بيده

لتدوين صفحة ونصف، كتبَ سيرتَه، وظنَّ أنّه لم ينسَ شيئًا مُهِمًّا إلاّ وذكره، بعدما عصر ذاكرته عصرًا شديدًا.
قام مُكرَهًا يَجرُّ رجليْه المُتَوَرِّمَتيْن، تمنّى لو بقي جالسًا في مكانه، أو تُتاح له فرصة الاستلقاء على الأرض، مشى خطوات قليلة.
دَقَّ على الباب، حضر الحاجب - المُجنّد - متأفِّفًا، بوجهه المُتعَبِ يحكي قصّة الدوام الطويل، والاستنفار بكامل الجاهزيّة، واشتياقه لأهله، وأشدّ منه إلى حبيبته ولقائها، وهي تنتظره منذ شهريْن، تكادُ أخبارها تنقطع، لولا برنامج (الواتس أب) الجديد على (موبايله) الذي يُخفيه بسريّة تامّة، حتّى لا يُفتَضَح أمره، ويكون وضعه صعبًا جدًّا.
لأنّ العقوبة معلومة للعناصر، فيفتحه أثناء استراحته عندما ينفرد بنفسه في الحمّام، أو في فراشه تحت البطانيّة، فيخفّف شيئًا من لواعِجِهِ، فتتجدّد الآمال في نفسه، بحرارة اللّقاء، ويتمنّاه لو يأتي اللّحظة: "ها .. هل انتهيت من الكتابة ..؟".
-: "نعم، تفضّل ها هي".
-: "سأعود إليك، إيّاك أن تقرع الباب، مهما كان الوضع، أو تُصدِر صوتًا".
أخذ الأوراق، غاب نصف ساعة، كانت فرصة إضافيّة إلى فندي للاستراحة كما أنّها حرقُ أعصاب.
وهو يتكهّن بالخطوة القادمة، نفقٌ مجهول، أفكاره تتلاطم كأمواج، تتكسّر على عتبة القادم المجهول.
استعاد رباطة جأشه، وسُرِّيَ عنه: "أنا لم أفعل شيئاً، بكلّ تأكيد أنّ اعتقالي نتيجة خطأ ما، وماذا لو كان تقريراً من أحدهم؟، **(المبلول ما يخاف من رشق المطر)**، و**(إذا وصلَتْ المئة فلتتدحرج)**، وليكن ما كان، أنا فندي.. وكفى .. وليكن ما كان".

***

دقّق فندي، وهو يستذكر نبرة كلام ولهجة العسكريّ، تذكّر أنّها قريبة من لهجته، انفتحت نافذة جديدة، في حديث ذاتي: "هذا بصيص أمل، انشرح له قلبي، علّني أجد التعاطف منه، شعور جارف يراودني، سأستجمعُ جرأتي، سأسأله مهما كلّفني ذلك، يا إلهي ..، هل يستطيع أن يوصل خبراً لأهلي، ويطمئنهم.
يا قلب أمّي .. يا قلب أبي.. يا إخوتي .. يا جدّتي، ما هو حالكم بعدي؟ هل عرفتم بما حصل لي؟.
الآن تعزّز اعتقادٌ لديّ وبنسبة كبيرة، أنّه من محافظتنا، ارتياح عظيم غمرني في هذه اللّحظات، أخذني على جناح الأشواق إلى خارج الفرع المعتقل أنا فيه، قوّة خارقة انتزعتْ كلّ التعب، والوهن من جسمي، استعادت عضلاتي قوّتها المعتادة، انتشتْ الشّجاعة في قلبي، إلهي .. يا إلهي، لا تُخيّب رجائي، تراختْ نبضات قلبي، سكَنٌ لطمأنينة عجيبة جارفة مجهولة المصدر، أيقنتُ ساعتها أنّ السّاعات القادمة عليّ عصيبة، وأنّني في طوْر التهيئة النفسيّة، والاستعداد التامّ، بثبات ورباطة جأش لم أعهدها من قبل، فأنا لستُ وحدي هنا".

***

عاد العسكريّ يحمل بيده بطاقة صغيرة، اقتاده ليودعه في الزنزانة، بينما هما في الممرّ يسيران، صمت رهيب يُخيّم، لم يستطع فندي أن يُكلّمه بكلمة واحدة، وما إن صارا على أوّل درجة في طريق النّزول للقبو.
بادر بسؤاله للعسكريّ: "أكيد أنّك من مُحافظتي، يبدو عليك أنّك ابن حلال، وطيّب، أطلبُ منك خدمة إذا سمحت، هذا رقم أبي إذا سَنَحَت لك الفرصة المناسبة، أن تطمئنهم عنّي".

صمّ العسكريّ أُذنيْه مُتظاهرًا بأنّه ما سمع شيئًا من كلام المعتقل، اعتاد تنفيذ الأوامر بحذافيرها دون تردّدٍ أو تذمّر.
تساؤلات مهجوسة بالأمل والرجاء متزاحمة في ذهن فندي، غامت نظراته في بحار عتمة القبو، صمت القبور صورة متكرّرة مملّة بديمومتها على مدار اليوم البطيء بانقضائه، وكأنّه يعادل سنة كاملة من حياته.
- : "يا إلهي..!!، أظنّه صنمًا يمشي على الأرض، كأنّ سمعه متحجّرٌ، سأعيد سؤالي مُجدّدًا مُستعطفًا حضرته، رغم أنّ رتبته الأدنى، فهو بالنسبة لي يعتبر خيط أمل أخير ربطتُّ مصيري به، واتّخذت منه قارب نجاة لاجتياز النّفق المظلم لأشعل الشمعة في آخره هناك، عندها سيرتاح قلب أمّي وأبي، استجمعت شجاعتي ثانية عندما رفعتُ نبرة صوتي قليلًا، مُعيدًا سؤالي، ربّي يوفقك، أيضًا جدّتي مريضة ولا أدري حالها بعدي".
- هزّ العسكريّ رأسه، وقال: " لا أستطيع، هيّا شدّ رجليْك، ورائي عمل".
- فندي بإصرار: " أنت أملي الوحيد هنا بعد الله، فلا منفذ لي إلّا أنت، وأتمنّى أن لاتُفشّلني، ومعروفك سيبقى طوقًا في عنقي إلى مماتي، فأنت ستكون رسول القلوب، قلب أمّي كقلب أمّك، أفلا تُحبّ أن تفرح قلبها؟".
مطّ شفتيْه مُتردّدًا بين الرفض والموافقة، حاجباه ارتفعا إلى الحدّ الأعلى لهما، سحب قطعة الورق الصغيرة وأخفاها بسرعة في جيب سُترته العسكريّة، مُتلفّتًا بقلق ظاهر، ويده متوترة بعصبيّة، وقال بكلمات أقرب للهمس دون الالتفات إلى المُعتَقَل، مُظهرًا حركات القسوة معه، تنفيذًا للأوامر:

-: " أمري لله..!!، حاضر.. هذا الموضوع سِريّ بيننا، إيّاك أن تُخبِر أيًّا كان، لأنّ الضرر علينا معًا، والعُقوبة لي ستكون بتهمة الخيانة العظمى، لإفشاء أسرار الدّولة، والتَخابُر مع العصابات الإرهابيّة".
-: "لا تهتم لذلك، سرّك في بئر عميقة لا قرار له، فهذه خدمة العمر لن أنساها لك ما حييتُ".
أربعون درجة أحصاها فندي، حتّى وصل للقبو.
- فيقول: "سلّمني لشخص على الباب السُّفلي، وانصرف لعمله، بعد أن ناوله البطاقة، المُدوَّن عليها رقمي فقط، فلا اسم لي هنا، فقط رقم لا غير، فلا أحد يعرف من أنا، الحُرّاس والجلّادون يُنادونَنا بالرقم، وعلينا أن نُجيب نداءهم بلا تردّد.
ثمّ اقتادني الحارس الآخر إلى زنزانتي بعد أن دفعني إلى داخلها. ظلام دامس، صمت مريب، كصمت القبور، هل من المعقول أنّه لا يوجد أحدٌ هنا في هذه المقبرة؟.
لا أعتقد ذلك.
إذن أين هم السجناء، والمعتقلون؟.
التعليمات شديدة وقاسية بالتزام الهدوء، وعدم إصدار أيّ كلمة تحت طائلة العقوبة، ربّما تكون نتيجتها الموت تحت التعذيب.
الجدران القديمة البالية، ورطوبتها اكتنزت الظُلمة الدّامسة؛ فتقهر نظراتي وحدّت من رُؤيتي التي انكسرت إثر اصطدامها بها، رائحة العفونة المُنبعثة إلى الباب العلويّ، المنفذ الوحيد الذي يرتفع لأكثر من أربعين درجة، هي أكثر بعشر سنوات من فترة سجن (نيلسون مانديلا).
مدّة معقولة غير مُستَهجنة بالنسبة لسُجناء الثمانينيّات، أقبعُ هنا مُفترشًا الأرض، رُطوبتها تنخر أعصابي، عضلات جسمي تتشنّج شيئًا فشيئًا،

أكاد أفقدُ الإحساس بها، إن وقفتُ أتعب، وإن جلستُ أشعر برغبتي بالحركة. أفي هذا القبر أتحرّك..!!؟.
أحرّكُ يديّ لأستجمع ذاتي المفتقدة بسبب السهر والقلق لعدّة أيّام، أتلمّسُ أعضاء جسدي، بحمد الله تيقّنتُ أنّني ما زلتُ على قيد حياة استحالت إلى لا شيءٍ، صارت معدومة الفعل والفاعليّة، مُنفعلة بدوّامة الصمت المُطبق على المكان، وهي تحاكي خيوط ضوء خفيف يتسرّب إلى القبو من قارّةٍ أخرى.
تشقّ عُبَاب الظلام، تكتبُ أنشودة الأمل من جديد، وتجعله مُشرقاً في تلك العيون المَبهُورة بذلك السّنا الخافت، أيقنتُ ساعتها، أنّ هناك على السطح من يتحرّك، والحياة لم تتوقّف، والشّمس ما زالت تُشرق كلّ يوم، وأنّ القمر على مواعيده في السّماء، يُرسل خيوط نوره الشّاحبة في أوّل الشّهر، ويُنْعِم بكَرَمِ ضيائه على الكون؛ عندما يَبْدُر في منتصف كلّ شهر هجريّ.
أمدّ يديّ بشكل مستقيم بحيث تتوازيان مع الكتف؛ لإحساسي بالفراغ الهائل، ساقني ظنّي إلى أنّني ذرّة تائهة في درب التبّانة، جاءني الجواب بسرعة حين اصطدمت يَدايَ بالجدارين المُتقابلين، نزلتِ الطُمأنينة على قلبي، خطوْتُ خُطوة واحدة فقط؛ ليرتطم جسدي بالجدار بِقوّة، فتسلّلتْ إليّ نبضات متوتّرة عبر الجدار، اقتبَسَها ذلك البناء الضّخم المُتكوّم فوق سطح الأرض في وسط العاصمة، يبدو لي كأنّه في صحراء الرُّبع الخالي.
سَرَتْ النبضات بطيئة جدًّا ببطء الزمن الذي أُعَانِي منه، كما عانى أحد أبناء مدينتنا من سجناء الرأي على مدى أكثر من عشرين عاماً، عندما كان طالباً في الثانويّة العامّة، حين أمسكت به دوريّة أمن عسكريّ، بعد مُنتصف اللّيل مع رفاقه الذين كانوا في السهرة.

سيق مع قطيع مثله، أصبح رقمًا فقط، لا يعني لهم شيئًا، إلاّ أنّه في سجلّاتهم موجود كإرهابيّ، يعمل على تقويض النّظام، وعدوّهم اللّدود، فلم يشفع له صغر سنّه، ولا نضال والده المُنقطع النّظير في سبيل الحزب، وتوطيد نظامه، كان طالباً شارف الآن على نهاية العقد الرابع من العمر.

ما أتعسه من عُمر، فلم يكن عُمُراً بالمعنى الحقيقيّ بل رحلة عذاب، كان حالماً وهو في المدرسة، يرنو إلى المستقبل بأن يكون طبيبًا يُداوي جراح النّاس البسطاء في قريته(**موْج**) ويحنو عليهم، الزنزانة المظلمة دُفِن فيها كما أنا الآن مدفون بأختها، ودُفِنَت أحلامه فيها فكانت قبرًا أبديّا؛ ماتت آماله، ولم تجد مُتَنفَّساً لها، بعد الحكم الجائر الصادر بحقّه، من هيئة ما يسمّى القضاء العسكريّ بعشرين عامًا.

هنا انتبهتُ فجأة إلى انقطاع لحظة الصمت الثقيل المُرين على المكان، بصوت صرير الباب العلويّ، عندما أحدث الضجّة المختلطة بأصوات الجنود، كلّ أربع وعشرين ساعة يُفتَحُ مرّة واحدة؛ لإدخال الطعام لسكّان الزنازين، أوعند تبديل نوبات الحراسة، هنا استفقتُ، وأنا أحاول تغطية عينيّ بكلتا يديّ بضع دقائق، حتّى أتمكّن من فَتحِهِما، من توهّج النّور المُبهِر الدّاخل من الباب فجأة، مع تشغيل المصابيح الكهربائيّة، فقط عندما يدخل أحد السّجانين أو الحرّاس، إلا من مصباح وحيد عند بداية الدرج، يُوزّع ضوءه خافتاً شاحباً".

***

شهرٌ بتمامه وكماله مضى على اعتقال فندي، أمّه ليلها كنهارها، لا نوم ولا راحة، كآبة غامضة اكتسى بها وجهها، ناره تحرق قلبها، مدامعها جفّت، نحُلَ جسمها وهزل.

اتّصل أبو فندي بأصدقاء له، على أمل أن يحصل على خبر عن ابنه المعتقل من خلال معارفهم.
ذات ليلة، رقم غريب يتّصل على تلفون أبو فندي، السّاعة تشير إلى الثانية عشرة ليلاً، تردّد في الردّ، لولا إلحاح زوجته عليه باستقبال المكالمة: "أهلا وسهلاً، أهلا بك، بالله عليك هل رأيته، وكيف حاله..؟. ربّي يُطَمئِن بالك، والله كنت أنتظر مثل هذا الاتّصال من حوالي شهر، لكن لا أعرف كيف ومتى. والله..!!، إجازة أسبوع تُعتَبر ممتازة لك في هذه الظروف، صدقت والله، ابن جيراننا صار له ستّة أشهر ما جاء لأهله، استنفار دائم عندهم".
أمّ فندي مُتحفّزة لدرجة أنّها كادت أن تسحب التلفون من يده لتطمئنّ، لكنّها وضعت أذنها على أذن زوجها، واستمعت معه للمكالمة، عرفت أنّ المتّصل، عسكريّ مُجنّد يخدمُ في فرع المنطقة، المكان الذي يُعتَقَل فيه ابنها.
الفرحة عقدت لسانها، على غير إرادة منها انهمرت دموعها، وبلّلت يد زوجها التي تحمل (التلفون).
- أبو فندي: "يا بني هل باستطاعتنا أن نزوره. لماذا..؟. طيّب إذا في مجال أن تطمئنه عنّا فنحن بخير، أخبره أن ينتبه لنفسه، ويعتني بحاله، وأن يكون شُجاعاً. فهمتُ من كلامكَ .. يعني ذلك أنّه خلال فترة شهريْن من اعتقاله، سيفُرجُون عنه؟. كما أنّ جدّته مريضة، وحاليًّا هي في المستشفى، بأمان الله مع السلامة".
- أم فندي: "الحمد لله يا ربّي، الذي طمأن قلبي". سحبتْ نَفَسًا عميقًا، انفرجت أساريرها، وهي تمسح دموع فرحتها، وقالت: "قلبي دليلي يجب أن تعلم ذلك يا زوجي، كأنّ هاتفاً من الغيب أنبأني أنّ رنين (التلفون) وراءه شيءٌ مُهمٌّ، سأنام هذه اللّيلة ملء جفوني".

تصوّر أنّها قبلت بالسّجن، وما يرافقه من إساءات، مقابل أن تسمع أن ابنها حيٌّ يُرزق، فما هو الفرق بين السّجن في العنبر، أو في الزنزانة الانفراديّة.
الموسوم بالقهر، وتقيّيد الحريّات، وبين السّجن الكبير الممتدّ على مساحة سوريّة، المصحوب كذلك بالظلم والاستبداد؟.
- أبو فندي استرخى، صدمة المفاجأة عقدت لسانه، عشر دقائق حتّى استطاع أن يهضم الموقف، وقال: "(**ربّ رميةٍ من غير رام**)، جميل جدًّا أنّنا عرفنا مكان اعتقاله، وحسب كلام العسكريّ، أمامَنا انتظار شهر آخر على استقباله، بعد الإفراج عنه، وتتمّ فرحتنا بوجوده بيننا ".

***

ما زالت عقابيل مرض الحجّة جواهر تتفاعل منذ الوعكة الصحيّة، التي ألمّت بها منذ فترة حينما دخلت المستشفى، وخرجت بعد استقرار حالتها، رغم أنّ الظروف المحيطة بها بشكل عامّ مريحة، أمّا ما يحصل في القرية فقد أتعبها، فكلّ يوم تجلس مع صديقاتها يتسامرْنَ في شتّى مجالات الحياة، انعكس ذلك على صحتها المُعتلّة أصلاً، فعوامل الضغط النفسيّ تُحيط بها من كلّ حَدْبٍ وصَوْب، ممّا جعل (الضغط والسُكريّ) بارتفاع دائم، وفوق المستوى المألوف بدرجات مُقلِقة.
ازدادت حالتها سوءًا بعدما عرفت خبر اعتقال فندي، وتتماسك أمام ابنها وكنّتها أمّ فندي. وعندما تنفرد بنفسها تَبكِيه بدموع قلبها الحرّى، فهو الحفيد الأوّل في حياتها، فحبّه خالط روحها ووجدانها، وكثيراً ما فاق حبّه حبّ أبيه بدرجات.

فلا يمرّ يومان أو ثلاثة حتّى يأتي إليها الطبيب في البيت، لمُعاينتها ومراقبتها.
إلى أن جاء اليوم الذي طلبت فيه من أبي فندي ابنها، أن يُدخلها إلى المستشفى؛ لأنّ حالتها غير مستقرّة، وشعورها المتواصل بالضّيق.
فكما كان خوفه من ارتفاع الضغط والسّكر معًا، فإنّ الخطر أكبر في حالة هبوطهما المفاجئ لصعوبة السيطرة عليهما.
- قال الطبيب: "ها أنا أعطيتها جُرعة دواء كافية، لإبقاء حالة الحجّة في استقرار للأربع والعشرين ساعة القادمة. من المُفضّل إدخالها للمستشفى؛ لأنّني على يقين أنّها بحاجة لمراقبة دائمة على مدار السّاعة، والله يعافيها".
- أبو فندي: "إن شاء غدًا صباحًا بعد الإفطار سآخذها".
بعد أن شرب الطّبيب فنجان قهوته، استأذن للذهاب، رغم أنّ أبا فندي أحبّ مجالسته، للتحدّث في أمور البلد عامّة، لكنّ رنين هاتفه النّقال لم يتوقّف. فالمرضى ينتظرونه في العيادة، ومنهم من ينتظره في بيوتهم، فهم لا يستطيعون الذهاب إليه، أو الانتظار في عيادة مُكتظّة حتّى يأتي دورهم في المعاينة لصعوبة حالتهم، والحرج الذي يصيبهم إذا ما غادروا بيوتهم إلى أيّ مكان. فقام مودّعا، تَبِعَه أبو فندي. دسّ يده في جيب الطبيب، ووضع الأجرة فيها.

***

الحجّة ساءت صحّتها بتسارع غير مُتوقّع، شارف خريفُها على الانقضاء، مرضُها الأخير جاء مَدعَاةً لدخولها المشفى لأيّام عديدة، وعلى مدار أسبوعيْن، رقدت على سرير الشفاء.

وفي كلّ يوم كانت تسقط ورقة، تتبعها أخرى في اليوم الثاني، إلى أن انتهت تلك الأوراق في اليوم الخامس عشر.. !!..

هبط ضغطها بشكل مفاجىء، ضاقت أنفاسها حتّى صارت تتحشرَجُ في مساء ذلك اليوم، جهود الأطبّاء لم تفلح في إيقاف تدهور صحّتها، والسيطرة على حالتها.

قُبيْلَ الظهيرة أعلن الأطبّاء استسلامهم لتقدير الله ومشيئته، وهي في غرفة العناية المركّزة بين الحياة والموت، تحت جهاز التنفّس الاصطناعيّ، وجهاز تخطيط القلب، والخطوط المُتعرّجة على شاشته صاعدة هابطة باضطراب واضح، وكيس أملاح (السّيرُوم) يتّصل بذراعها، وليس باستطاعتهم فعل المزيد من أجل إنقاذها.

دموع أبو فندي تنزف بين الحين والآخر، كنزف قلبه على ابنه المُعتَقَل، كان الوقت كافياً له ولمحيط الأسرة لأن يتأهّب، ويستعدّ نفسيًّا لموتها، وهو قد سلّم بقضاء الله وقدره، بكامل الرضا و القبول.

خلال الأسبوعين الماضيين، لم ينعم بالرّاحة لا في الأكل ولا في النوم، فهو لا يكاد يبرَح المستشفى، إلا لقضاء بعض حوائجه في البيت من استحمام وتبديل ملابسه.

فلم يكن يخطر بباله، ذلك اليوم الفاجع بمفارقة والدته إلى الأبد، في هذه اللّحظة تمنّى حضور أخيه أبي سليم، الذي غادر إلى مخيّم الزعتريّ قبل أكثر من شهر بقليل، فقد حدثت أمور هامّة في غيابه، اعتقال فندي، ووفاة الحجّة.

ضاقت الدّنيا في وجهه، لمّا أيقن أنّها اللحظات الأخيرة في حياتها، ما أصعبها من لحظات في حياة المرء إذا الأفكار غادرته، وخَلا عقله منها كافّة. وتعطّلت حوّاسه عن الإحساس بالمحيط، والدّموع تجمّدت على جفنيْه، الكلام انحبس في حلقه، لم يكن يتخيّل أن يكون بين أنياب اللّحظة الأقسى في حياته كلّها على الإطلاق.

فَطِنَ لما يجب عليه أن يتصرّفه، خطر له أوّلاً أن يتّصل بأخيه ليُخبِره بالنبأ الفاجع، ثمّ يتّصلُ بأخواته اللّاتي لم يكن منهنّ أحد حين فارقت الوالدة الحياة، في الغالب كُنّ يأتين بعد الظهر، ذلك المساء غادرن مُبكّرًا من أجل أولادهنّ والقلق يساورهنّ، ولم يعلمن بقرار الأطبّاء قبل الظهر، أنّها متروكة لرحمة الله بعدما فقدوا السّيطرة على حالتها. ثم أخبر جميع أقاربه الذين لم يكونوا على علم بذلك.

في تمام الثّامنة مساء، أسلمت الرّوح لبارئها بعدما نطقت بالشهادتين، وإصبعها السبّابة تنفرِدُ مُنتصبة كما في الصلاة، وهي تشهقُ آخر أنفاسها بصعوبة ظاهرة.

البسمة ترتسم على مُحَيّاها، لسانها يتحرّك بكلمات تخرج ثقيلة، بصعوبة كبيرة فَهِمَ أنّها تدعو الله أن يوفّقه، ويفكّ أسر ابنه. بينما يدها تضغط على يد أبي فندي عِدّة مرّات، انتبه للخاتم في إصبعه..، ففَهِمَ كذلك أنّها توصيه به. سرح بفكره بعيداً، ليتذكّر ذلك الصباح، عندما وضعته في إصبعه أوّل مرة، وكلامها المؤثّر، سقطت دمعة عزيزة منه على خرزة الخاتم، توزّعت على يَديْهِما، اشتعل داخله بحرارة الموقف..، لكنّه تماسك، حتّى لا يضعف أمام ضعف والدته، فهي في لحظاتها الأخيرة. تذكّر كلماتها آنذاك بهذا الخصوص، هزّ رأسه، وقال: "يا أمّي وصيّتك على رأسي، وهي كالحَلَقِ في أذُنيَّ، كُونِي مطمئنّة.. يا أمّي". اتّسعت ابتسامتها أكثر، هزّت رأسها بحركات إيمائيّة خفيفة ..، أشرق وجهها رغم سكرات الموت، وارتسمت فيه علامة رضاها عمّا قال.

***

شعرت الحجّة جواهر بدنوّ أجلها، أيقنت أنّها في أيّامها الأخيرة، جدّدت وصيّتها لأبي فندي ابنها، أن يدفنها بجانب والده ووالدها.
منذ زمن قد حجزت مساحة كانت خالية بين قبريْهِما، قامت بتسويرها بالحجارة بعد أن كلّفت أحد أقاربها بتجهيز القبر، ودفعت له تكاليف الموادّ وأجرته.
في تلك الفترة اشترت كَفَنَها وجهّزته، اطمأن قلبها لما فعلت، وحدّثت بعض صديقاتها من عجائز الحارة، بشعورها الدّائم الذي لايبارحها أن أجلها اقترب، وكان سرورها عظيمًا يوم أن أخبر قريبها بانتهائه من العمل، وتحقّقت أمنيتها بالقبر الذي رغبت به.
هُرِع الكثير من الأهل والأقارب إلى المستشفى، فور سماعهم الخبر، ولَم يتخلّف منهم إلّا من حالت الظروف بينه وبين المجيء.
منذ الفجر قامت مجموعة من الرجال والشباب بالذهاب إلى المقبرة لفتح القبر المجهّز من قَبْلُ لمثل هذه السّاعة، على أن يكون الدفن بعد صلاة الظهر، انتصبت خيمة العزاء في ساحة الحارة المقابلة للبيت.
كما أن البعض من أقاربه نشروا الخبر على (الفيس بوك). بدأت تنهال الاتّصالات من داخل القطر ومن خارجه، لتقديم واجب تعزيتهم لصديقهم أبي فندي.
في اليوم الثّاني للعزاء، وعلى غير موعد مُنتظر، وصل أبو رستم بسيّارته إلى ساحة الحارة.
لكن هذه المرّة للقيام بواجب العزاء. تقدّم وكان بصحبته مختار القرية، ألقى التحيّة قام الجميع وقوفاً؛ لردّ تحيته.
عندما وصل دوره بمصافحة أبي فندي أخذه بالأحضان، راح يُقَبّله، وهمس في أذنه: "وصلتني قائمة بالمطلوبين، واسمك على رأسها، دبّر حالك .."

رغم التوجّس من الموجودين من قدومه في مثل هذه الأيّام، لأنّه نذير شؤم عليهم، فقد زالت شكوكهم ومخاوفهم، أخذ مكانه في الخيمة بين أهل العزاء.

وأكرمه أبو فندي بأن جلس بجانبه، حيّاهُ الجميع برفع أيديهم مع إلقاء التحيّة عليه، وعلى المختار.

- رفع أبو رستم صوته: "الله يرحم الحجّة.. يعلم الله أنّها مثل والدتي، عليك بالصبر على فراقها، والله قطعتُ كلّ أعمالي، وواجبكم عليّ كبير، ولا يُمكنني التخلّف عن مؤازرتكم في مثل هذا الموقف، لتخفيف الحزن عنكم".

- أبو فندي كان عليه المجاملة، وردّ الواجب لأبي رستم: "يا سيّدي.. شكر الله سعيكم ..، ويقدّرنا على مكافأتكم على موقفكم النبيل، والمعبّر عن أصالتكم، خاصّة في مثل هذه الظروف..".

- أبو رستم من جهته، تأثّر بالموقف، وشعر بقربه من النّاس، لكن مظهره يوحي بغير ذلك، لمن لا يعرفه، فأراد ترطيب الجوّ بحديث آخر: "و الله يا أبا فندي، إنّ أختَكَ أمّ رستم عجبتها تنكة الزّيت التي اشتريتُها منك سابقاً، أصرّت على أن نشتري من عندك حصرًا هذه المرة، بَسْ إن شاء الله نجد طلبها عندكم".

- أبو فندي: "تكرم أنت، وأختي أمّ رستم ..، غالي والطّلب رخيص، ولو كان من مُوْنَة بيتي فلن ترجع خائباً، مهما كلّف الأمر".

قام من فوره للبيت قاصداً المستودع، فجلب تنكة زيت مختومة، ورجع بها، تناولها أحد الشّباب منه، ووضعها في قاطرة السيّارة.

- أبو رستم: "أشكرك يا سيّدي، وإن شاء الله في آخر الشهر سأرسل لك ثمنها، عندما أستلم الرّاتب، فكما تعلم فإنّنا الآن في منتصف الشّهر..".

- أبو فندي: "فيها الهنا والشّفا إن شاء الله..، بلا نصف ولا آخر شهر، فهي هديّة لعائلتكم عن روح الحجّة. أهلاً بكم، تستحقّ كلّ خير يا أبا رستم، فأنت أصبحت من أهل قريتنا، لا فرق بينك وبين أي شخص من أهلنا، (**فمن عاشر القوم أربعين يومًا، صار منهم**)".
- أبو رستم، وقف بقصد أن يغادر، وقف الجميع لتوديعه: "الله يرحم الحجّة، ويقدّرنا على فعل الخير مع الجميع، فقد غمرتموني باحترامكم، وأنت يا أبا فندي، ربّي يقدّرني أن أردّ لك المعروف، وستجدني إن شاء وقت الشدّة، بعون الله".
انصرف الضّيف ومعه المختار، قام وراءهم مجموعة من المُعَزِّين للانصراف خلفهم، كانت الأعين جميعها مشدودة لأبي رستم، أنصت الحضور.
توقّفوا عن الكلام فيما بينهم، ليرجعوا إليه، والتعليق على تلك الزيارة، و تنكة الزيت التي أخذها بطريقة فنيّة.
أبو عادل (يعقوب المنسي)، يجلس بجانبه صديقه الحميم أبو راجح، همس أبو راجح: "ما رأيك فيما حصل؟".
- أبو عادل: "ما رأيك بأن نتحدّث علناً، حتّى يسمع الجميع؟".
- "أحبِّذُ ذلك، ولا أرى ما يمنع".
- فما إن رجع أبو فندي، وجلس في مكانه عند بوّابة الخيمة، انبرى أبو عادل قائلاً: "يا أبا فندي، فوجئتُ بموقفك من طلب هذا الرجل، واستجابتك السريعة له، فقد انطبق علينا المثل، (**كأنّك يا أبا زيد ما غزيت**)، يعني أنّ ثورتنا قد قامت من أجل محاربة ظواهر الفساد في السلطة، والفاسدين والمرتشين من أمثال هذا الرجل".
- أبو فندي: "يا سيّدي .. عن روح الحجّة اعتبرها حسنة، أسوة بالآخرين، (**واللُّقَمْ تَصدّ النِّقَمْ**).

- أبو عادل: "يا أخي .. لا أخالفك الرأي بما تقول، ولكن لا تجوز الحسنة على أمثال هؤلاء الفاسدين المفسدين".
- أبو فرحان (اسماعيل الهيف): "والله يا أبا عادل، لا أرى فيها ما يثير الشكّ والريبة، اعتبرها يا سيّدي هديّة".
- أبو سالم علي السّماحي: "كلام أبي عادل معقول، وفي موقعه الصّحيح، وأبْصُمُ له بالعشرة، وعلى بياض، لا غبار على ما تفضّل به، يجب أن نُفرّق في مواقفنا، ونُميّزها عن عواطفنا".
- أبو بشير(محمود الركيبي): "صلّوا على النبيّ يا جماعة الخير..، الأمر لا يستحقّ كلّ ما ذهبتم إليه، وأخاف أن يتحوّل هذا النقاش إلى جدال ممكن أن يؤثّر على علاقتنا ببعضنا".
- أبو سالم: "أنت تُؤثِرُ الحلول الوسط دومًا يا أبا بشير".
يسكتْ أبو سالم عن متابعة كلامه، لقدوم أشخاص جُدُد على الخيمة، قام أهل العزاء صفًّا لاستقبالهم، ثمّ عادوا وتابعوا أحاديثهم الجانبيّة بخصوص الموضوع، الذي لم تنته حيثيّاته.
- كان أبو فندي مشتّت الذهن، لم يبالِ بما قيل من نقد لاذع له، لكنّه أضمر في ذهنه أن يخبر أبا سالم، وأبا عادل فقط بحقيقة الموضوع، عندما سنحتْ له الفرصة المناسبة، على انفراد بهما دون الآخرين: "إنّها غلطتي على مرأى من الجميع، ولكنّ الذّنب ليس ذنبي، حتميّة الظرف فرضت عليّ التصرّف هكذا.
كما أنّ حضور أبي رستم فاجأني، أصابني بالذّهول، وأنا أرى سيّارته تصطفّ على مقربة من الخيمة، نظراتي ترمقه من أسفل إلى أعلى، ومن أعلى إلى أسفل.
ما الذي جاء بك في مثل هذا الساعة؟.

أعلم أنّك قادم ليس لتنفيذ مُهمّة اعتقال، لكن هناك شيء ما، انتابتني حالةٌ من الذهول دار رأسي، وانفتل باتّجاه آخر الخيمة، إلى أن وصلنا للعناق، والسّلام الحارّ.
يده تكبس على يدي، كلماته تخترق أُذُنيّ، وأنت يا أبا عادل، ويا أبا سالم، يا صديقيّ .. هل فهمتُما مقصدي؟، من عدم مبالاتي بالردّ عليكما أمام الحضور.
أنتما فقط من أحرص على إطْلاعِكُما على المخفيّ، نعم أنتما فقط، وعلى رأي من قال: (**إللي بِتْعرِفْ دِيَّتَهُ اقْتُلْهُ**)، فالرجل مَكْثُورُ الخير على خطوته بالتمويه، واستغلالَه حادثة الوفاة لإخبارنا، فهو مكسب لنا جميعاً وبأجرته، لا تحسبوا أنّ أيّ أمر يمشي بلا ثمن، (**ما في إشي بالبلاش، إلاّ العمى والطِّراشْ**)، الظّرف لا يسمح لنا إلّا باستغلاله، لنصدّ البلاء عنّا جميعاً في قريتنا، فالوحش مُتَحَفِّزٌ ليفترسنا، فلا حيلة لنا أبداً غير هذا".
- الأستاذ أبو فهمي يجلس ضمن الحضور، في الصف المقابل لأبي فندي في الخيمة، وجّه كلامه للجميع: "البارحة سعدتُ جدًّا، وأنا أشاهد الأستاذ خالد الهنيدي المحامي، على قناة الجزيرة في برنامج بلا حدود، وقد بَهَرني بطلاقة لسانه، وأفكاره المُنظّمة، والثّقة العالية التي يتكلّم بها عن ثورتنا، كانت كلّ تحليلاته منطقيّة، من جهة المطالب المشروعة لنا كسوريّين، في الحريّة والعيش الكريم، والإصلاحات في جميع مجالات الحياة، كما أنه استدرك.. مُضيفًا أنّ النّظام بتركيبته الحاليّة غير قادر على الإصلاح، أو تقديم أيّ شيء للشّعب، وحتّى لو أردنا إصلاحه فمن غير الممكن إصلاحه، فالعطب والخراب قد عشّش فيه من الداخل، والسُّوس قد نخره، سيتهاوى عاجلاً أم آجلاً أمام إرادة الشعب، وإصرار الجماهير وعدم التراجع، كان مقنعاً للمشاهد والمستمع بكلّ المعايير، رغم أنّني أعرفه عزّ المعرفة، لكنّني لم

أكتشف فيه هذه الموهبة الكبيرة، وجرأته بوضوح تامّ غير قابل للتأويل في الدّفاع عن الشّعب وثورته، وتبيان أساليب النّظام الفاسدة، كما تنبّأ بأشياء مستقبليّة، المُهمّ يا جماعة الخير، أتمنّى أن تكون قد سنحت لكم الفرصة بمشاهدته، ومن فاتته تلك الحلقة الرّائعة، فعليه بمتابعة حلقة الإعادة في ظهيرة بعد غد".

- أبو عادل متحفّزٌ لاستلام زمام الحديث: "الله يحفظ لنا الأستاذ خالد، والله إنّه يرفع الرأس عالياً، سبحان الله فهو كالغيث أينما حلّ.. أزهرت الحياة به. يكفي هذه القرية فخرًا أنّه أحد الآباء الروحيّين لهذه الثورة، وهو خير لسان لنا، يحكي للعالم أجمع مأساتنا".

- أبو فرحان (إسماعيل الهيف): "الله يجيب العواقب سليمة".

- أبو بطّة، وجد الفرصة مناسبة: "يا جماعة الخير، لا أريد أن تنزعجوا من كلامي، فظهور الأستاذ خالد على الجزيرة، سيجلبُ لنا جميعًا الكثير من المتاعب في القرية، غدًا ستتذكرون كلامي".

- أبو سالم: "الرّجال معادن.. تظهر وقت الشدائد، والمحامي خالد من أهلها، ولم يتَعَدَّ عليها. فنحن في ثورة، لابدّ من التضحيات.. فلا ثورة بلا ثمن، والأحرار هم من سيدفعون الثمن، يا ناس إنّ ما نطالب به.. كبير وعظيم جدًّا، نحن نطالب بالحريّة، وهل تحسبون أنّها هيّنةٌ وسهلة، فهي تحتاج لمهرٍ غالٍ.

(وللحريّة الحمراء بابٌ = بكل يدٍ مُضرّجةٍ يُدَقُّ)

لم نَعُدْ نملك الشيء الكثير حتّى نخسره، فنحن نملك كرامتنا وشرفنا، وهذا ما لا يمكن لأحد أن يساومنا عليه، ولا نستطيع التنازل عنه، الطريق طويلة أمامنا، علينا أن نتوقّع الأسوأ، لكن لن نتراجع.

(إذا الشّعب يومًا أراد الحياة = فلا بد أن يستجيب القدر)

فإرادة الشّعب من إرادة الله، علينا أن نتيقن هذه الحقيقة ".

- أبو بطّة ضرب كفّاً بكفّ، وهو يَمُطُّ شفتيْه للأمام، رافعاً حاجبيْه للأعلى، علامة عدم رضاه عن الحديث، ويهزّ رأسه مُتَمْتِماً: "سنرى...!!".

- أبو فرحان: "لا حول ولا قوة إلا بالله، الله يقدّم الذي فيه الخير يا جماعة".

- أبو سمرة: "التغيّير قادمٌ لا محالة، كفانا انتهازيّة، ووعودٌ فارغة، عِشْنا على أمل..، استفقْتُ ككثيرين من أبناء الحزب، في وقت متأخّر، على سرقة الحزب منّا، وجعلوا منه جهازاً أمنيًّا للتجسّس على بعضنا، وأصبح مرتعاً للانتهازيين والأفّاقين، وطالبي المناصب، وصار كملاءة يتلفّع بها كلّ طامح، وسُلّماً يُرْتَقى عليه، ومن خلاله للسيطرة على مقدّرات الدّولة، ونهبها بطريقة بشعة، قضت على كلّ آمالنا وأحلامنا، حتّى أنّ الشمعة التي كنّا نظنّ أننا سنجدها في نهاية النفق.. ضاعت ..!!.
كذبوا علينا بأنّنا دولة مواجهة، وبالصّمود، والتصدّي..، صمدوا أمام مَنْ ..؟، لا ندري والله ..!!، وتصدُّوا لِمَنْ؟، كذلك لا ندري..!!، نحن في دوّامة ..، والله وحده من سيفرجها علينا، و له وحده المشتكى".

***

اتّجهت أنظار الأجهزة الأمنيّة إلى النّاشطين في كلّ المجالات، جاءت محاولات إسكاتهم من خلال الاعتقال أو التصفية، المحامي خالد يُعدّ ناشطاً حقوقيًّا له دور بارز في صياغة، وإصدار بيان نقابة المحامين الأحرار في المحافظة، كان ذلك كافياً ليصبح هدفاً متميّزاً، عليهم التخلّص منه بأيّة وسيلة كانت، خلال فترة شهر تقريباً تعرّض لمحاولتيْ اغتيال؛ نجا منهما بأعجوبة.

باءت محاولات اعتقاله بالفشل، ممّا جعلهُ يتوارى عن الأنظار، بعد فترة اختفاء قسريّة، ظهر أخيرًا على شاشات الفضائيّات كأحد رموز الثورة..، فاجأ الجميع بظهوره.
بخصوص هذه النُّقطة، يقول: "لم أستطع الإقامة في بيتي خلال هذه الفترة، خرجت من قريتي **(موْج)** إلى إحدى القرى المجاورة للحدود الأردنيّة، حيث أقمت عند أحد الأصدقاء، بسريّة تامة، لم يلحظ أحد إقامتي، فقد خصّص لي جناحًا خاصًّا، فيه كلّ مستلزمات الرّاحة، لم يكن لوجودي أيّ إحراج لعائلته، كان جهاز الحاسوب المحمول (اللابتوب) أهمّ شيء اصطحبته معي لحاجتي الماسّة إليه، فيه كلّ ملفّاتي التي أشْتَغِل عليها، وهي ضروريّة لي أينما كنت، من خلاله كنت أمارس تواصلي مع العالم الخارجيّ من خلال شبكة (الأنترنت)، للاطّلاع على آخر مجريات الأحداث، التي تنشرها صفحات التنسيقيّات، والمواقع الإخباريّة المُعارِضَة والمُوالية، كما أتواصل كذلك مع الأصدقاء في الدّاخل والخارج، أخيرًا أشاروا عليّ بالتوجّه إلى القاهرة.
ركّزتُ جهودي خلال الأيّام المُنقَضِيَة على المضيّ في مشواري، قمتُ بدفع خمسة عشر ألف ليرة سوريّة إلى أحد المُهربين، بناء على تزكية من شخص موثوق لدينا، ليعمل على إيصالي إلى الأردنّ الدولة المجاورة لنا مباشرة.
في إحدى اللّيالي المظلمة، جاء الرجل المُهرّب حوالي الساعة العاشرة ليلاً، أردفني خلفه على درّاجته الناريّة، سار بي في طريق ترابيّة مُلتوية بين الحقول حوالي ثلاثة أرباع السّاعة من الوقت بسرعة بطيئة.
ثم أطفأ المحرك، ركن الدرّاجة بعيدًا عن الطريق بجانب صخرة كبيرة، وقال: "الآن علينا أن نمشي على أرجلنا حوالي ساعتين، عليك

أن تتأهّب لذلك يا أستاذ: "تحوّل بي إلى طريق شديد الوعورة، صعودًا وهبوطاً، أتعثّر أكاد أن أسقط أرضًا، الأمر مرهق ومتعب جداً، احتجاجي لم يَلْق أذناً صاغية لدى ذلك البدويّ المُهرّب الخبير بالطرق الآمنة المتعرّجة.

لكنّه أخبرني: "كان علينا سلوك مثل هذه الطّريق رغم صعوبتها، إلّا أنّها توصلك لبرّ الأمان بعيدة عن المخاطر المُحتملة، ولا مَفَرّ لنا من سلوكها، حتّى تصل بخير وسلامة، عليك بالصبر والتأنّي.

هذه النّقطة التي سنَعبُرُ منها إلى الخطّ الحربيّ، بعيدة عن مخافر الهجّانة، توكّل على الله يا رجل، إن شاء الله تصل بخير".

مشينا بضعة مئات من الأمتار، وما إن وطِئَت أقدامنا الخطّ الحربيّ، حتّى استوقفني دليلي.

قائلاً: "إلى هنا، أنا انتهت مُهِمّتي، فلا أستطيع التقدّم أكثر من ذلك، فما عليك إلا أن تمشي بشكل مستقيم، وما هي إلا نصف ساعة حتّى تصل ذلك الضوء خلف الساتر الترابيّ، وتكون في أمان الله، مع السلامة، ما عليك إلا أن تُبْرِز وثائقك لحرس الحدود هناك.

هم ينقلونك بدورهم لمراكزهم الأمنيّة، والإجراءات روتينيّة لا خوف عليك هناك، أكبر الخوف كان من جماعتنا".

تواَدَعا. وكلّ منهما كان يأمل للآخر أن يصل إلى وجهته بالسلامة، تقدّم المحامي بخطواته البطيئة، بينما جلس البدويّ خلف صخرة ليرتاح من عناء السفر، الخوف الأكبر من انكشاف أمره، أو السقوط في كمين مفاجىء غير محسوب حسابه، وله غاية أخرى أن يطمئّن على وصول الأستاذ لغايته.

خاصّة وأنّه قطع الخطّ الحربيّ بأمان، تراخت أعصابه المشدودة، وما هي إلّا سوى نصف ساعة حتّى أضيئت جوانب السّاتر الترابيّ

بالكشّافات، واستعداد حرس الحدود للتعرّف على شخص قادم، مُختَرِقاً الحدود في هذه الساعة المتأخّرة من اللّيل.
- صاح الحرس: "قِفْ .. قِفْ ..، ارفع يديْك للأعلى، تقدّمْ وحدك، اتركْ أغراضك مكانها على الأرض".
تقدّم الأستاذ، على بُعد خطوات من الحرس المُشْهِرِ سلاحه استعدادًا لأيّ طارىء مُحتمَل.
ألقى التحيّة على الحرس الذي ردّ التحيّة، لمّا تأكد الحرس منه، أمره بالتقدّم، والتعريف عن نفسه، بينما حارس آخر ذهب لإحضار الأغراض التي كانت بحوزة الأستاذ.
أدخلوه للخيمة، أجرى رئيس نوبة الحراسة، اتّصالًا مع قيادته المباشرة، حيث حضرت سيّارة فيها الضابط المناوب برتبة ملازم أوّل، ومعه اثنان من العساكر، تناول الأوراق الثبوتيّة، بعد أن أخرجها الأستاذ خالد من محفظته. اطّلع على هويّته الشخصيّة، وجواز سفره، وهويّة مزاولة المهنة من نقابة المحامين.
رحّب الضابط به، أعطاه الأمان: "أنت الآن في حوزتنا، في أمان لا تخش شيئاً، إن شاء الله ستكون في غاية الراحة والسرور، سأوصلك بالسرعة المُمكِنَة إلى المركز الأمنيّ في المدينة المجاورة لنا (المفرق)، لتسجيلك والتأكّد من هويّتك، ولن يستغرق ذلك الكثير من الوقت ، ستخرج بعدها إلى المكان الذي تختاره".
شكره الأستاذ على حُسْنِ الاستقبال. المحامي أخبر الضابط أنّ وجهته إلى القاهرة. سيبقى هنا لحين استكمال الحجز، من الممكن أن لا تستغرق هذه العمليّة سوى يومين أو ثلاثة على أكثر تعديل.
السيّارة نهبت الطّريق بسرعة، رغم أنّها ترابيّة في أجزاء كبيرة منها، إلى أن وصلوا إلى الطّريق الدوليّة.

انعطفت بهم في أوّل فتحة مؤدّية إلى المدينة، وصلت أمام المركز الأمنيّ في مدينة المَفْرَق، فُتِحَت البُوّابة دخلت السيّارة إلى السّاحة، أطفأ السّائق الأنوار والمُحرّك، نَزَل الضابط ومعه الأوراق وحده.

بعد ربع ساعة عاد. طلب من الأستاذ حمل أغراضه معه، ورافقه إلى داخل المبنى الحجريّ الأبيض وإلى الطابق الثانيّ، دخلا مكتب الضابط المناوب.

كان برتبة مقدم، رحّب وهلّل بالأستاذ. داعيًا إيّاه للجلوس، شكره الأستاذ، بينما انصرف ضابط حرس الحدود، بعد أن سلّمَ العُهْدَة للمركز الأمنيّ.

رنّ المقدم الجرس، حضر عسكريّ شابّ صغير، طلب منه إحضار فنجان قهوة للأستاذ، بكلّ هدوء استدار العسكريّ: "حاضر سيّدي".

بعد قليل حضرت القهوة، شرب الأستاذ قهوته، بينما كانا يتحادثان عن الوضع داخل سوريّة. قال المقدّم: "بكلّ سرور أستاذ خالد أُعربُ لكَ عن سعادتي بلقائك، بالنسبة لنا انتهى وضعك من عندنا، اسْتُكْمِلتْ جميع إجراءاتك، بإمكانك التوجّه إلى المكان الذي ترغب وتُحبّ، هذا رقم هاتفي معاك، فلو احتجت لأيّ خدمة، أو مساعدة فلا تتردّد، أنا مستعِّدٌ لأيّ شيء تطلبه".

قام الأستاذ عن كرسيّه شاكراً له حسن الضيافة، والاستقبال، توجّه إلى خارج المركز الأمنيّ بمرافقة أحد العناصر، لتأمين ركوب الأستاذ بسيّارة تأخذه إلى مقصده، والاتّفاق مع السّائق على الأجرة كي لا يستغلّ الظرف.

لم تطُلْ إقامته في عمّان، خلال ثلاثة أيّام رتّب أموره، والتقى بأصدقائه من المحامين وغيرهم. عملوا على تسهيل مهمّة سفره إلى القاهرة، وتعهدوا بمساعدة عائلته، وتسهيل عبورها الآمن من خلال معارفهم وأصدقائهم.

كما أنّه، وقبل سفره بساعات اتّصل بالمُقدّم مُودِّعاً له شاكراً لطفه، وتعامله الحسن معه، وطلب منه مُساعدة أسرته عندما تلتحق به خلال الأسبوع القادم.
أبدى الضابط كلّ ترحيب به وبعائلته، وأنّه لن يتوانى عن مساعدتهم، عندما يُهاتفونه به حال وصولهم للمملكة.
في القاهرة أُتيحت الفرصة للأستاذ خالد، بداية الالتقاء بأصدقائه من المحامين والمثّقفين المصريّين. واللّقاء الأهمّ كان مع نخبة من المُعارضين السوريّين المُقيمين هناك منذ زمن بعيد، أو الذين لجؤوا إليها بعد قيام الثّورة.
كانت لقاءاته مكثّفة ومتواصلة، مجيء الأستاذ خالد كانت فرصة لهم لتجميع شملهم، والتوصّل إلى صيغة عمل اتّفقوا عليها لخدمة الثورة في سوريا إعلاميًّا، والتعريف بها من خلال المنابر المُتاحة لهم، ليسمع العالم صوت الشعب السوريّ.
خلال فترة أسبوع تشكّلت نواة العمل الجادّ الحقيقيّ، اختير الأستاذ خالد الهنيدي النّاطق الرسمي باسم الثورة السوريّة لتَجمّع المحامين الأحرار، ومنظّمة حقوق الإنسان السوريّة.
بعد هذا التفويض، تحرّك بالخطوة الأولى بعد المشاورات المُكثّفة مع مجموعات المعارضة على مختلف انتماءاتها، أوّلًا للإعلام لفتح نافذة مهمّة لهم للإطلال من خلالها على العالم الخارجيّ، ثمّ النشاط على (الأنترنت) من خلال تأسيس المواقع، والصفحات التي أنشؤوها، لتعزيز مواقع الثّورة، والعمل بشكل سليم بعيدًا عن الغوغائيّة.
فما إن انقضى أسبوع على إقامته، حتّى وصلت عائلته إلى عمّان، كان ذلك بمثابة اللّحظة الأولى لإطلاق صوته عبر الفضائيّات، ووكالات الأنباء؛ لأنّه لم يَعُدْ يخاف انتقام سلطات النّظام من عائلته.

انتشر خبر وفاة الحجّة جواهر، بدأت الاتّصالات، والبرقيّات تتوافد على القرية، يتلقّاها أبو فندي، فيَرُدُّ على الاتّصالات الهاتفيّة، في مساء اليوم الأوّل للعزاء، بعد انفضاض السرادق، رنينُ الهاتف النقّال، والأرضيّ لم يتوقّفا على مدار الساعة.
اتّصل المحامي من القاهرة مكان إقامته، لتعزية صديقه أبي فندي بوفاة والدته، من هناك كان يمارس نشاطاته.
- المحامي: "السّلام عليكم .. كيف حالكم يا أخي، حزنتُ كثيرًا، عندما قرأتُ خبر وفاة الوالدة رحمها الله، وأسكنها فسيح جنانه، وعظّم الله أجركم، عليك بالصبر والاحتساب، هل شاهدت لقائي على قناة الجزيرة؟.
كان شيئاً فريداً، وصوتٌ للثّورة ينطلق من الخارج بكلّ حريّة وجرأة، لفضح جرائم النّظام، وبيان زيف ادّعاءاته..، ولا عتبَ لي إلا على من باع" .
- أبو فندي: "بارك الله بك أخي خالد، والله شعرتُ بالفراغ الكبير بعد ذهابك، لكن ما حصل ما كان منه بُدٌّ، والأجمل أنّك أصبحت الصوت الأمين النّاقل لمعاناتنا على حقيقتها، من سوء حظّي أنّني لم أعلمْ بلقائك على الفضائيّات، لكنّي سمعتُ من النّاس اليوم في الخيمة، وهم يتحدّثون بكلّ انبهار بطروحاتك، تناقشوا، واختلفوا، لكنّني سأنتظر الإعادة غداً، مع السّلامة نلتقي بخير بإذن الله".
- المحامي: "أبَشّرُكَ أنّه خلال الفترة القادمة، سيكون هناك انعقاد مؤتمر للمعارضة في القاهرة، برعاية من جامعة الدول العربيّة، قدّمتُ ورقه عمل على اعتبار أنّني نائب الأمين العام لتجمّع المحامين السوريّين الأحرار، تبنَّتْ الأمانة العامّة للمؤتمر، ومنظّمة حقوق الإنسان العربيّة والسوريّة، وَرَقَتِي التي قدّمتها لهم، اعتبروها أساسًا

على أنّها قاعدة، سيُبْنَى عليها الكثير من الدّراسات المُتعَلّقة بالشّأن، سأرسلها لك على (الإيميل)".
بعد انفراده بنفسه في هذه الليلة، من عناء يوم طويل من استقبال وتوديع من أتوْا لتعزيته، والردّ على المتّصلين عبر الهاتف، وتنسيق خدمات الخيمة بتوجيه الشباب. فتح أبو فندي (بريده الإلكتروني)، وقرأ المشروع، الذي جاء كالتالي:

أثر الأزمة السوريّة على الحياة الاجتماعيّة، والثقافيّة -
قامت الثورة السوريّة في ظروف عجيبة مع انسداد كامل في الأفق، أمام أيّة بارقة أمل في حلّ ممكن. وقد تشابكت الأحداث بتسارع عجيب ومُريع، جدار الأزمة ما زال صامدًا لم تُفتح فيه ثغرة باتّجاه الحلّ الصحيح، لوقف القتل والدمار وسيل الدماء المُتدفّق، في سابقة لا مثيل لها في تاريخ الصراعات.
يجلس الكبار في اجتماعاتهم، لصياغة العالم أجمع، ليكون قادرًا على خدمة مصالحهم المُتشابكة، فيحتسون شرابهم على وقع صوت النّرد، أعينهم لا تغفل عن لوحة الشطرنج، رغم عبق المكان بدخان السّيجار الكُوبيّ، فتمتّد أيديهم لتحريك بيادقهم على الرقعة السوريّة، ذات المساحة الجغرافيّة الصغيرة نسبيًّا، ولكنّها مفتاح الشّرق لهم كما أعتقد.
الكبار يرسُمُون طرق وأساليبه، الدِّيَكة تتصارع .. و ما زالت، أدْمَتْ بعضها بعضاً، قُتِل الكثير منها، حتميّة الموقف أملتْ على الكبار الزّج بدِيَكةٍ جديدة، لرفد استمرار حالة المُراوحة، واستغراقهم في دراميّة المشهد السوريّ الحزين، بانتهازيّة عجيبة، في ظلّ مُراهقة سياسيّة.
اختلطت الأمور، وتشابكت حدّ التعقُّد؛ فأصبح الحليم حيرانا، والعاقل يصابُ بالدُّوار؛ لأنّه يصعب عليه الفهم لحقيقة صعوبة الوضع في مثل

هذه الحالات، فلا مصداقيّة لكلّ الفرقاء البيادق، الكلّ يصرِّح أنّه يعمل من أجل سوريّة.
يا للغرابة ..!!، فكيف بمن يعمل لخير سوريّة، يدمّرها، ويحرقها، ويقتل شعبها بدم بارد؟.
بعد هذه الفترة الطويلة من الحراك الثوريّ، ومشروعيّة مُطالبته السلميّة بالحقوق المكفولة بالدستور الغائب المغيّب، انحرفت الثورة عن مسارها الحقيقيّ، حينما رُفع السلاح في وجه النّظام عندما عمل بكلّ جهد حثيث للدفع في هذا التوجّه.
قام بداية بتسليح فئات موالية له مُنْدَسّة، غيّرت الطابع السلميّ للمظاهرات، بثّث الشعارات الطائفيّة المتطرّفة، لتأجيج الاقتتال الاجتماعيّ، إضافة لمن استغلّ الثورة من قريب أو بعيد، والتدخّل بشؤونها؛ لتنفيذ أجندات أسياده الكبار، كلّ هذا ليس من الثورة في شيء لا من قريب، ولا من بعيد.

***

الحالة الاجتماعية في ظل الثورة -

المُراقب للشأن الاجتماعيّ، يتقَطّع قلبه ألمًا وحسرة، عندما يقف على الحقائق المُنبَثِقة عن انعكاس حالة الحرب، وسوء الإدارة السياسيّة للأزمة.
- الحالة النفسيّة السيّئة للأطفال والنساء والرجال، ومُعاناتهم بسبب الخوف الشديد من القتل، والاعتقال، والتعذيب، والاغتصاب، والجوع، والمرض، والعطش، والبرد.

- المجتمع السوريّ صار أعرج، جُيوش المُعاقين من مُصَابي الحرب والتعذيب في السّجون، والمرضى النفسيّين، وهم بحاجة للطعام، والكساء والدواء، والرعاية الصحيّة.
- الفقر المُدقِع، انعدام القُدرة الشرائيّة للأفراد لتلبية حاجات أسرهم وعائلاتهم الأساسيّة، يترافق ذلك مع شُيوع البطالة، فلا عمل ولا شغل، توقّفت عجلة الحياة على نطاق واسع.
- التفسّخ الأسريّ، نتيجة الأوضاع الماديّة المُتردّيَة، مما سبب بانتشار نمطيّات الرذيلة على نطاق واسع، وحالات الخطف، والهروب، والطلاق، واتّساع تجارة الرقيق الأبيض، والمخدّرات، والعمُلات المُزوّرة.
- تشتّت شمل العائلات، والأُسَر في أنحاء متفرّقة من العالم، والتّهجير داخل، وخارج الحدود، طلباً للأمان، ولقمة عيش ذليلة في مخيّمات اللّجوء، التي خلقت علائق مستجدّة في التفكير، والعيش، والعلاقات الإنسانيّة.
- الدمار الكامل للبنية التحتيّة، لخدمات الماء والكهرباء والهاتف، وطرق المواصلات، وقد انتصبت عليها حواجز أمراء الحرب، ممّا يُعيق انتقال الأشخاص، والمواد الإغاثيّة.
- أمراء الحرب هم المشكلة العُظمى في تشتيت النظر للهدف الأساسيّ للثورة في إسقاط النّظام، والانتقال لمرحلة الاقتتال، فيما بين الأطراف التي يُفتَرض فيها أن تكون يدًا واحدة، تحت قيادة واحدة تخطّط، وتُوجّه لها.
- الأزمة صنعت جيلًا جاهلًا، عندما ترك الأطفال مقاعد الدراسة، وكثير منهم توجّه لسوق العمالة الرّخيصة، واستغلالهم البعض منهم جنسيًّا، نتيجة حاجة الأهل الماديّة، خاصّة في دول المهجر.

- حتى الآن لم تفرز الثورة قيادات حقيقيّة للشعب السوريّ، المعارضة السياسيّة في الخارج مُشتّتة مختلفة متناحرة، تركض لاهثة خلف مصالحها، لتَلْتَحِق بالرّكْبِ لنيْل حصّتها من الكعكة، حتّى أصبحنا نعتقد أنّ النظام، والمعارضة في خندق واحد، ولا فرق بينهما بتاتًا.
لا ندري من سيُسقِطُ مَنْ؟..!!.
فالمطلوب كثير وكبير..،
ولا من مجيب.

الحالة الثقافيّة في ظلّ الثورة -

الوضع الثقافيّ الذي كان مُلتبّسًا بغموض في تزاوج مَشبوه ما بين المُثقّف والنّظام، يُشبه التّزاني غير المُعلن، كان ذلك برضا واتّفاق الطرفيْن، فالأوّل يريد السيطرة والهيمنة على كلّ مفاصل الحياة كاملة، فيرمي شباكه لاصطياد الرخويّات، يرمي بالطُعْمْ، وهو الجزرة، لتحقيق مطامع المثقّفين الشخصيّة، وتحسين وضعهم المعاشيّ، والترويج لهم في وسائل الإعلام المختلفة، وتسليط الأضواء عليهم، أنتج عندنا مثقّفاً مُتماهيًا مع النّظام، قابلًا بما يُمْلى عليه، ويصبح عاملاً على نشره من خلال المحاضرات والندوات والأمسيات الشعريّة، واللقاءات المُتلفَزة، وبالتّالي أصبح بوقاً للنّظام بطريقة ما، ودمية مسلوبة الإرادة، تنفّذ ولا تعترض، ماتت المواهب، قتلوا روح المبادرة في قلوب النّخبة التي يُفترض بها قيادة المجتمعات، لرسم آفاق المستقبل.
سياسة العصا والجزرة آتتْ أَكُلها على المنظور البعيد، فلا يتحرّك متحرِّكٌ إلا بإذنٍ وموافقة، ولا تُتلى قصيدة على منبر ثقافيّ إلا بموافقة، ولا ينشر منشور إلا بموافقة، ولا يتنفس كاتبٌ إلا بموافقة،

صارت الحياة كلّها مَرهُونة بالموافقات الأمنيّة، ولكم أن تتصوّروا الحياة، وقد جمدت وتجمّدتْ بفعل القبضة الأمنيّة.

المحامي خالد الهنيدي
نائب الأمين العام لنقابة المحامين السوريّين الأحرار

***

ختم المحامي خالد الهنيدي، أثناء تواجده القسريّ في القاهرة، مذكّراته بهذه العبارات وقد اختصرت مساحات فسيحة من الأمل، والمستقبل، حسبما أرّخها من وجهة نظره على الأقلّ، اجتهد فيها ربّما أصاب وربّما أخطأ، مُحلّقاً بين مسافات الدروب:
"خُطوة بداية الطريق، فيها لملمتُ أوراقي من على قارعته.، جَمَعَتُ فيها أوراق جدّي وأبي وأمي وابني، ووَسَمْتُها بأنّها الطريق إلى الزعتريّ.
أوراقي وَصَفتِ الخوف، والأحزان، والآلام، والأحلام المنكوبة، ودموع أبنائي، وأهلي، وجيراني، وهم يُغادرون بيوتهم إلى دروب مجهولة.
هُم حَكوا وثرثرُوا، وعبّروا عن مشاعرهم بصدق.
هناك من يقول: **إن القرية (مَوْج)، تيارٌ مُتجدّدٌ متدفّقٌ حبًّا وأملًا.**
من قديم الزّمان، بَنَتْها طموحات أهلها، مُتشبِّثين بأحلامهم الكبيرة وهي تناطح التاريخ..، الجراح عميقة، وسهام الغدر المسمومة حقدًا كانت عوْناً لتعميق الجراح، وكلّلَتْها بالأحزان، ولن تندمل آثارها، وستُورّثُ لقادم الأيّام.

عندما كان العيش مُشْترَكًا وقَدَرًا للجميع، المصير واحد، هكذا كانت حال القرية بخير، وفيها سطّرتُ أوراق الحريّة، رمزُ الكبرياء الجريح، المغموس بدماء حاملي مَشاعِل الحقّ.
آملاً أن تكون سطرًا في سجلّ الخلود، وشاهد يقدّم شهادته لقادم الأيّام، ليتَعَرّفوا على أحلامنا، وآمالنا، وأحزاننا، وجراحاتنا العميقة.
وأنّ كلّ ما جرى بعد مطالبتنا بحقوقنا من إفرازات ليس من الثّورة في شيء، لا من قريب أو بعيد، بل هو نتيجة الالتفاف على الثورة.
ولا أهميّة له على الطريق إطلاقاً.
فمنذ صغري وأنا على يقين: (**أنّه من جدّ وجَدْ، ومن سار على الدرب وصل)**، و(**ما أخذ بالقوّة لا يُستردّ إلاّ بالقوّة)**، حيث كانت تعني لي ولأمثالي الكثير.
و(**ستنتهي الحرب..، ويتصافح القادة..، وتبقى تلك العجوز تنتظر ولدها الشّهيد..، وتلك الفتاة تنتظر زوجها الحبيب..، وأولئك الأطفال ينتظرون والدهم البطل..، لا أعلمُ من باع الوطن..، ولكنّي رأيتُ من دفع الثّمن..)***١
بينما بَهُتَ بريقُها في النفوس، والوصول لم يعُدْ يعني الشيء الكثير، لأنّ الأحلام تبدّدتْ، وتحطّمتْ على صخرة، ومرارة الواقع المُؤلِم الذي لا يرحم، والسير في الطريق ينتج عنه الوصول.
و(**الطريق إلى الوطن، أجمل من الوطن)***٢.
(ولا عتب لي إلاّ على من باع .. !!)

(١،٢) الشاعر محمود درويش.

***

(٦)

أبو فندي تابع حديثه مع نفسه، بعدما انتهت المكالمة: "سماع صوت من نُحبُّهم، وإن كان عبر أثير الهاتف أو (الماسنجر) لكنّه يثير الرّاحة فينا.
الاتّصال نصف لقاء ..، لم أكن أتخيّل أن نصبح مُشرّدين داخل وخارج أوطاننا، بهذه الدرجة القاسية. أعزُّ أصدقائي خالد في القاهرة، وأحمد في الخليج، وأخي أبو سليم في الأردن.
كم كنتُ أتمنّى لو أنّهم بجانبي الآن، وحضروا آخر اللّحظات في حياة والدتي، التي كانت تعتبرهم كأولادها حُبًّا واحترامًا ... لا أدري هل من الممكن أن يحصل بنا أكثر من ذلك؟.
خوفي من التَشرُّد يتنامى في نفسي، كسيف مُسلّط عليّ، وهو ما لم أكن أتوقّعه أبداً .. أمّي .. يا أمّي .. صورتك ابتسامتك .. ترحيبك بهم يوم (وقعة الزغاليل) .. أمّي .. يا أمّي ..، إشراقك في روحي يزداد ألَقًا .. يخفف توتر الألم ..، بغيابك فقدتُ كثيراً من مُقوّمات حياتي ..، فها أنتِ صِرْتِ ذكرى ".
تنهمل دموعه بانسياب.
رنينُ الهاتف يتواصل من جديد، ولا يُلْقي له بالًا، إلاّ عندما نَبَّهَهُ ابنه لذلك، فإذا الأستاذ أحمد الفهيد على الجانب الآخر: "السلام عليكم، يا أبا فندي يا أخي العزيز، هذه حكمة الله، فالموت حقٌّ محتومٌ على كلّ بني البشر، الموت من كمال العدل الإلهيّ، وهذا قدرٌ مكتوب.

أنتَ إنسانٌ مؤمن، رحم الله الحجّة، كانت قريبة إلى نفسي، ولم أكُنْ أشعر بِحُبّ امرأة أخرى غير أمّي مثلها، حقًّا بأنّها مثل والدتي..هي فقط من بين كل نساء البلد..، رحمها الله وأسكنها فسيح جنانه، عليك بالصبر والدعاء لها .."."

- أبو فندي: "أهلا بك يا غالي، طمئّني عنكَ، والله صورتك دائمًا بمخيلتي لا تُفارقني، بكلّ تأكيد قد واجهتَ الكثير من الصعوبات، لأنّ الغربة على أمثالك قاسية.

خاصّة وأنت لأوّل مرّة تُغادر فيها إلى خارج القطر..، الله يفرجها، والله الأمور عندنا تزداد سوءًا يومًا بعد يوم، فالشّباب يتساقطون باستمرار برصاص القنّاص، فمنهم من ترك خلفه أمه وإخوته الصّغار ولا عائل لهم، ومنهم من مات عن خطيبته وهما ينتظران موعد تحديد حفلة الزّفاف، ومنهم من كان وحيداً لوالديْه.

المهمُّ دائرة المأساة تتّسع، والحاجة للمزيد من الدعم تزداد، والإمكانيّات هنا قليلة، أو تكاد أن تكون معدومة، بالله عليك يا أحمد، على قدر استطاعتك، أن تُحاول الاتّصال بأصدقائك ومعارفك من أبناء البلد، وأن تجمع لمثل هؤلاء النّاس مبلغًا من المال للتّخفيف من أعباء المعيشة عليهم، التي تزداد قساوةً يومًا بعد يوم، سيّما أنّ الأفق مسدود، ولا تبدو هناك بارقة من أمل بالفرج القريب".

- الأستاذ أحمد: "إن شاء الله أخي، فلن أدّخر جهدًا في ذلك **(لا يكلّف الله نفساً إلا وُسْعَها)**، لكن عليك أيضّا أن تُكلّم أخونا المحامي خالد، أن يتّصِل بأصدقائه المحامين، ويطلب منهم أن يساعدونا إضافة لما يُمكننا جمْعُه، فأنا لا أستطيع الكلام معهم بمثل هذا الموضوع".

- أبو فندي: "هذا أملنا بكم أستاذ أحمد، ربّي يجعل الخير على أيديكم، بما أنّك تتواصل مع أبناء قريتنا، فلو كان بالإمكان أن تجعلوا على

الجميع اشتراكاً شهريّاً، يُجمَع في نهاية كلّ شهر، وأن يكون مشروعًا دائمًا بعد الفزعة الأولى.
سيكون ذلك أروع عمل إغاثيّ لأبناء قريتنا على الأقلّ، الحاجة تزداد يومًا بعد يوم، حالة الناس متواضعة، الله يكون في عونهم، فعندما أتفكّر في أحوالهم، أُصاب بالحيرة، كيف يتدبّرون معيشتهم اليوميّة؟، وقد انقطع عنهم رِيْع عمل أولادهم رحمهم الله.
الأستاذ خالد عندي اتركهُ عليّ..، بعون الله سأكَلّمهُ على (الفيس)، لكني نسيت أن أسألك، إذا كنتَ قد عملتَ حسابًا على (الفيس بوك، والماسنجر)؛ كي نتواصل باستمرار، هذه التقنيّات جعلت العالم قرية صغيرة، مُتاحة لنا في كلّ وقت وباستمرار".
- الأستاذ أحمد: "عملتُ (إيميل) شخصيّ، خلال عطلة نهاية الأسبوع، هناك صديق يُقيم معي في نفس المسكن، نعمل سويًّا في مدرسة واحدة، وَعَدَنِي أن يفتح لي حسابًا على (الفيس والماسنجر)، عندها سأضيفك، إلى اللقاء على خير".
اتّصال آخر هذه المرّة من مكان بعيد، من تونس، جاء صوت (أحمد التونسيّ) صديقه خبير تفسير الأحلام:
- "رحم الله والدتك، وأسكنها فسيح جنانه، إنّ لله وإنّا إليه راجعون، هذا أمر الله يا صديقي..، عليك بالصبر والاحتساب، كان الخبر مفاجئاً لي، عندما قرأتُه على (الفيس بوك)، فكتبتُ كلمةَ عزاء ومواساة لك، قرّرتُ أنّه لابدّ لي من أن أقوم بالواجب بمحادثتك هاتفيًّا، فأنت من الأصدقاء الذين أعتزُّ بمعرفتهم، أتمنّى من الله أن نلتقي عمّا قريب، ونسعد بك".
- أبو فندي: "من قلبي أشكرك، أتمنّى من الله أن لا تُصاب بمكروه.. عزيزي أحمد، عندنا يقولون: (**القلوب عند بعضها**)، فما تفضّلت به

يجولُ في خاطري منذ زمن، أُحيّيك من قلبي، ونلتقي على خير إن شاء الله".

***

عاد لحديث النّفس من جديد، بعد أن قطعته لبعض الوقت المكالمات الهاتفيّة: "أخي أبا سليم، أين أنت في مثل هذه الظروف القاسية والقاهرة؟. غيابك أرّقني وازدادت كآبتي، خاصّة أنّ الوالدة كانت تتمنّى أن تراك، وكم من الدعوات التي خصّتكَ بها، كان الله في عونك، وأسرتك، ها نحن صِرْنَا غرباء مُشرّدين فمن بقي منا هنا، ها هو يعاني ..، ومن هاجَرَ فهو يعاني ..، المعاناة تزداد حُمّتها علينا، أخاف أن يأتي اليوم الذي لا نستطيع به أن نحتمل وجودنا، وقد ضاق بنا الوطن، وأضحى لا يتّسع حتّى لأحلامنا".
لم يتوقّف رنين الهاتف هذه اللّيلة، تلقّى الكثير من الاتّصالات، أصابه الإعياء، شعر بالرغبة في الاستسلام للنوم، يوم طويل حافلٌ باستقبال وتوديع.
وُقوفٌ دائم..، جسده مهدود..، تفكيره دائم الانشغال بشرود واضح، كأنّه في عالم غير عالمه، لم يُحسّ بمن جاء وراح، إلّا من خلال اصطفاف أقاربه، وأبناء عُمومَته في حركات لا إراديّة روتينيّة، يَده ممدودة لا ترتاح إلا قليلاً، لسانه لا يتوقّف عن كليشة الردّ، على ما يقوله ممن يُقدّمون له واجب العزاء. على مدار ثلاثة أيّام، فما إن وضع رأسه على المخدّة، حتّى ذهب مباشرة في نوبة نوم عميقة.

***

في غمرة القادمين والمغادرين، أحسّ أبو فندي برنّة خفيفة جاءت على الموبايل، انْتَبَهَ بعد أن انتحى جانبًا مُبْتَعِدًا إلى خلف الخيمة، ليرى رقم أبي رستم، ثم أتبعها برنَّةٍ ثانية.

- قال لنفسه:

"لا بُدّ أن هناك شيئًا ما..، يجب أخذ الحيطة، الآن السّاعة تُشير إلى الواحدة ظهراً، بدأتِ الحركة تَزداد..، هاهو اليوم الثالث، تذكّرتُ عندما همس بأذُني البارحة، بأنّ اسمي في رأس قائمة المَطلوبين.

يبدو أنّ اتّصال المحامي زاد حرارة الموقف، كنتُ أعلمُ أنّ كلّ الاتّصالات مُراقبة، لكنّي الآن أصبحتُ على يقينٍ من ذلك، لا بدّ أنّهم استمعوا للمكالمة وسجّلوها، وأنّ الأوامر صدرتً باعتقالي، والله يا أبا رستم لن أنسى لك هذا الجميل، تنبيهُك لي جاء في الوقت المُناسب، سآخذ احتياطاتي اللّازمة، أتوقّع أنّهم سيأتون بعد العصر وقتَ الزيارة، بحيث يَقبضُون عليّ بكلّ سهولة، وعلى كلّ من يستطيعون من الشباب..، أتمنَّى أن ينتهي المُعزّون من قراءة أجزاء القرآن التي ستكون بين أيديهم، ويتلو الشيخ الدّعاء، ويذهب الناس في حال سبيلهم بلا أذى لهم بسببنا، وبعد ذلك يحصل ما يحصل، لا أتمنّى أن يقبضوا على أحد هنا في مناسبتنا.

فما إن جاء وقت العصر، وانتهت الصلاة، حتّى بدأت طلائع النّاس تتوافد، يتّخذ كلّ منهم موقعه في أرجاء الخيمة الكبيرة، بدأ توزيع الأجزاء من القرآن على الحضور جميعاً، استغراقٌ روحيٌّ غَشِيَ المكان، شعرتُ معه بشيءٍ من الطمأنينة.

صرتُ أدعو الله في سِرّي أن لا يفجعنا بمجيء دوريّة الأمن العسكريّ. بدأت الدقائق تسير بطيئة، كلّ دقيقة تنقضي، كأنّها يوم بأكمله، الصمت يُطبق على الخيمة، أكادُ أعُدّ أنفاسي بقهري المكبوت في قلبي، وأنا أتمالكُ نفسي، وأتماسكُ خوفاً من أن يلحظني أحدٌ، أو

يظهر الارتباك على ملامحي، والخوف من إفساد اللّحظة الروحانيّة التي ربّما لن تتكرّر بهذه الصّورة.
ما هي إلا نصف ساعة، إلّا وانتهت قراءة الأجزاء، أعلن الشّيخ التكبير والتسبيح بصوته الجهوريّ، قام الشّباب بجمع الأجزاء من بين أيدي الناس، ووضعوها على الطاولة.
بدأ الدعاء يهزُّ المكان، ونحن نؤَمِّنُ عليه، فما إن قُلنا آمين بصوت واحد، حتّى جاء دور صواني الهريسة والفواكه مُتوافدة إلى الخيمة، يطوفون بها على من يرغب، وأباريق الماء، والقهوة تتبع ذلك.
خلال فترة بسيطة انفضّت الجُمُوع الغفيرة، بقي فقط أهل العزاء من أبناء عمومتي، وجيراننا.
بينما تلبّستني حالة من الحَيْرة، نظرتُ إلى الخيمة الفارغة ارتاحت نفسي، هدأت هواجسي، الشكّ خامرني بأنّ التحذير ربّما يكون خاطئًا.
بعد لحظات ذهول في دوّامة من التفكير، جاءت رنّة واحدة فقط، من (الموبايل) نبّهتني من شُرودي، إنّه نفسُ الرّقم.. يا إلهي..!!، يا ربّ..!!، انتحيْتُ بابن عمّي نايف جانبًا، أخبرتُه بحقيقة الموقف، أعلمتُه أنّني سأغادر المكان فورًا، عليه أن يُخبر المُتواجدين، لمغادرة الخيمة بأقصى سرعة قبل وصول الدوريّة".

***

عشرون عنصراً مُدجّجين بكامل أسلحتهم، وجاهزيّتهم القتاليّة، موزّعين على خمس سيارات دخلت ساحة الحارة مباغتة، حيث تنتصب الخيمة وحيدة في السّاحة فارغة من البشر، لكنّ الطاولات عامرة بصواني حلويّات الهريسة والتّفاح والبرتقال والقهوة.

انتشر العناصر في مدخل السّاحة، وواحد يربض خلف رشّاشه (بي كي سي) على ظهر السيّارة. يتقدّمهم أبو رستم، وهو يُمَسِّدُ شواربه المعقوفة لمُستَوى أرنبةِ أنفِه، كأنّهما جناحا طائر، نادى على عساكره جميعاً؛ ليجتمعوا في الخيمة.

- قال: "شو ها الحظّ الزفت، وَيْن النّاس راحوا، العَمَى ما في حَدَا، يعني الأرض انْشَقَّتْ وبَلَعَتْهُم، قَسَماً بشرف القائد، لو أمسكتُ بواحد منهم، لعملتُ من جلده رَبَابة، ولجعلته ينسى حليب أمّه، وسُأريه نجوم الظهر، تعالوا شباب شوفو هالخيرات.

(**إيْ بِحَظّي، وحظ مَرْتْ خَيِّي**)، كأنّما أعدّوا هذه الطاولات من أجلنا، وخصِّيصاً لنا، كُلُوا، واشربوا هنيئًا..، ولنا عودة أخرى لهم.

لننطلق.. هيّا اركبُوا خلّينا نشوف غيرهم".

مجموعة من العساكر دخَلُوا البيت للتفتيش، أمّ حمدان تتوكّأ على عكّازتها قاصدة الحمّام؛ لتجديد وضوئها، اصطدمتْ بهم، رفعت رأسها، ركَّزَتْ نظّارَتَها حتّى تستطيع مشاهدتهم بشكل جيد:

"على وَيْن يا يُمّهْ الله ينصركم، ما في حدا هنا غير النّسْوَان، بِرِضَا قلبي وربّي عليكم لا تخوفوهن، وأنا مثل والدتكم، و أنتم كأولادي اسمعوا كلامي، وارجعوا، الله يستر على حريمكم، ويُطوِّل عمركم".

همّ البعض منهم باقتحام البيت على النّساء، لولا تدخُّل كبيرهم.

-: "هيّا اسمعوا كلام الحجّة، وارجعوا، والله كلامها جواهر، وهي صادقة".

امتَثَلُوا لكلامه، عادوا إلى الخيمة؛ ليشاركوا زملاءهم الوليمة التي لم يوعدوا بها، (**رُبَّ صُدفةٍ خير من ألف ميعاد**).

خاطبهم أبو رستم:

- "يا شباب لا حَدا يُخرّب شي، اترُكُوا كلّ شي على حاله، الجماعة خاطرهم مكسور، وما بِدْنا نسبب مزيدًا من الحزن لهم، هم في

قبضتنا، والله إذا طلعوا فوق للسَّماء، أو نزلوا تحت الأرض، ستطولهم يدي..، و لن يفلُتوا..، إذا ما انمسكوا اليوم، بكرة يقعوا من حالهم..، إذا انتهيتم من الأكل..، هيّا بنا قبل غروب الشّمس؛ فالوقت ليس بصالحنا".

انطلقوا بسرعة بعدما ركبوا جميعهم، حتّى العسكريّ الواقف خلف الرّشاش جلبُوا له تشكيلة من الفواكه والحلويّات، كونه بقي رابضاً في مكانه، خوفاً من حصول شيء غير محسوب حسابه، هو يُعتَبَر بالنسبة لهم صمّام الأمان، حتَى استطاعوا أن يأخُذُوا راحتهم في الخيمة، وهم مطمئنّوا القلب إلى أنّهم بأمان وتحت الحراسة.

***

خيوط الظلام بدأت تتسلل رويداً رويدا، النّور ينسحبُ مُتَعجّلاً كأنّه على موعد، ترك كلّ شيء خلفه، لموعد قدومه في شروق جديد.

خرج أبو فندي من مخبئه، عاد إلى البيت بعدما حلّ الظلام، وأرخى اللّيل سُدُولَه.

بوسائله الخاصة تأكّد من مغادرة الدوريّة، من خلال تجربته في هذه الفترة، الجميع يعلم أنّ الدوريّات لا تتحرّك ليلاً، مما يبعث الطمأنينة بضع ساعات لأبي فندي.

غادرت جميع النساء إلى بُيوتهن، وما بقي إلا أهل البيت، فالحرص واجب، فمن حَذِرَ نجا مع ذلك (**فالحَذَرُ لا يُنجي من القَدَرِ**).

كانت فرصة للقاء الزَوجيْن، دخلت أمّ فندي وهي تحمل معها طعام العشاء، بقي جالساً في غرفة الضيوف، قام من وراء الطاولة، حمل معه جهاز (اللابتوب) وجلس قُبالتها، فما إن التقَتْ نظرات العيون حتى ابتسمتْ الشفاه المُتعبة.

- أمّ فندي: "والله كأنّنا غرباء عن بعضنا، ولسنا زوجين، ولا كأنّنا أحباب من زمان.
يااااه.. كم طالت فترة انشغالنا، ألهذه الدرجة وصلت بنا الأمور، بأن لا نرى بعضنا إلا في المناسبات؟. يا حبيبي المُهِمّ أنّك بخير، حياتك عندي أغلى من الدنيا وما فيها، والله لو لم أجد عندك غير بَصَلَة وكسرة خبزٍ، لكان ذلك كافياً لي لأن أكون في غاية السعادة، خاصّة ونحن معًا".
- أبو فندي: "يا حياتي ربّي يحفَظُكِ لي.. ويحفظنا لبعضنا، أما سمعتِ ما حصل مساء هذا اليوم بعد العصر؟".
- أم فندي: "سمعتُ لكنّي لم أعلم بالتفاصيل، كنتُ مشغولة مع النّساء..".
- أبو فندي: "هذا الرجل صَدَقَ معنا، تنكة الزيت ما راحت ببلاش.. والله صدق من قال: **(أطعِمْ الفم تستحي العين)**، فهو قد حذّرني من خلال (الموبايل)، والله مو خسارة فيه، لكن أرى أنّ الأمور لن تسير بشكل طبيعيّ، فلا بد من الإزعاجات المُتكرّرة لنا..، أيضًا ليس بمقدوره دائماً أن يفعل ما فعل، الجانب المشرق أنّ عائلته هنا في القرية.
حاليّاً لا خوف من أن يأخذ إجازة، لكنّ الخوف من نقله إلى مكان آخر، وقتها ستتغيّر الأمور بشكل كُليٍّ علينا، وسنبدأ بالبحث عن حلول بديلة ".
بينما هما يتحادثان في همومهما المشتركة المصيريّة، تخلّل ذلك فترات سكوت لازدراد اللُّقَمْ، وهي تنزل جافّة في الحلق لانعدام الشهيّة، لكنّ الجوع كافر لا يترك بطنًا إلاّ ويعتصرها عندما تصبح خاوية.

جلستهما هذه، وحديثهما افتقداه خلال هذه الفترة نظراً للظروف المُحيطة بهما فسحقت المتعة في نفسيْهِما..، ودمّرتْ الوقت الخاصّ بجلستهما المُعتادة، التي كانت قبل ذلك فرضاً يوميًّا، ولو في آخر اللّيل عند تناوله العشاء. وما كان لهما الاستغناء عنه على مدار سِنِي حياتهما الزوجيّة.

رنين الهاتف النقّال صار مصدر قلق..، انقطع حديثهما في لحظة لقائهما المشوّهة:

-: "مش معقول رقم غريب، سأردّ عليه، وأتوكّل على الله، أوّل مرّة أرى هذا الرقم.. ألو.. مينْ معي؟".

-: "حضرتك أبو فندي ..".

-: "نعم .. نعم".

-: "عمّو أنا من الزَبَدَانِي..، خرجتُ من السّجن من يوميْن..، كنت مع فندي في نفس السّجن..، أخذونا سويّة إلى سجن عَدْرَا، قدّموني قبله للقاضي.

كلّفني بأن أخبركم، بأنّه سيُعرض على القاضي حتمًا، لكن الأعداد الكبيرة من المُفْرَج عنهم سيأخذ وقتًا أطول، فإلى أن يأتيه الدّوْر.. خلال يومين أو ثلاثة على الأغلب؛ سيكون بينكم.. بعون الله".

-: "يا بني أكيد هذا الكلام الذي تُحدّثني به، لأنّ حالنا بالوَيْل، لا ندري ماذا سنفعل؟، ولا كيف نتصرّف؟. حاولنا الوصول إليه، وباءت كل محاولاتنا بالفشل".

- "نعم عمّو حديثي إن شاء الله صادق، ومن أين لي أن أعرف رقمك، وأعلم عن مشكلة فندي؟.

تأكّد من ذلك، سأتركك عمّو بأمان الله ورعايته، أمامي اتّصالات كثيرة على أهالي مَنْ كانوا معي في سجن (عَدْرَا). حمّلوني أمانة الاتّصال بذويهم؛ حتّى يطمئنُّوا على حال أبنائهم".

-: "ربّي يجبر بخاطرك، ويوفّقك لأهلك، إن شاء الله عندما يصلنا فندي؛ سأبشّرك بخروجه، ويكون مجالاً لكما لتتواصلا من جديد، وتصبح الفترة تلك في حياتكما ذكريات السجن لا تُنْسى..، بما وَسَمَتْ به مشاعركما من حزن ومعاناة، بأمان الله عمّو ربّي يخلّيك لأهلك..، والحمد لله على سلامتك، بلّغ تحيّاتي لوالديْكَ، مع السلامة".
شهقتْ بصوت لافتٍ، جعل زوجها يتلعثم بكلامه مع الشّاب المُتّصل، انعقد لسان أمّ فندي، دموع فرحتها منعتها من التفوّه ولو بكلمة؛ لأنها لم تكن تتوقّع مثل هذا الخبر السّار.
جاء برداً وسلاماً على قلبها، كما شُربة ماء باردة في حرّ الصيف بعد مِشوَار طويل، كفكفتْ دُموعها بطرف منديلها، راحت الدّموع تحكي ما بنفسها:
"يا ربّي الحمد لله، إنّ صورته لم تفارقني أبدًا، فأينما أتحرّكُ أرى ابتسامته أمامي، فأبتسمْ.
أتذكّر حاله هناك عند أولاد هالحرام، فأبتئس وأحزن..، أهو تحت سياط التعذيب..، أم في زنزانة انفراديّة تحت الأرض لا يرى النّور؟، الله ينتقم منهم، ومن كلّ ظالم يا رب، وكلّ ظالم له يوم لا يُخطئه، والله ما خلّد في الدّنيا أحد، كما هلك فرعون سيهلكون.
يا ولدي.. قلبي يهفو إليك كلّ ساعة ودقيقة، لن أطمئنّ حتّى أحتضنك".

***

حلم أمّ فندي على وشك أن يُصبح حقيقة تتمنّاها، تخيّلت أنّ ابنها فندي في حضنها ما لبث الخيال أن صار حقيقة.
بعد ثلاثة أيّام على اتّصال زمليه الذي كان معه في المعتقل؛ كانوا على موعد لاستقباله، كثيرة هي الأوقات القاسية التي حاصرت حياة أبي فندي، طوّقته بظروف استجدت عليه في الآونة الأخيرة، فلا يستطيع الفكاك منها، تآلفتْ، وتكاتفتْ لتصير كجدار العزل العنصريّ، تلك الحالة المحيطة به تعاظمت وضيّقت عليه، فجعلته رهينة لديها، مُكبّلاً بقيودها، تمنعه من السفر خارج منطقته المعروفة لديه بكلّ مداخلها وخارجها، عزّ عليه أن لا يكون على بوّابة السجن؛ ليكون أوّل المستقبلين لابنه؛ فالشّوق والحنين يتنازعانه.
الحواجز قطّعتْ أوصال البلد؛ أصبح المرور عبرها مخاطرة غير محمودة العواقب؛ مخافة الاعتقال، أو الإهانة بالضرب و الشتم.
كما أنّ زوجته وقفت حاجزاً منيعاً لمنعه من المخاطرة بالذهاب: "كفانا ابْنَنا، أمّا أنتَ فلا، فلو اضطّرَنا الأمر لدرجته القُصوى، سأذهب أنا بنفسي، ما زال الألم يسري في عروقي، وأنّني غير مُصدّقة خبر الإفراج عنه، إلا باحتضاني له.
الله على قلبي، كيف حاله الآن ..؟، كيف أمضى كلّ هذه الفترة عندهم؟، الله يجازيهم..!!".
-: "نعم يا عزيزتي هناك لحظات تأتي، فتكون قريبة المنال في متناول اليد، وأخرى تحتاج إلى دهر لتصل إلينا أو نصل إليها، وهناك لحظة ذهبيّة ربّما لا تأتي في العمر إلا مرّة واحدة أولا تأتي أبدًا، وإذا أتَتْ ربّما تفلت من اليد إلى الأبد، رغم التمسّك بها أو عدم الانتباه لأهميّتها، هذه الأيّام أرى أنّ كلّ يوم منها يمرّ عليّ يكون كسنةٍ، لا أبالغ إذا قلت أكثر من ذلك..، وما دام الأمر هكذا، سأتّصل بأبي راضي أخو

المُحامي خالد، فهو صديق حميم من أيّام الشباب، ولا يكبُرنا إلا قليلاً، بيننا الكثير من الودّ والاحترام، لكنّ البُعد جفاء للعلاقة.
فلا نراه إلا في المناسبات والأعياد، عندما يأتي من دمشق، هذه غربة أخرى داخل البلد، ومن تعوّد على حياة المدينة من الصعب أن يعود للعيش في القرية، رغم أنّه اتّصل وقدّم تعازيه إليّ أوّل البارحة، سأطلبُ منه الذهاب إلى السّجن ليستفسر عن حالة فندي، ومتى سيُحوّلونَه إلى القضاء في القصر العدليّ؟، ويخبرنا".
- أم فندي: "هَيْك انْحَلّتْ مشكلة ذهابك يا حياتي، قُمْ واتّصل به الآن، حتّى يستعدّ من فوره. خُذْ الموبايل، فالوقت يمرّ بسرعة البرق، ليطمئّن قلبي".
- أبو فندي: "ألو.. السلام عليكم، أخي أبا راضي، كيف حالك طمئني عن صحتك وعن عائلتك والأخت أمّ راضي والأولاد والبنات، عساكم بخير، أخي لي طلب عندك".
- أبو راضي: "تفضّل أخي الغالي أبا فندي، أنت تأمر وعلى رأسي".
- أبو فندي: "تعلم بأمر اعتقال ابني فندي، الآن جاءني اتّصال علمتُ منه؛ أنّهم قد أفرجوا عنه من سجن المُخابرات؛ وصار في سجن (عَدْرَا)؛ بانتظار تقديمه للقاضي للإفراج عنه، بالنسبة لي لا أستطيع السفر خارج القرية؛ لأنّ اسمي على قوائم المطلوبين، فلم يخطر ببالي إلاّ أنتَ، رجاء أن لا أتسبّب لك بالإحراج، اعذرني فالأمور قد ضاقت عليّ جدًّا".
- أبو راضي: "سامحك الله يا أبا فندي، فلا إحراج ولا يحزنون، فطلباتك أوامر عندي، من فوري سأتّصل مع صديق لي ضابط في الشّرطة، على ما أظنّ أنّ خدمته في سجن (عَدْرَا)، سأستفسر منه، وفي الغدّ سأذهب بنفسي لأرى، وأقابل فندي، فهو بالنسبة لي لا يقلّ

عن راضي وإخوته، اطمئن يا صديقي، سأكلمك غدًا بعون الله، فيما صار معي، تصبح على خير".
جفاه النّعاس، طلب مزيدًا من القهوة، سهر لساعات متأخّرة من اللّيل، هدّ التعب جسده المُنهك أصلاً من الأيّام الماضية.
استسلم أخيراً للنّوم، أطفِئَت الأنوار، أرتال من جيوش الهواجس هجمت عليه، تروح وتأتي، تتوارد الأفكار شرقاً وغرباً. ردّد فيما بينه وبين نفسه **"ليل طويل أنت يا ليل"**.
وكأنّ امرؤ القيس وقف أمام عيْنيْه؛ استدعته الحالة؛ فتمثّله واقفًا في ظلام الغرفة، كأنّها تحوّلت لسوق عكاظ بضجيجه، رغاءُ الإبل فيه، وهو يتلو مُعلّقته أمام حشد جماهيريّ. وما إن وصل لقوله:

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدُوْلَـهُ = عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الهُمُـوْمِ لِيَبْتَلِـي
فَقُلْْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ = وأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
ألاَ أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ ألاَ انْجَلِـي = بِصُبْحٍ، وَمَا الإصْبَاحُ مِنكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مَنْ لَيْلٍ كَأنَّ نُجُومَهُ = بِكل مُغار الفتل شُدّت بيذبل*
كَأَنَّ الثُرَيّا عُلِّقَتْ في مَصامِها = بِأَمْرَاسِ كَتَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلِ

---

*(اسم جبل)

حتّى استعاذ أبو فندي بالله، نهض واقفًا يتهادى مع الحائط؛ ليقف وراء النافذة يرسل نظراته في محيط الظلام؛ لتَجُوس هدوء الكون الرّهيب، مسح وجهه، فرك عينيه، أشعل سيجارة.
عاد ليجلس على الكرسيّ، ثم قام من فوره، مُتّجهاً إلى خارج الغرفة، ليتنفّس بحريّة تامّة.
قامت زوجته معه، صعدا ليجلسا على سطح البيت، سكونٌ يُشجّع على التأمّل في ملكوت الله الهائل في السموات والنجوم، ودعوات صادقة

في مثل هذه الساعة، خرجت مكبوتةً منهما، لا تكاد تصل مسمعيْهِما، بأن يُغيّر الله الحال للأحسن والأفضل.
طال صمتهما مُتماهياً مع صمت الكون المذهل برهبته، سَبَحَا في بحور الحياة، كلٌّ منهما سلك طريقًا، ولا يدري أين ستكون محطّته القادمة؟.
خيوط الفجر بدأت تتسلّل تُشَقْشِقُ سُجُف الظلام؛ ليبدوَ بُهاق النّور بطيئًا يأتي كالغائب الذي ينتظرونه.
نزلا إلى البيت ثانية، أدّيا فريضتهما جماعة، وراحا يعدّان الثواني والدقائق والسّاعات، بانتظار طويل مُمِلّ عساها تستفيق الحياة، أوّل أمنية يودّا أن تتحقّق من فورها، ويضجّ البَشَرُ في يومهم الجديد، الخبر الموعود معهما على موعد مُسبَق، متأكّدان أنّه لن يُخلِفهما.
عيونهما كَسْلى .. وجهاهما مُرهقان .. جسدان أرَهقهما السّهر دبّت الحياة في البيت عندما استفاق طُلاّب المدارس..، الماما في المطبخ تُجهّزُ الفطور، الأسئلة لم تتوّقف لحظة عن غرض أو حاجة من أشيائهم وهم يبحثون عنها، ولا يدرون أين تركوها في الأمس، والطلبات مستمّرة يُسابقون ضيق الوقت، ساعة حرجة من الزّمن وعاد الهدوء إلى البيت. جلسا يتناولان الفطور، بلا نفس مُقبِلة على الأكل، فاقديْن للشهيّة، استولى النّوم عليهما بالقوّة؛ فاضطجع كلّ منهما في مكانه، تاركين الطّعام كما هو أمامهما.
الساعة العاشرة تماماً. رنينُ (الموبايل) قطع عليهما الشّوْط من النّوم، نهض مسرعاً وجلس؛ ليردّ على مكالمة صديقه أبي راضي:
"أهلا صباح النّور".
- أبو راضي: "يا سيدي، ها أنا على بوّابة السّجن، عمّا قليل سأرى فندي، سيأخذونه مُباشرة إلى القاضي، سألحق به إلى قصر العدل، سأتابعه حتّى الانتهاء من وضعه هذا اليوم، وبعون الله سيكون أوّل

الداخلين إلى قاعة المحكمة، حسب ما أخبرني صديقي الضّابط، وقد أوصى الدوريّة المُرافقة، بأن يسمحوا لي أن أتكلّم مع فندي، وسأجري مكالمة معكم لتسمعوا صوته، و لتطمئنوا.. انتظروني".

الابتسامة ارتسمتْ من جديد على مُحيّاه، عادت الحياة لأوصاله، وأمّ فندي كما الوردة الجوريّة تفتّحت عند الصباح مع أوّل شروق للشمس تغازله بحبّ مُتبادل بعلاقة أبديّة؛ فأخذت نَفسًا عميقًا استعادتْ روحها، تجدّدتْ نبضات قلبها، الفرح غسل عن وجهها الكآبة.

طار آخر شعور بالنّعاس من عيونهما، دبّتْ الحيويّة من جديد في أوصالهما. أذهب النسيان ما مرّ بهما في ليلتهما اللّيلاء تلك.

عادت كرّة الانتظار إليهما، كأنّهما على أحرّ من الجَمْر المُتوقّد، من الفور راحت أمّ فندي تُخطّط لصنع طعام مُحبّب لهم جميعًا.

خاصّة فندي، عندما جاء صوته كالماء يُطفئ نيران القلب، يُضيء ظلمته المُدلهِمّة، ويُرطّب روحها العطشى، ويؤجّج لهفة اللّقاء بأضعاف مضاعفة.

ومن يملك أكداس اللّهفة ومخزونها الاحتياطيّ في الكون أجمع سوى قلب واحد فقط، هو قلب الأمّ؟.

قبيل الغروب، توقّفت سيّارة التاكسي أمام باب الدّار، الزامور نبّه الجيران لوصول فندي المُرتَقَب بعدما شاع الخبر.

عمّ السرور أهل الحارة، توافد من تواجد منهم إلى المضافة، من الفور تجدّدت القهوة المُرّه (القهوة العربيّة)، هي من ضرورات الضيافة، ولا غنى عنها في مضافات حوران أبداً، فهي مُتلازمة يوميّة.

على مدار أيّام، وما يقرب من أسبوع، وأهل القرية يتوافدون، لتهنئة أبي فندي بخروج ابنه خاصّة وأنّه البكر، وهو من أوائل الذين اعتُقِلوا، وأُفرج عنهم.

لأنّهم في الأساس لم يعملوا شيئًا، ومن يخرُج من السّجن في مثل هذه الظروف يُعتبر مولوداً جديداً، كُتِبَ له عُمُر آخر؛ لأنّ الخوف الشّديد من الموت داخل السّجن تحت السّياط والتعذيب الجسديّ والنفسيّ، وهناك من خرج بعاهةٍ جسديّة أو نفسيّة، فالجميع يحمدون الله، ويكرّرون ذلك لمن وصل أهله وبيته سالماً مُعافًى.

***

صلابة الموقف لا تكون عنادًا في حال المقاومة، وإذا كان العناد فقط من أجل العناد فهو نتيجة النرجسيّة والغباء، دون التبصّر لطبيعة المرحلة، والصلابةُ قوّة شكيمة، قليل من يتميّزون بها عن غيرهم. فالإصرار على الصمود عند أبي فندي لا حدود له.
فها هو يرفُض رفضًا قاطعًا الخروج من بيته تحت أيّ ظرف كان، رغم الضغوطات الفظيعة، والمضايقات تغزوه وتطوّق قلبه وعنقه من كلّ حدب وصوب.
لكن للرّجال خيارات أخرى غير مشهورة للآخرين، لا يعرف سرّها إلا صاحبها، تتّسم بالصلابة تَرُوم إكمال الطريق لنهايتها، لا يتسرّب إليها اليأس والملل، أو التفكير في التراجع، يعلمون ما يترتّب عليهم في اللّحظة الحاسمة، يعرفون الثّمن الباهظ المتوجّب عليهم أن يدفعوه، ضريبة صلابة مواقفهم، هؤلاء هم الذين ضحّوا بكلّ شيء هم قادة في زمنهم، عمودهم الفقريّ كشجرة سنديان لا تنحني أبداً أمام العاصفة، وإنْ أُجبرت على ذلك فتفضّلُ أن تنكسر.
طبيعة المرحلة تُملي عليه أن يكون في المقدّمة، في لحظة تاريخيّة نادرة في حياة الجماهير التي خرجت عن طورها، كمارد جبّار خرج من قُمْقُمِه، هدّار كالرّعد يزلزل ركود النّفوس الخانعة.

هناك من يتلمَّسُ لقمة وأيّة لقمة، وإن كانت بِذُلٍّ ترميها له يد لئيمة، تمنُّ بها عليهم، وإقناعهم بأن يكونوا عونًا لظالمهم، وعيناً رقيبة على أهليهم وجيرانهم وأبناء قريتهم.
نقاشات مُعمّقة سريّة مع زوجته، لسيطرة حالة الخوف والذعر عليها، طالبة منه الخُروج من القرية لأيّ مكان آمن.
تصل المحادثات حدّ الصراع بينهما، مما جعل البرودة تسري في العلاقة الأسريّة، دون أن يحسّ الأولاد بالمُداولات الجارية، ربما تكون شبه يوميّة، كثيراً ما تتوسّل بآهاتها ودموعها، لتليين موقفه، كل وسائلها فشلت بلا جدوى رافضاً كلّ طلباتها، بحجّة الصّمود في القرية.
ردّدَ مرارًا مقولته: (أهون عليّ أن أموت ألف مرّة هنا، تحت ركام بيتي من أن أغادر إلى أيّ مكان آخر).
الرجال هم هِبَةُ الأزمات، تنتشي مواهبهم العبقريّة لتظهر ثمارها يانعة مُشتهاة، تنجلي عنهم تراكمات سِنِي أعمارهم، تبرز مواهب آخرين منهم مُتميّزة ومُتقدّمة، فمن رَحِمِ المعاناة، ومحاولة الخروج من عنق الزجاجة يظهر قائد يجتمع عليه الناس، مستحوذًا على مشاعرهم وإعجابهم وثقتهم، يُسلمون له قيادتهم إلى برّ الأمان.
المظاهرات المندّدة بالقتل والإجرام، لا تزال على أشدّها تسير في كلِّ يوم جمعة، وقد ابتكرت طريقة الإعتصام في الساحات ليلاً، والهُتافات كان أعظمها على الإطلاق هو(التكبير).
قيادة هذه المظاهرات، والترتيب يجري بالتنسيق بين النّاشطين من أبناء القرية، بالتعاون مع الآخرين من القرى المجاورة، عندما صاروا يتوافدون إلى القرية **(موْج)** لمُشاركة إخوانهم على الأقلّ في كلّ يوم جمعة، لإعطاء الزخم المعنويّ.

لم تكتمل فرحة أمّ فندي بوصول ابنها إلى حضنها، دموع فرحتها تتسابِقُ ونظراتها، وهي تتساقط على خديّ فندي، فتحتضنه مُستغرقة في حالة هستيريّة غير واضحة الملامح.
فرح .. حزن ..، دموعها خير مُعبِّر عنها، فلا هي مسرورة .. ولاهي حزينة .. لا تدري ما بها.
تضحكُ وتبكي في آن واحد، بَرَدَتْ حُرقة قلبها، وهي تشدّ بكلتا يديْها على وجهه، تُطوِّقه بذراعيها، مُعلنة أنّها لن تتركه يغادر حضنها أبداً، بيديها تُبعد وجهه إلى الخلف، لِتَتَمَلّى تقاسيمه.
وكأنها تراه للمرّة الأولى في حياتها، ثم تشدّه بقوّة إلى صدرها، تتركه لحظة كي تُكَفْكِفَ دموعها.
ثم تعود إليه أشدّ شوقًا وشغفًا، هذا هو قلب الأمّ ..!!، فلا يستطيع أحدٌ مهما كان أن يُزاوِدَ بمواقفه وشعاراته على ذلك.
تُغمغم بكلام غير مفهوم للآخرين، ممزوج بقبلاتها الحارّة على وجهه ورأسه وكلّ أنحاء جسمه.
مضى وقت عندما نسيتْ نفسها وممن حولها، لم تستفق إلا على صوت زوجها:
"كفى اتركي الولد.. لنأخذ حصتنا من السلام عليه ..!!".
ثابَتْ إلى رشدها، بعد ذلك لملمت نفسها، شعرت كأنّها خرجت عن سياق رزانتها المعهودة، أصلحت من هيئتها.
- فقالت: "آسف يا سيّدي ..، سامحني، والله ما أحسستُ بنفسي، ولا بما حصل لي .. !!".
قامت لإحضار الطّعام الذي جهّزته منذ زمن، بانتظار وصول الغائب، أصوات القادمين للتهنئة عند باب الدّار، صوت الجرس لا يتوقّف عن الرنين.

- يقول أبو فندي، وقد حضرت مجموعة من المُهنّئين بعدما أخذوا أماكنهم في المضافة: "يا جماعة الخير، أريد أن أطرح عليكم موضوعاً أقلقني.
أرجو أن أشارككم ما أفكّرُ به، انظروا إلى قريتنا **(موْج)** إنّها منزويةٌ في أقصى الجنوب، أصابها جُنونُ قِسْمٍ من أهلها، انضمّوا إلى الشّيطان مع النّظام فحملوا السلاح.
رفعوه ضدّنا نحن جيرانهم وأهليهم، وهم بهذا أوقفوا حركة التّاريخ، عند جنونهم، فما الذي يُريدون تحقيقه في قرية تلتصق بحدود سايكس بيكو؟.
فقدت كلّ مُقوّمات الحياة التي تجعل منها فاعلة ومزدهرة، فمياه الشُّرب تأتيها من مسافة مئة كيلو متر عبر الأنابيب، وإذا أمطرها الله، أرْبَعَتْ وأكل أهلها وحيواناتهم.
الجنون فنون..،
ما بالكم يا أهلنا وجيراننا..؟.
ما الذي دهاكم يا بَنِي قومي؟.
ها هم يقومون بحرق كلّ الأوراق، ألا ترْون أنّ ذلك انتحار غير مُبرّر.
فقريتنا لا تستطيع إسقاط نظام، ولا تملك شيئًا لتثبيته، حتّى أنّ القرية لا تستطيع تقديم مُرشّح لمجلس المحافظة، دون مُؤازرة القُرى المجاورة لها، فضلاً عن أن تدفع بأحد أبنائها لمجلس الشعب...، ولا عتب لي ..، إلاّ على من باع".
- أبوعادل يستلم الحديث بعدما توقّف أبو فندي لالتقاط أنفاسه: "المُشكلة يا جماعة الخير، حسبما توصّلتُ إليه من خلال مُتابعاتي، إنّها لعبة أجهزة الأمن، تريد جرّ أيّ شخص أو مجموعة لخدمة

أغراضهم الدنيئة. فقد دفعوا بالأخبار الكاذبة لتجيّيش النفوس، وتعبئة الأضغان والأحقاد بتجديدها، حتّى أوصلوهم إلى المحرقة.
أستغربُ كلّ الغرابة.
أين هم عقلاؤهم..، وزعاماتهم ذوي الكلمة المسموعة؟
أليس ذلك لافتٌ للنظر..؟.
لا يفوتني أن أبصم بالعشرة، على مقولة أخينا أبي فندي:
(لا عتب لي إلاّ على من باع)".
- أبوسالم: "انتحار عجيب غير مسبوق، بطريقة غبيّة، سيحرقون أنفسهم ويحرقوننا معهم، لكن بعد زوال النّظام، كيف سيكون الأمر؟، عقلي يكادُ يتوقّف، عندما أصل لهذه النتيجة المؤلمة.
وأسفي على أصدقاء دراستي، ومن تربطني بهم علاقات وديّة، فبيننا من الخبز والملح، ما يعجز اللّسان عن وصفه".
تنهمل دمعة حزينة من عينيْه على ذكريات أيّام زمان، يُتابع: "ولا عتب لي هذه المرّة إلّا على نفسي، لأنّني كنتُ مغشوشاً..، وقد انطبقتْ عليهم نظرية أبي فندي".
- أبو فندي: "لا أجد وصفًا أجمل من المثل القائل: **(دجاجة حَفَرتْ على رأسها عَفَرَتْ)**، أتوقّع أن يحصل الرّفض لهم مُستقبلًا من جميع النّاس في القرية، ومن محيطنا في القرى المجاورة، شيءٌ مُريع يَنْدى له الجبين و يُدمي القلب ..".
- أبو عادل: "رأيت في الأمس أحدهم يأتي بجرّافة، وينصبُ حاجزًا أمام بيته، ويقطع الطريق بإغلاقه من خلال وضع تلال من التراب قبل بيته بمئة متر وبعدها بمئة متر، والأدهى والأمَرُّ من ذلك أنّه بَنَى دُشمة للرّشاش فوق بيته، وهي واضحة لمن يُعاين الموقع فَيَراها بسهوله بلا عناء للبحث عنها، هذا كان على المكشوف.

وهناك من هم يعملون بالخفاء من وراء ستار، هم جاهزون لأن يُطلقوا نيرانهم على أهل القرية جميعًا دون تمييز.
وقد سمعتم ما قام به بعض السّفهاء منهم بقطع طريق الفُرْن الآليّ، والتعرّض للنّاس، وخاصة الشباب الصغار، الذّاهبين لشراء الخبز لأهاليهم .."·
- أبو فندي: "و بلا مقدمات .. أقول لهم بملء صوتي، وليسمعها منّي أهل القرية والعالم أجمع .. !!.
أين ناقتكم وجِمَالكم..؟؟ ..!!.
هل من مُخْبِرٍ لكم ؟.
بأنّ ناقة الحُسَيْن قد شَرَدَتْ من كربلاء، و استقرّ بها المقام في قريتنا **(موْج)**، لم يتوقَّف أمركم في البحث عنها في كلّ جُحْر منذ قُرون غائرة في جبين التّاريخ، وتحت كلّ حجر. حتّى نبشتم أساسات البيوت في قريتنا الآمنة النائية الفاقدة لأهميّتها الجغرافيّة، الزاهية بما تبقّى لها من ألقها التاريخيّ المُتَمترِس في عتباتها.
ما هي إلاّ لوثة مجوسيّةَ عاقرت نفوسكم، وضاجعت دناءة الأحلام منكم، لتضربوا بها عرض الحائط عيشنا المشترك، أنا بريء من دم الحُسيْن براءة الذئب من دم يوسف.
إذا كنتم تُؤمنون بالله أو أيّ شيء آخر، أقسمُ ثانية أنّني بريء براءة الذئب من دم يوسف.
وها أنا أعلنّ صكّ براءة نفسي للجميع، دون الحاجة لشاهد، هل تُصَدّقون..؟، ولا أظنّ أن تُصدّقوا، ولا عتب لي عليكم .. لأنّكم..!!..".
تنفضّ الجلسة بعد ساعتين، يعود كلّ منهم إلى بيته مُثقلاً، بما تنوء الجبال بحَمْلِهِ من الكَدَر والهموم، تتناسل صُعوبات الحياة يوماً بعد يوم.

وكأن أهل القرية على موعد معها، والحزن يغزو قلوبهم وهي تنمو باستمرار. مشاعر متناقضة حيال الأزمات، وهي تكبُر يوماً بعد يوم، فمن مُتأفّف، وآخر مُتَمَنٍّ تبديل الحال للأحسن، وآخر لا مُبالٍ بما يدور حوله.

وآخر خَؤُونٌ مُتَرَصِّدٌ للانقضاض على أبناء قريته للانقلاب عليهم، أو حالم بالغنى كسماسرة الحروب، وهم يؤججونها لتحرِقَ الأخضر واليابس.

تضيق مساحات الدّروب في كلّ يوم عمّا كانت قبله، تقتصر حركات الأشخاص على الضروريّ منها، تتوسّع الحواجز لتبتلع الحياة بكافّة تفاصيلها، أنيابها تطول لتلتقط البعيد عندما يمرّ عبرها.

تمتد طرق الهجرة والتهجير، فَتَجُوسها العيون، وتفرّ إليها القلوب للنجاة بالحياة، من الجنوب إلى الشّمال، ومن الغرب إلى الشرق، حدود طويلة فُتِحِتْ لاستقبال اللاجئين، وأشكال الموت تتمدّد عبر القلوب والنفوس.

***

ساءت الأمور بالنسبة لأبي فندي؛ بانتقال أبي رستم من القرية، الأمر الذي سيحرمه مصدراً مُهمًّا وموثوقًا من التّنبيهات، محبّة ذلك الرجل تغلغلت في قلوب الكثيرين من أهل القرية، لمشاركته لهم في معظم مناسباتهم، وتلبية دعواتهم التي يوجّهونها له إكرامًا وتوقيرًا، وتقرّبًا من ذوي الأهميّة للتفاخر بسموّ معارفهم.

حينها اعتبروه واحداً منهم، مما دفع مجموعة من الوجهاء للتوجّه إلى فرع الأمن العسكريّ لمقابلة مدير الفرع؛ من أجل إعادة أبي رستم إلى القرية. استجاب لهم المدير، في هذه الفترة استلم ضابط برتبة نقيب رئيسًا للمفرزة، وأصبح أبو رستم مساعدًا له.

عجلة الحياة تُبَطّئ سيرها على وشك التوقّف تمامًا، الأعمال والمصالح الفنيّة والتجاريّة تلفظُ أنفاسها الأخيرة. تكدّس أرباب العائلات في بيوتهم بلا عمل، الغلاء فاحش في أسعار المواد الغذائيّة والخضار، فُقدان الأمان الشخصيّ.
صار رصاص الشبّيحة يتوجّه إلى البيوت عبر النّوافذ، قَنَصُوا العديد من أبناء القرية.
تكاتفت تلك الأسباب والعوامل؛ لتُشكّل مُبرّرًا أخلاقيًّا جعلت أبا فندي يُنصِت لكلام زوجته. فما كان مرفوضاً بالنّسبة له قبل شهرين تقريباً، راح أدراج الرياح، تقارَبَ موقفيْهما ليتطابقا على نفس الفكرة، والخروج لمكان آمن.
التهيئة النفسيّة أخذت وقتاً لدى العائلة لهذه الخطوة المصيريّة الجريئة، وغير المسبوقة بحجم تأثيراتها المُستقبليّة عليهم خاصّة، وعلى أبناء القرية، وكلّ السوريين في مُخيّمات اللّجوء في البلدان المجاورة.
ابتدأت الزوجة بمناقشة وطرح فكرة كانت مرفوضة قطعيًّا، حتّى أنّ زوجها كان يرفض الكلام في هذا الاتّجاه ولوعلى سبيل المزاح، إلى أن وصلت الأمور بانحدار مُتسارع وصولًا إلى النهاية المحتومة، والمصير وصل إلى طريق مسدود، وانغلقت كلّ نوافذ الأمل..!!.
ومما (**زاد بالطُنْبُور نَغَمًا**)، هو نصب حاجز للأمن في منطقة مجاورة للبيت..، كشف كلّ خباياه، تعقدّتْ أمور الحياة اليوميّة للعائلة، مما عجّل في تقريب الفكرة، وصار وسيلة عجّلت بتقريبها للواقع ..!!.
أعطى موافقته المبدئيّة على فكرة الخروج من البيت لمكان آمن، فكان بمثابة الضوء الأخضر في التفكير الجدّي.
أخذت أم فندي تعمل على تجهيز الحقائب الكبيرة، بدأت تحزم الأمتعة البسيطة من ملابس، وأغراض لايُستغنى عنها لمن كان ينوي السفر.
التهيئة النفسيّة كانت الأهمّ في هذه القضيّة الكبيرة.

لكنّها كانت ساهمة الطّرْفِ، خائرة القوى، تفكّر في شيء مُبْهَمٍ لا تستبين طبيعته، ربّما هو اللّاشيء الغائب كليّاً عن الذهن، والوضع السيّيء بشكل عام، تَرُوم فقط النجاة بأطفالها، كي لا يصاب أحدهم بأيّ مكروه.. بعد الذي حصل لفندي، ولوعتها الحارقة، تطلب من الله أن لا تتكرّر ثانية، سرح بها خيالها؛ لترى نفسها جالسة قُبالة خزّان الماء في المُخيّم لملء دِلائها .. أو تجلس أمام خيمتها هناك.

بينما حقيقة هي جالسة في ساحة بيتها، وقُبالتها خزّان الماء، والحنفيّة.. تنقطُ.. نقطة .. نقطة ..، توخز قلبها كألم ممضّ.. في رحلتها على جناح الأفكار المُتوارِدَة إلى مخيّم الزعتريّ، ومما اختزنت ذاكرتها من مشاهدة القنوات الإخباريّة، وتقاريرها عن المخيّم وحياة ساكنية والصّعوبات التي يواجهونها، وقساوة المناخ شبه الصحراويّ.

كلّ فكرة تقود إلى أخرى كمتوالية حسابيّة..، تتخيّل القادم المجهول المخيف..، نسيت نفسها تائهة في خضمّ لُجّة سوداويّة من الأفكار، تتلّمس رجلها المطويّة، أصابها الخدر والتنميل، تمدّها، تدلّكها بيديْها لعدّة دقائق لاستعادة حيويّتَها، استطاعت أن تقف، وتمشي عليها.

جرّها توارد أفكارها لأماكن بعيدة، وهي ما زالت تُرتّب الأغراض في الحقائب، على مدار أكثر من أسبوع من التحضيرات، أصبحوا على وشك الجاهزِيّة للانطلاق في سراديب ضياع مجهولة، غير محسوب لها بشكل جيِّد، النّجاة هي الهمّ الأوحد الآن على قائمة اهتماماتهم.

***

قُبيل خروجه من البيت، وقف أبوفندي أمام صورة والده المليئة مهابةً ووقارًا في صدارة مضافته لعدّة دقائق، صمتٌ مُحيّرٌ يكتَنِفَهُ تأمّلها بعُمق، دمعَتُه تترَقْرَق في عينيه، دمعة عزيزة تتدافعها الأقدار.
غموضٌ يلفّ الموقف الطارئ المُستَجِدّ بطريقة مُذهلة مليئةٌ بالحَيْرة، وقلّة الحيلة، تدفعُ باليأس للتقدّم؛ ليصبح الخيار الأوّل المُتاح أمام الأشخاص؛ ليسلكوا طُرُقاً مجهولة المعالم، محفوفة بالمخاطر، الدمعة خرجت عن مسارها تَسْرُبُ بهدوء على خدّه، لبرهةٍ توقّف ذهنه عن التفكير، تلمّس خاتِمَهُ العَهْد وخلعه، خاطب صورة والده:
"هذا هو العَهْد، يا أمّي، يا أبي؛ سأدفنُهُ هنا في ساحة الدّار عند شجرة الزيتون، سيكون ذلك حافزي للعودة قريباً، إلى الوطن الذي دافعتَ عنه، وفديتَه بروحكَ، وروّيْتَهُ بدمِكَ، ها هو ضاق بنا، لم يَعُد يحتمل وُجُودَنا، فلا خيار أمامنا إلاّ النجاة بهؤلاء الأطفال، من أجلهم نهضنا، فهم المستقبل لنا، والمستقبل سيكون لهم".
واستحضر في ذهنه قصيدة الشاعر (المَنْقَرِي)، راح يتلوها بصوت عالٍ، سمعه أهل الدّار حتّى جيرانه، وهو يردّدها بأسًى مُبْكٍ، بنبرة متهدّجة، تنضَحُ حُزْناً:

وإنّي كريمٌ ذُو عِيالٍ تـهِمُّنِـــي = نَوَائِبُ يَغْشَى رُزْؤُها وحُقُـــوقُ
و مُستَنْبِحٍ بعدَ الـهُدُوءِ دَعْوَتُـهُ = وقد حانَ من نَجْم الشِّـتاءِ خُفُوقُ
أضَفْتُ فلَمْ أُفْحِشْ عليهِ ولـم أَقُلْ = لأحْرِمَـهُ: إنَّ المكـانَ مَضِيـــقُ
فَقلْتُ لهُ : أهلاً وسهلاً ومَرحبـاً = فهذا صَبُـوحٌ راهِـنٌ وصَدِيـــقُ
ذَرِينِي فإنَّ البُخْـلَ يَا أُمَّ هَيثَـمِ = لِصَالِـحِ أَخلاقِ الرِّجـالِ سَــرُوقُ
وكلُّ كَريم يَتَّقِي الذَّمَّ بـالقِـــرَى = ولِلخَيْـرِ بينَ الصّالحيـنَ طَـريـقُ
لَعَمْرُكَ ما ضاقَتْ بِلادٌ بأَهْلِـهَـــا = ولكنَّ أَخـلاقَ الرِّجـالِ تَـضيـــق

وطنٌ في مهبّ الرّيح، ضاق بأهله، لم يجدوا فيه مُتّسعاً، كما تذكّر في هذه اللّحظات كلمات النبيّ الكريم صلى الله عليه وسلم. حينما خاطب بها بلد الله الحرام(مكّة)، وهو يضع أوّل خطوة له على طريق الهجرة: **(أمَا والله لأخرجُ منكِ، وإنّي لأعلمُ أنّكِ أحَبُّ بلاد الله إليَّ، وأكرمها على الله، ولولا أنّ أهلكِ أخرجوني منكِ مَا خرجت).**
-: "ونحن بعون الله سنعود منتصرين، كما عاد النبيّ إلى مكّة منصورًا بفتح مبين.
وها أنا أعيد اكتشاف اسمي..،
يا أبي..،
و يا جدّي.
فأحتاج استحضار بَحّة صوتِكَ الحنون يا أبي أتقمّصُها عبر حِباليَ الصوتيّة، وكذلك صوت جدّي المُمَوْسَق بانسيابيّة يرنُّ صداه في دربي، نبراتٌ مُتهدِّجة تأتيني، نافضة عنها غبار عالم من ذكريات، تقادمت عليها عوادي الأيام، فَتُهَدْهِدُ نفسي بحنان كلمساتِ أمّي (رحمها الله)، توقظُ شُعلة روحي كَرَخَامَةِ صوتِها، يُدندنُ في حنايا البيت، و هي تقوم بأشغالها، وأعمالها اليوميّة الروتينيّة التي لم تكن لتنتهي.
وأصوات جَلَبة الحصّادين كانت تشقّ هدوء اللّيل، تقرع سمعي من بعيد من الحارات الأخرى، وهم يتهيّؤون لمسيرة يوم بصحبة السنابل يصافحونها بأيديهم، على وقع موجات النّدى تُبلّل عيدانَ القمح؛ فتهتّز لها قلوب الفلّاحين، والخير كلّه بأيديهم، كي لا تضيع منه سنبلة، من هنا انبثقت روحٌ دَبّت في اسمي؛ فبثّت فيه حياة متجدّدة، وأغانيهم المتناغمة تمخُرُ عُباب السماء، بِبُحّةٍ مليئة بتفاؤل مالئٍ دروب الأمل.
حالات الوفاة لا تنقطع، الحزن، والجزع ينضح دفّاقاً من قلوب النّساء، وهنّ يَستذكرن مناقب من فارَقَ الحياة من حبيب أو ابنٍ أو شقيق؛ فينفذ ذلك إلى أعماقي، كنتُ أحزنُ، ولم أكن أفهم معنى لذلكٍ. ذكرياتي هناك

في بداية مشوار عمري، مُثْخَنَة بنكسة الهزيمة العربيّة الشهيرة، شاهدة على حقيقة وَهْم وانكسار. موسومة بالنّدوب، والجراح الغائرة المؤثرة. الآن الآن .. ياً أبي أدركتُ أنّني لن أكونَ كما كنتُ سابقًا من رخاء ورغد العيش، بل كما كنتَ أنتَ وجدّي في طريق الفداء، فالوطن بحاجتي، وهذه فرصتي".

***

استدار بشكل مفاجئ بخطوات سريعة إلى ساحة الدار قاصدًا شجرة الزيتون، الفأس الصغيرة بيده، راح يحفر حولها مُحدِثاً جورة بعمق ٥٠سم، ثم رفع كلتا يديه بمحاذاة رأسه، خلع خاتمه، لفّهُ بقطعة قماش وأتبعها بأكياس نايلون، واضعاً إيّاه في الجورة، ردمها بحنان، وغالبته قطرات دموع لؤلؤيّة، بللتْ ذرّات من التراب، وهذا آخر عهد للزيتونة بالماء، حسرةُ الفاجعة غير المتوقّعة مذهلة للجميع، تذكر مشاعره عندما غرَسَها، تيقَّنَ أنّه مُتجذّرٌ عميقاً، متشبّث كما تلك الشجرة، التي رعاها كما يرعى واحداً من أولاده، ها هو يُودِعُها مع خاتمِه لله.
مُردّداً: "راجعين منصورين بعون الله ".

***

اتّصالات أبي فندي جارية على قدم وساق لاستطلاع طريقة خروجهم، وفهم كافّة التّفاصيل بدقّة لتفادي الأخطاء، فالخطأ قيد أنْمُلة غير مسموح به على الإطلاق؛ لأنّه سيكون الأوّل والأخير.

كان اتّصاله مع الحجّ ساهر مسؤول مجموعة من الجيش الحرّ، تعمل على أخذ الرّاغبين من أهل القرية القاصدين إلى مخيّم الزعتريّ المُنْشَأ قبل حوالي سنة من هذا التّاريخ.
اتّفقا على موعد مُحدّد للقاء في مكان ما على أطراف القرية، يتجمّع فيه المُهجّرون.
الحجّ ساهر شابّ أنيق المظهر، دَمِث الخُلُق، ملامحه مألوفة لا تستدعي كثيرًا من الوقت للدّخول إلى قلب ناظره بلا استئذان، تُزيّن وجهه لحية شقراء خفيفة، تَرَك دراسته الجامعيّة ليلتحق مع المُنادين والهاتفين للحريّة.
فمنذ بداية الحَراك السلميّ، وأوّل مظاهرة قامت كان على رأسها وفي مُقدّمتها، لعب دوراً رائعًا في عقلنة الكثير من طيش، ورعونة بعض المُتحمّسين من الشباب، فقد كان وجهًا نقيًّا من وجوه الثورة، ومثلاً يُحتذى في أخلاقه، وسلوكه الحضاريّ المستقيم.
-: "يا أم فندي هل جهّزت كلّ شيء؟، فنحن على موعد غدًا مع الشباب، بعد العصر سيكون الانطلاق، اتّفقتُ معهم على اللّقاء في مكان آمن للجميع هم اختاروه".
-: "إن شاء الله خير.. الأمور على ما يُرام اطمئن، فها أنا على مدار الأيّام الماضية، كنت أستغلّ مُعظم وقتي في ترتيب أمورنا، يا رب تجعل التمام على خير".
-: "وهل تعتقدين يا زوجتي العزيزة أنّنا مُقدِمون على خير..؟، وهل خروجنا من بيتنا، ومن قريتنا هو خير باعتقادك؟".
-: "لا والله..!!.. يا زوجي، ما هذا الذي ما يجول في خاطري؟، فقط من أجل أبنائنا ومستقبلهم. والله يَعِزّ عليّ أن أخرج من بيتي بهذه الطريقة المَهينة. ولكن كما يُقال: **(شو إللي جابرَكْ على المُرْ، قال: إلّلي أمرّ مِنّو)**، أما رأيتَ الرصاص صار يدخل لغرفنا، وكادت ابنتنا

الصغرى أن تُصاب، والله حياتها وسلامتها عندي أغلى من كلّ الدُنيا، وكيف صرنا نضع الوسائد الصوفيّة في النوافذ فيما بين الحِمَاياتِ الحديدية والشُّباك؛ لتصدّ عنّا الرّصاص المُوجّه إلينا بشكل مقصود. الشبّيحة الله يُجازيهم لم يتركونا بحالنا، فهم يعملون على إيذائنا بكلّ طاقاتهم، أمَا رأيت كيف دخلوا على بيت ابن عمّك (أبوميسان)؟. وأهانوا أحد أبنائه بطريقة سيّئة، وعاثوا فساداً في البيت، وسرقوا الغالي والثمين، ومن ثمّ قاموا بحرق البيت، لكنّ الله سترهم بأنّ عائلته كانوا قد خرجوا قبل يومَيْن من ذلك.
خاصّة بعدما وقفت عربة (بي إم بي) أمام البيت، وأطلقت قذيفة على مدخل البيت فحطّمته، وكان ما كان".
-: "يا أمّ فندي، أرى أنّ الطريق أمامنا طويلة، وأنّنا ربّما خارجون إلى المجهول؛ إذا استمرّت الأمور على هذا النهج والمنوال؛ إلى الذلّ والهوان، هكذا صارت حال من خرج من بيته، من أيّام النكبة والنكسة، ألا تذكرين كم احتضنت بلادنا من هؤلاء المُهجّرين من ديارهم؟، وها هم صاروا بيننا، وقد نَسُوا أوطانهم شيئًا فشيئًا، وتراخت همّتهم وحماستهم تجاه فلسطين، حتى أن العالم كلّه يقف وراء مطالب إسرائيل في الضغط لمنع تحقيق حقّ العودة، الذي أصبح حُلُماً بعيد المنال.
ولا يبدو أنّ هناك أدنى بارقة من أمل في عودتهم، سمعتُ منذ فترة أن الأمم المتّحدة تقودُ مشروعاً لتوطين هؤلاء اللاجئين في البلدان المضيفة، وإعطائهم تعويضات مُجزية مقابل تنازلهم عن مطالبتهم بالعودة، أخاف أن تتمدّد قضيّتنا لنصبح مثلهم - لا سمح الله -، و أن نصير ألعوبة بأيدي الأمم".
تنطلقُ قافلة المهاجرين من القرية، بالتنسيق مع مجموعة خيّرة من عناصر الجيش الحرّ، الذين يقومون بتجهيز سيّارات على حسابهم،

وتسير بعد العصر بحراستهم، وكانت هذه الرحلة كلها بالمجّان، دون دفع أيّ شيء من المهاجرين، أو أخذ أيّة مبالغ ماليّة.
الطريق طويلةٌ طويلة، مُشرعة على دهاليز الخوف، والقادم المجهول، مفتوحة على كلّ الاحتمالات، لا شيء مضمون لمن يسلكها، هي أطول مسافة في حياة كثير من النّاس المُتجذّرين بأمكنتهم، تستغرقهم من يوم مولدهم إلى هذه اللّحظة.
تحرّكت القافلة بسيّاراتها الثلاث (البيك أب) كبيرة الحجم، تحملُ عددًا ما يقرب من خمسين شخصاً معظمهم من النساء والأولاد.
الهواء يلفح رؤوسهم، والأطفال الصغار في أحضان أمّهاتهم، وقد لُفّوا بالبطانيّات؛ لوقايتهم من لسع البرد القارص، قاطرة السيارة مفتوحة على جميع الاتّجاهات، فالرياح تلعبُ بالرّؤوس، والعيون تدمع من شدّة الرّيح المُندفعة تلفحُ وجوهَهم، وشَعْرَهُم مُتناثر منفوش كمن خاف بشكل مفاجئ، كان جُلّ اهتمام الجميع منصبٌّ على وقاية الأطفال.
تتقدّم السيارات تُعاند الرّيح، تنهب الطريق بهمّةٍ عالية، فتختنق أنفاسهم، شيئاً فشيئاً تضيع معالم القرية، وتضيع معها شخصيّاتهم، وحياتهم بمجملها، فلم يبق لديهم شيء يستطيعُون التفكير فيه.
يا للأيّام التي تركوها هناك في حاراتهم، وأزقّة قُراهم..!!.
يا لحجارتها السوداء المُعَشْعِشَة في ثنايا قلوبهم تستولي على وجدانهم.
أبو فندي يصرُخُ في داخله؛ فتتمزّق أحشاؤه، على جنبات طريق مجهولة معالمها:
"يا لأهلي ..،
يا لأصدقائي..،
أين كانت تختبئ تلك الأيّام لنا؟.

غابت ملامح ديارنا كلّها..، وها أنا أُسدِلُ السّتارة على مرحلة أصبحت ذكريات، وأقف على ناصية قبري، ذلك الذي أسير إليه بقدميّ، وبإرادة منّي، فهل سيكون مُخيّم الزعتري، هوقبري ونهايتي..؟؟..!!".
خلال الفترة الماضية حاولَ جاهداً الربط ما بين وادي الزعتريّ، المُحاذي لقريته من جهة الجُنوب، وما بين قرية الزعتريّ في الأردنّ، والتي كانت حتّى قُبيل سنة من ذلك مجهولة، تلتفّ على نفسها في ثنايا صحراء، لا تكاد تُذكَر أو لها اسم على الخارطة، لم يسمع بها أحد من قبل.
هاهي تنفُضُ عنها غبار السنين، وتكسر نمط جُغرافيّتها القاسية، ترفضُ بعنادٍ تجاهُل التاريخ الطويل لها؛ لتصبح قرية عالميّة كلّ سكّان الكرة الأرضيّة سمعوا باسمها، مشفوعاً ومقروناً بكلمة مخيّم..، إنّه مُخيّم الزعتريّ !!".

***

السيّارات تربض خلف تلّةٍ ترابيّة بانتظار غروب الشمس، وهبوط الليل بظلامه..، الشمس مُستعجلة خطواتها إلى مُستَقرِّها، فهي على موعد مع النّصف الآخر من الكون، ساحبة خلفها كلّ خيوط النّور؛ لتترك المهاجرين قابعين في السيّارات.
الظلام يتسلّل رويداً رويدا..، التلّة المُقابلة تُشكّل دريئة لحماية المكان الذي تربض فيه السيّارات؛ فتجعله آمنا، والطريق المُنحنية على جنباتها صعوداً وهبوطًا، محميَّة بشكل طبيعيّ.
شباب الجيش الحُرّ المُسَلّحون، ينتشرون على النُّقاط الخَطِرَة للحماية والدّفاع عن القافلة إذا ما حدث طارئ.
السيّارات ما زالت تصلُ تِباعًا من جميع مناطق المحافظة، بأناس من قرًى بعيدة، فرّوا بأرواحهم.

آخر ذيول ضوء الشمس اختفت، العتمةُ بدأت تُخيّم على المُحيط، الحجّ ساهر يتطلّع إلى ساعة يده، لِيُعلِن أنّ وقت صلاة المغرب قد دخل، نادى بأعلى صوته على كلّ من هو جاهز للصلاة أن يتقدّم للجماعة، كان هو الإمام، صلّوا العشاء أيضاً جَمْعَ تقديم مع المغرب.

***

تحرّك الرّكْب الذي يناهز الخمسمئة شخص، بكافّة مجموعاته، الوصايا تنطلق للجميع بخفض الصوت لدرجة كبيرة، وعدم إثارة الجلبة والضجيج.
نقطة العبور محدّدة مُسبَقًا ومتّفق عليها مع الأردنيّين، مكشوفة في معظمها، قريبة جدًّا من مركز حدود (نصيب)، بضع مئات من الأمتار تفصل بينهما، وضمن المدى المُجدي للبارودة الروسيّة، أي أنّها ليست خارج دائرة الخطر، حيث يتمركز فيه جنود النّظام وقنّاصوه، بعضهم يقول إن الطريق مُشترًى، ومدفوع مبالغ ماليّة لضبّاط مركز نصيب لسماحهم بمرور المهاجرين.
من حسن الحظّ فقد كان هذا اليوم هو منتصف الشّهر الهجريّ، القمر كان في طوْره بدرًا؛ يُنير الطريق تلك، فهي صعبة المسلك لارتفاعها وهبوطها، وشدّة وعورتها، كأنّ الحجارة زُرِعَتْ بها عمداً.
حوالي ثلاثة كيلو مترات هي المسافة المُتوجّب أن يقطعوها للوصول إلى برّ الأمان، هناك على الجانب الآخر من الحدود مع الأردنّ.
-: "أما زال الطريق طويلاً؟، أنهكني التعب، وهدّ جسمي يا أبا فندي".
-: "لا ياعزيزتي..، أنزلي حملك، ارتاحي قليلًا، ها هي أولى خطواتنا تدوس الخطّ الحربيّ، فما هي إلا بضعة مئات من الأمتار، اصْبِري ..،

انظري هناك ضوءٌ خافتٌ، علينا الوصول إليه، خلف الساتر الترابيّ، وهو أوّل مخافر الحدود الأردنيّة".

***

هاهم .. اجتازوا السّاتر الترابيّ.. سيّارتا إسعاف عسكريّة أردنيّة، لاستقبال جميع الجرحى والمصابين أو تحسّبًا لأيّة حالة طارئة، بعدها بمئتي متر، وصلوا إلى نقطة عسكرية مُجهّزة على عجل بشكل معقول، مجموعة من (الكرفانات)، قاموا بفصل الرجال في (كرفان) وحدهم، والنساء في (كرفان) آخر مقابل لهذا.

استلموا بطاقات الهويّة، والوثائق العائليّة، قاموا بتسجيل الأسماء، وأعادوها لأصحابها، ثم سمحوا لقسم منهم بالصّعود على متن حافلة، باص (البولمان)، تلقّوا تنبيهًا يتوجّب على الجميع إغلاق أجهزة (الموبايل) بشكل خاص.

لكنّ أحد الشباب لم يغلق جوّاله؛ لعدم انتباهه للتحذير، العسكريّ يتمشّى حول الحافلة، يحملُ جهازاً، يقوم بكشف إشارات ذبذبات (الموبايل)، أو أيّ جهاز إلكتروني آخر.

بكلّ أدب مشى إلى الكرسيّ الذي يجلس عليه ذلك الشّاب، سَحَبَ منه الموبايل بهدوء، أغلقه دون المساس به، أو الإساءة لذلك الشّاب المُخالف لأوامرهم.

***

نظرات أبو فندي زائغة لا يرى شيئًا خارج الحافلة المنطلقة بهم، فالستائر ترتخي على نوافذها، بأمر العسكريّ أيضًا، ممنوع رفعها لأنّهم في منطقة عسكريّة، الإجراءات الأمنيّة مُشدّدة فيها.
بعد حواليّ نصف ساعة من الانطلاق؛ وصلوا إلى مركز أمن المفرق (تسليم بطاقات الهوية ودفاتر العائلة)، وأعطوهم إشعارًا، للمراجعة به عند العودة كي يستطيعوا استعادة وثائقهم، بعد التفتيش للأغراض كانت نهاية الإجراءات.
حان وقت الانطلاق ثانية باتّجاه المخيّم، بواسطة حافلة أخرى غير تلك التي أقلّتهم من نقطة العبور الحدوديّة، لم يبعُد المُخيّم أكثر من خمسة عشر كيلو متراً عن مدينة المفرق.

***

يخاطب أبو فندي نفسه، تبدو على وجهه آثار التّعب والإرهاق:
"أخيراً ها أنا أقف أمام بوابة الزعتريّ وجهًا لوجه.. لحظات مليئة بالغيظ والكمد، استوقفني شيء ما غامض؛ ليكون لي حديثُ مُطوّلٌ مع نفسي، مُستدركًا على موقفي هناك.
لتثبيت ما حدث معي بدقّة في سجلّ ذاكرتي، ولا يضيع في زحمة النسيان القسريّ، حينما وقفتُ أمام صورة والدي، قُبيل مغادرتي البيت، وها أنا أقف الآن أمام بُوّابة مخيّم الزعتريّ.
هاتان وقفتان مختلفتان، مليئتان حسرة وندامة، أيقظتا في ذهني الكثير والكثير.
أين قطرات دمك يا أبي، وأنتَ تُقاتِل العدوّ الصهيونيّ؟.
ومن أجل أيّ شيء قدّمتَها، وبذلتها رخيصة يا أبي؟.
وهل هذا الشيء الذي ضحيتَ من أجله يَستحّقُ ذلك؟.

وأنتَ يا جدّي، ما الذي بقي لنا من تراب قبرك؟.
بقيت ذكراك ماثلة في عقولنا، وأنت تُقارع فرنسا، وها نحن أحفادك تركنا الوطن الذي من أجله أرخصتَ الغالي والنفيس، وصرنا مُهَجّرين مُرْغمين، لا خيار لنا غيره.
ها أنا أنيخ رحالي أمام بوابة **مخيّم الزعتريّ** مُنكَسِر الخاطر، فما كان في السابق مُستحيلاً أن تتطرّق له نفسي بِمُجرّد التفكير، ها هو أصبح واقعاً، دوّامة جديدة دخلتُ فيها.
صارتْ حياتي جزءاً كئيباً منها، ومَسْخاً من مُسُوخ الذُلّ والهوان، هروبٌ من الموت يُسمّى لُجُوءاً.
خاصّة في هذا المكان سيّء السمعة؛ لعدم موافقته لمواصفات العيش والكرامة الإنسانيّة. فهو قطعة من الصحراء، الغبار جزء أساسيٌّ من الحياة اليوميّة. الخيام بائسة كبؤس ساكنيها المُتطاول إلى حافّة القمر، رغم تعاطفي الكبير مع إخوتنا الفلسطينيّين، نُكِبُوا، ونَزَحُوا، وشُرِّدوا، وانتفضوا، وما زالوا يُقاومون عدوّاً شرساً لئيماً بإصرار، وصمود مُذهل لكلّ بني البشر، بحثتُ طويلاً مُتعمّقاً مُحاولاً الوصول إلى حقيقة مشاعرهم، نظرتهم للحياة، والكون من حولهم، فلم أستطع النّفاذ للبّ وجوهر ذلك، بل لم أزدَد إلاّ بلادةً جامدة باردة جليديّة، إلى أن انقلب الزّمنُ علينا.
وانقلب وجه الوطن صقيعًا قُطبيًّا، لفّ حياتنا من أقصاها إلى أدناها، كما (الأسكيمو).
نُكِبْنا بالوطن الذي أحبَبْناه، وهو نُكِبَ بنا، عندما تنَكّبْنا لثوابته، ورميْنا بها خلف ظهورنا، فجعلناها **(شَرْق الذَرّايات)**، وطنٌ أسستموهُ على المحبّة.
فقوّضته ثقافة الكراهية الحاقدة الخارجة طازجة من بُطون الكُتُب، تَفِحُّ بِكِيرِ الطائفيّة المقيتة..، ستحرق الأخضر واليابس.

وطنٌ ديست كرامته ببسطارِ جُنْدِيّه الذي كان من المُفترض أن يَحمِيَه من عاديات الدهر وتغوّل البّشر.
السيّد البسطار يَدوسُ كرامة النّاس، يسحقُهم بحقد مجوسيّ منبوشٍ من تاريخٍ مُشوّهٍ. ربّما تأتيني لحظة أقترفُ جريمة الكفر بالوطن.
فما هو الوطن؟.
وما الوطنُ فِيَّ وأمثالي؟.
أعتقد يقيناً أنّني أستطيع أن أشير لِخَوَنَةِ هذا الوطن..!!، الأمر انفضح، لم يَعُد ذلك خافيًا على كلِّ ذي لُبٍّ فَهيم، عندما يقرأ ما خلف السّطور.
فالأزمنة والأمكنة هي أغلفة أجسادنا الفعليّة، فيها تضجُّ حياتنا بأحلامها، وأشيائها الجميلة.
فالوطن هو الزّمان والمكان.
فلماذا تتواضع أحلامنا، وينخفض سقفها إلى لقمة خُبز، وازدادت حالنا بؤسًا؟.
الوطن يستمدّ حريّته من حريّة أبنائه، وعندما يُساد بِبُسطار فوق بسطار، يُحِيلُ حياة أبنائه ليل عبيد، ويجعل الذُلَّ أكاليل استعْبادٍ واسْتِبْعادٍ.
والمراوغ المُتَلَوِّن - البَيْنَ بينْ - هادئ مُنَاور بمهارة في ملكوت البساطير. يُقَبِّل هذا ويمسح غُبار هذا. يُلَمِّع هذا وذاك، تغمره السعادة من مفرق رأسه إلى أخمص قدميْه. مُقيم في المنطقة الرماديّة، لا يُكلِّفُ نفسه مشاقّ البحث عن طريق قريبة من الحقّ بعيدة عن الباطل، يجدُ فيها نفسه وهويّته؛ لأنّه فاقد لها، ويبتعد بأشواط طويلة عن الانتماء الحقيقيّ لإنسانيّته، فيجدُ نفسه مُلتصقة في لجّة الباطل، فيصير وقت ذاك قائدًا، ومُنظّرًا.
مسافات كبيرة تبتعد به عن الحقّ، بعيدًا عن صراعات القوى على افتراس إنسانيتّه، المسحوقة تحت سنابك آلتها الهمجيّة، فأَخَذَ عهدًا أن

يُكوِّن جهة مُغايرة متناقضة مع بُناة خيمة الحريّة، فضلًا عن تعزيز ثوابتها، بل راح يتأمّل بخشوع أرضيّة البسطار، يحسبُها أنّها السّماء، بل ذهب به الأمر إلى أن تَعَبَّدَهَا بطاعة عمياء، مُتَبَتِّلاً في محراب جُبنِه وخوفه. راجيًا دوام الخُبز، والعزّ في ظلال آلهته.

الأكثريّة الصامتة، تُغري السيّد البسطار بالمزيد من نهب مُقوّماتها، ظنًّا منه أنّ جُموع المُتجمهرين المدّاحين الردّاحين السدّاحين المُصفّقين، هي جماهيره المؤيّدة الطائعة، باستطاعته أن يأمرها، فَتُطيع وتُجيب: "سمعاً وطاعة".

تداعي الأفكار قادني؛ لأتذكّر مقولةً من قديم قراءاتي، لـ(ميخائيل شولوخوف)، في رائعته رواية (الدُّونُ الهادئ): **[في كلّ ثورة، في كلّ عاصفة اجتماعيّة يوجد دائماً أناس يحاولون خداع أنفسهم بهذه الفكرة البريئة من الوهلة الأولى..، فكرة الحِياد السياسيّ، ولكن كم من النّاس قادته إلى حافة الهاوية؟، وكم من الناس دفعت به إلى دوّامة مصائب، و عذابات لا حصر لها ؟.].**

يا للغرابة ..!!. كيف استطاعت ذاكرتي أن تستعيد ما قرأتُه من سنين بعيدة؟، في هذا الموقف العصيب، وخصوصيّة الظرف.

المزيد من تداعيات أفكاري انهالت عليّ، وأنا أقفُ مشدوهًا أمام البُوّابة الكبيرة المُحاطة بالأسلاك والحرّاس، عيناي مُركّزتان على لوحة كبيرة جميلة مكتوب عليها بخطٍّ أنيق:

(أهلا بكم في مخيّم الزعتريّ).

عصفتْ بارقةٌ بشريط ذكرياتي، فأضاءت غيهب الظُّلَمِ في نفسي، لأستمع إلى شاعر المقاومة الفلسطينيّة (**سميح القاسم**):

"تقدّموا.. تقدّموا، كلُّ سماء فوقكم جهنمُ، وكلّ أرض تحتَكُم جهنّم، لن تكسروا أعماقنا، لن تهزموا أشواقنا، نحنُ القضاء المُبرَمُ".

كما أنّ صديقي الشاعر (**سليمان الشيخ حسين**) من مدينة (مِصْيَاف)، كتب لي ذات يوم تحيّة صباحيّة على صفحتي على (الفيسبوك): **[صدري يُشبهُ واحات حُلُمٍ، وركضُ خُيولكَ الجامحةَ لا يتوقّف، وكان عليّ أن أزرع موْجَ شوقٍ على وسادتك، وكان على المرايا أن تُريَني وجهي كما تعرفَه].**
جاءت هذه الكلمات كشحنة عظيمة مملوءة أملًا وتفاؤلًا، وبَلْسَماً شافياً، في توقيتها الصحيح.
وها أنا اللّاجئ أتخشّبُ وحيدًا كَصَنَم منبوذٍ، على بوّابة المُخيّم، الحرّاس من أمامي، والحدود من خلفي، اِلتَفَتُّ إلى الخلف، وتَفَقْتُ ثلاث مرّات على حالتي الذليلة.
ولأنّ الظلام يلفّ غفلتي، صوتُ الحرّاس يقرعُ سمعي؛ فيُخْرجني من عُزلة غفلتي؛ لِحثّي وممن هُم حولي على التحرّك، والدخول، فحملتُ حقيبتي وتفقّدتُ أولادي، بخطوات قليلة بطيئة وطئت قدماي عتبة المخيّم، وأنا أردّد عبارتي الشهيرة: **"لا عتب لي إلاّ على من باع"** و**(كلُّ أرضٍ تُنبتُ الحبَّ وطن .....)***

---

*مقولة للشاعر محمود درويش.

***

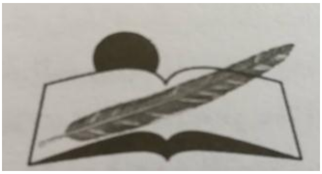

اا..تمّت بعون الله وفضله..اا

المؤلف في سطور

- محمد فتحي بن قاسم المقداد.
- تولّد ١٩٦٤ بصرى الشام – محافظة درعا – سوريّة.
- حاصل على شهادة الثانويّة العامّة الفرع الأدبي ١٩٨٢.
- العمل في مهنة حلّاق رجّالي.
- **الأعمال المنشورة:**

– كتاب (شاهد على العتمة) عام ٢٠١٥.

– رواية (دوّامة الأوغاد) عام ٢٠١٦.

– كتاب (مقالات ملفّقة – ج١) عام ٢٠١٧.

– رواية (الطريق إلى الزعتري) عام ٢٠١٨.

- هناك مجموعة من الأعمال الأدبية ما زالت مخطوطة.

** ●● **